المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

د. هاني الراهب

# الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

# الشخصية الصهيونية
## في الرواية الإنكليزية

الدكتور
هافي الراهب

# الشخصية الصهيونية
## في الرواية الإنكليزية

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الاولى
تموز ( يوليو ) ١٩٧٤
الطبعة الثانية
كانون الثاني ( يناير ) ١٩٧٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى تموز ( يوليو ) ١٩٧٤
الطبعة الثانية كانون الثاني ( يناير ) ١٩٧٩

# الفصل الأول

## مقدمة

### ١

غرض هذه الدراسة هو تقصي ظهور وتطور الشخصية الصهيونية في الرواية المكتوبة بالانكليزية . فحتى بداية القرن التاسع عشر كان اليهودي يصور في القصص الانكليزي اما على صورة شايلوك أو اليهودي التائه . غير أن روايتي **هارنغتون** ( ١٨١٧ ) لماريا ادجورث و**ايفنهو** ( ١٨١٩ ) للسير والتر سكوت قدمتا مفهوما جديدا لليهودي بابرازه على انه شخصية طيبة . لقد وجدت ثمة بادرة عابرة حملت بذرة هذا التغير في رواية طوباياس سموليت ، **مغامرات فرديناند كونت فاذوم** (١٧٥٣) ، التي قدمت ميناسا على انه « اسرائيلي سخي (١) » يمارس فعل الخير مع كلا اليهود والأمميين بطريقة سرية . ولكن لم تظهر ، بعد الصفحات العشر التي خططت فيها شخصية ميناسا ، قصص تقدم صورة مماثلة لليهودي الا بظهور رواية **هارنغتون** . وبعدئذ بدأت شخصية اليهودي الطيب تعالج بتكرار أكثر وأشمل خلال القرن التاسع عشر ، منقسمة الى شخصيتين متناقضتين تماما هما اليهودي المندمج والصهيوني .

سوف نصف هنا الشخصية الثانية بتتبع تاريخي ، وسنزعم أن ظهورها كان رد فعل على شخصيات شايلوك واليهودي التائه ويهودي الغيتو . ويمكن القول أن الرواية الصهيونية ــ باستثناء ما كتبته يائيل دايان ــ تقدم شخصية صهيونية مثالية أو متخيلة أكثر منها واقعية مقنعة . ومع الأسف ليس ثمة في كتب النقد والدراسات الادبية الكثيرة حيز مخصص لهذه الشخصية ، وهذا ما يجعل دراستها كشفا صعبا. وتزداد الصعوبة اذ نتذكر أن التمييز بين « اليهودي » و « الصهيوني » غامض وغالبا ما يعتبر غير ذي أهمية . سوف نرى فيما بعد أن الحديث عن اليهودي لا يعني بالضرورة الحديث عن الصهيوني ، بل وربما كانت ثمة فروق جوهرية تبلغ حد التناقض بين الشخصيتين . وهذا هو السبب الاول للقيام بهذه الدراسة . السبب الثاني يتعلق بطبيعة القصص الصهيوني : انه يقدم تفاؤلية طوباوية تخلو منها

---

١ – Tobias Smollett, **The Adventures of Ferdinand Count Fathom** (Oxford : Busil Bladewell, 1925), Vol. II, p. 88.

الشخصيات اليهودية التقليدية . انه يتحدث عن نوع جديد من البشر ، عصامي ومنكر لذاته ، مثالي وبراغماتي معا ، مزيج من الشقاء وارادة القوة . ومرة أخرى باستثناء روايات يائيل دايان ، ان هذا القصص يروي حكاية ارض أعيد اكتشافها وخلقها ، وسكان أعرض من الحياة . ثمة اذن دافع لاستجلاء الدور الذي لعبه الادب في خلق وتصوير أحلام العالم الصهيوني وحقائقه .

ينبغي هنا تقديم شروح لمجموعتين من التعابير ، سياسية وثقافية . تتضمن المجموعة الاولى عبارات « اليهودي المندمج » ، « الصهيوني » و « الصهيونية » ، أما الثانية فتتضمن « شايلوك » ، « اليهودي التائه » و « الصابرا » . وهي تسميات تحمل معها معاني اضافية قد لا تكون حاضرة دائما في النص ، وهي في أساسها نابعة من تربة أوروبية صرف .

الاندماج ظاهرة سياسية اجتماعية مستمرة ولكنها غير كاملة ، بدأت منذ استقر اليهود في أوروبا بعد ظهور المسيح واستمرت حتى عصرنا الحاضر . غير أن أسبابا دينية واقتصادية وسياسية ذات ثقل نوعي جسيم لم تحل فقط دون اندماج اليهود في المجتمعات الاوروبية بل وعزلت جمهرة كبيرة منهم في غيتوات بقيت حتى مطلع القرن العشرين . ومن جانب آخر فقد أتيحت لجماهير غفيرة من اليهود فرصة الاندماج في عصور مختلفة ، وقد اغتنموها . فقد بدأ تحرير اليهود في القرن الثامن عشر وكان نتيجة لروح المساواة التي نادت بها البورجوازية الاوروبية الوليدة . وكانت استجابة اليهود لهذه الظاهرة شاملة وفي بعض الاحيان ناجحة ، وقد قادها فيلسوف ألماني يهودي هو موزس مندلسون ( جد الموسيقار الشهير ) الذي أسس حركة اندماجية نشيطة ما لبثت فيما بعد أن اصطدمت بالحركة الصهيونية . وقد دعا مندلسون الى فصل الدين عن الدولة وترك حرية الاعتقاد والعبادة للاختيار الشخصي . وكان يعتقد أن « اليهودية ليس دينا منزلا وانما هي شريعة منزلة» . (٢) اما آراؤه حول الديانات التوحيدية فقد اثبتها الكاتب الالماني الشهير لسنغ في مسرحيته **ناثان الحكيم** : يسأل السلطان صلاح الدين ناثان اي الاديان الثلاثة المصطرعة في القدس هو الدين الصحيح ، ويجيب ناثان بسرد الحدوثة التالية :

لقد ورث انسان خاتما مقدسا ثم ما لبث أن واجهته مشكلة توريثه الى واحد من ابنائه الثلاثة الذين أحبهم حبا كبيرا متساويا . وهكذا صنع خاتمين مماثلين تماما للأول ووزع الثلاثة بين ابنائه . لكن الخلاف شجر بينهم غب وفاته اذ ادعى كل منهم ملكيته للخاتم الأصلي . وقال القاضي الذي استدعوه للحكم بينهم أن الخاتم الاصلي قد ضاع وان الاب صنع ثلاثة خواتم بدلا منه متخلصا بذلك من طاغوت الخاتم الواحد دون أن يحزن .

وقد انضمت شخصيات يهودية بارزة الى حركة مندلسون ، وما تزال مبادئها

---

٢ – Emile Brehier, **The History of Philosophy : The Eighteenth Century,** Trans. Wade Baskin (Chicago & London : The University of Chicago Press, 1967), p. 185.

حية في نفوس عدد غير يسير من اليهود في جميع انحاء العالم ، وخاصة بين الادباء والمفكرين . بالطبع لا يجلس الروائيون الى طاولاتهم ويقولون : « فليكن لدينا شخصية مندلسونية » . وقد لا يفكرون باسم الرجل وهم يكتبون عن الاندماج . غير أن الامر المؤكد هو ان استجابة اليهود والاممين لظاهرة الاندماج هذه هي التي دفعت ادجورث وسكوت ـ وغيرهما ـ الى ابراز شخصية اليهودي الطيب .

على أن حركة مندلسون ساعدت بدون قصد على انماء « وعي عرقي لدى اليهود » . (٣) لكن العامل الاكبر في انماء هذا الوعي هو اضطهاد اليهود في عديد من البلدان الاوروبية اضطهادا دفع قسما منهم الى تغيير مواقفه الاساسية . فبدلا من أن تكون القدس موضوع توق ديني بحت مرتبط بعهد قيام المسيح اليهودي ، ارتبطت عند هؤلاء بفكرة ملاذ سياسي . وهكذا ظهر في القرن التاسع عشر مفكرون يهود قطعوا صلتهم بالانسانية عامة وبشروا بأفكار صهيونية مفادها ان على اليهود ان ينفصلوا عن العالم ويكفوا عن أن يكونوا جزءا من نهر البشرية العريض . الصهيونية اذن نتاج للاسامية ، وكحركة سياسية يبدو بوضوح انها « أكثر أوروبية منها يهودية » . (٤) ويصف الكاتب الاسرائيلي عاموس ايلون كيف ان فكرة « الروح القومية » التي بثها فيخته ودوستويفسكي وآخرون ، لاقت صدى ايجابيا في نفوس اليهود الساخطين الباحثين عن تلك الروح اليهودية التي يمكن أن ترضي مشاعرهم البورجوازية على نحو ما حدث بالنسبة للقوميات الاوروبية حين انقسمت أوروبا الى قوميات صنعتها طبقة الصناعيين التجار الجديدة . ويكتب السيد ايلون عن « الحلف غير المقدس بين اللاسامية والصهيونية » (٥) الذي ادى الى موجات هجرة يهودية متتابعة بدعوى فقدان الامل في التعايش السلمي بين اليهود وغيرهم .

غير أن رد الفعل على اللاسامية لم يكن العامل الوحيد في نشوء الصهيونية ، اذ أن ثمة رد فعل آخر يتصف بالغرابة واللامعقولية ، على الاقل للوهلة الاولى . لقد رافق رد الفعل ضد الاضطهاد ، وولد معه كتوأم ، رد فعل ضد اليهودية لا يقل عنفا . وكما يكتب عاموس ايلون ، فان المبشرين بالصهيونية

> سرعان ما اجمعوا على [ خلق ] النموذج الجديد لليهودي اللايهودي ، القوي والشجاع كما الأمميين بالضبط وليس كيهودي الشتات . (٦)

وهذه الكراهية للصفة اليهودية تضفي توكيدا جديدا لتفسيرنا للصهيونية على انها طلقة اوروبية اكثر منها يهودية . فالصهيونية ليست عودة الى اليهودية التوراتية، وانما هي محاولة للحفاظ على الشخصية الاوروبية لليهود الصهيونيين . وهذا واضح ايضا في الاساس العقائدي للصهيونية . مرة أخرى نقتبس من السيد ايلون :

> لقد ولدت فكرة اسرائيل الحديثة مع اليقظة القومية لبولنده ولتوانيا ، اوكرانيا والصرب ،

---

٣ ـ الموسوعة البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة ، ص ٩٥٤ .

٤ ـ Amos Elon, **The Israelis: Founders and Sons** (London: Weidenfeld and Nicolson, 1971), p. 40.

٥ ـ Ibid, p. 66.

٦ ـ A. Elon, **The Israelis**, p. 122.

التشيك والفنلنديين والسلوفاك ، ولكن وقبل كل شيء في المناخ الثوري السائد في روسيا بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٢٠ . فمن روسيا جاء آباء اسرائيل الؤسسون ، وقد ولدت الحركة العمالية الصهيونية في « مينسك » عام ١٩٢٠ ... وكانت نتاجا محليا روسيا كما الشعبية ( النارودنية ) والمنشفية والبلشفية (٧) .

في النصف الغربي من أوروبا كانت اللاسامية أيضا مسؤولة عن ولادة الصهيونية . ففي أواخر القرن الثامن عشر أعلنت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) مباديء ضد التمييز والظلم واعطت بذلك لليهود حق المواطنية الكاملة في عدة أقطار . وقد حققت هذه الليبرالية البورجوازية للثورة ، ومعها الحركة المندلسونية ، نتائج هامة في ميدان اندماج اليهود مع القوميات الناشئة في أوروبا الغربية . لقد طلب اليهم أن يختاروا الشخصية القومية للاقطار التي يسكنونها ، ومعظمهم قام بذلك . لكن اللاسامية لم تمت ، وكذلك لم تشبع الروح الجديدة مطامع البورجوازية اليهودية نفسها التي كانت تريد اكثر مما اعطي لها . ومع ان ما اعطي للبورجوازية اليهودية لم يقل عما كسبته الجماهير العريضة في تلك البلدان ، فقد اراد بورجوازيو اليهود أن تندثر اللاسامية ، بما فيها من تحديد لنشاطاتهم ، قبل أن يكون ذلك ممكنا كواقع تاريخي . وقد قامت الحكومات الرجعية ( بسمارك ومترنيخ مثلا ) بعمليات اضطهاد مدبرة لليهود كي تتوصل الى ضرب الحركة البروليتارية المتعاظمة القوة . وعندما قامت المظاهرات في باريس عام ١٨٩٥ تندد باليهود بسبب قضية دريفوس . وانتقلت عدواها الى النمسا وروسيا ، في ذلك العام كان ثيودور هرتزل ـ وهو يهودي اندماجي من فيينا اعتبر القومية جدثا ميتا ـ يشاهد ما يحدث فانتقل الى الصف الصهيوني وألف كتابه **الدولة اليهودية** عام ١٨٩٦ . وفي العام التالي انعقد في بازل بسويسرة أول مؤتمر صهيوني بقيادته . وقد قرر المؤتمر بدء المعركة « لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام » . ( الموسوعة البريطانية ، ٩٥٥ ) وقد لخص سياسته الرامية الى تحقيق هذا الهدف في أربع نقاط :

(١) تنمية استعمار فلسطين بخطى مناسبة من قبل العمال اليهود الزراعيين والصناعيين . (٢) تنظيم ورص اليهود جميعا في مؤسسات ملائمة ، اقليمية ودولية ، منسجمة مع قوانين كل بلد . (٣) استيلاء وتقوية العاطفة القومية والوعي القومي عند اليهود . (٤) خطوات تمهيدية تستهدف الحصول على اذن حكومي ـ حيث يلزم ـ بانجاز هدف الصهيونية (٨) .

ومثل زملائه الصهيونيين الشرقيين ، تصور هرتزل الدولة اليهودية كاستطالة اوروبية حضاريا وثقافيا . انه لم يؤمن بثقافة يهودية ولا بتاريخ يهودي ، وكذلك لم تكن فلسطين اختياره الاول مع أنه أدرك أهميتها « كخرافة فعالة » . فقد فكر في الارجنتين كاحتمال وقبل فيما بعد ـ مع القادة الصهيونيين ـ العرض البريطاني لاقامة الوطن اليهودي في اوغندة . يكتب هرتزل في **الدولة اليهودية** : « يجب ان نقيم [ في فلسطين ] جزءا من السور الاوروبي العادي لآسيا ، مركزا متقدما للحضارة

---

٧ – Ibid, p. 36.

٨ – Encyclopaedia Britannica, Vol. XXIII, p. 955

مناهضا للبربرية » . (٩) ومن هذا يتضح أن الصهيونية تستهدف أساسا الاحتفاظ لليهود بشخصيتهم الاوروبية ، وهذا واضح في الحياة الاسرائيلية الحالية .

بالطبع لم تمض الحركة الصهيونية في عملها بنجاح مضطرد . كانت الضربة الأولى موت هرتزل الذي كشف كم ان هؤلاء الصهيونيين مختلفون في شخصياتهم واعتقاداتهم وعاداتهم بحسب الاقطار التي انتموا لها . وفي أوائل القرن العشرين ظهرت المنظمة اليهودية الاقليمية التي هي استمرار للمندلسونية . كذلك انسحب اعضاء بارزون من الحركة الصهيونية لمعارضتهم مبدأ القومية اليهودية . وكانت النكسة الخطيرة التالية هي نشوب الحرب العالمية الاولى . وبحلول عام ١٩٢٧ كان المهاجرون من (اليشوف) ( المستعمرين الصهيونيين في فلسطين ) أكثر من القادمين . وبالقياس للهجرة اليهودية الى الولايات المتحدة ، كانت موجات الهجرة الصهيونية ، المعروفة باسم ( عاليه ) أو الصعود ، « مجرد قطرة » ( ايلون ، **الاسرائيليون** ، ص ٨٠ ) . الا ان « اضطهاد هتلر [ لليهود ] أطلق موجة جديدة من المهاجرين انقذت اليشوف » . (١٠) وهكذا حقق هتلر للصهيونيين نجاحا لم يكونوا ليستطيعوا تحقيقه بأنفسهم رغم نشاطاتهم المتعددة واهمها تكوين جيش صهيوني : في عام ١٩٠٩ « ساعد بن زفي وبن غوريون في اقامة منظمة دفاعية سرية » كان شعارها : « بالدم والنار سقطت يهوذا ، بالدم والنار سوف تنهض ثانية » . ( ايلون ، ص ١١٨ ) وقد تمكنت هذه المنظمة ــ التي عرفت فيما بعد باسم الهاغاناه ــ من حماية اليشوف خلال الثورة العربية الفلسطينية بين عام ١٩٣٦ و ١٩٣٨ ، بل ان « بعض أعضائها قاموا باعمال الثأر ، متعاونين مع الجيش البريطاني الذي قدم لهم الاسلحة » ( رودنسون، **اسرائيل والعرب** ، ص ٣٤ ) . وفي حرب ١٩٤٧ ــ ٤٨ بين العرب والصهيونيين كان عدد المقاتلين من الجانبين « متساويا تقريبا في البداية ... وفي مرحلة الحرب الاخيرة كان ثمة ٦٠٫٠٠٠ جندي يهودي مقابل ٤٠٫٠٠٠ عربي » ( رودنسون ، ٣٩ ) .

يمكن التعريف بالصهيونية اذن باعتبارها حركة تستهدف خلق امة يهودية واستعمار فلسطين كوطن لهذه الامة . اما محتوى القومية الصهيونية فأمر يصعب تحديده . السيد ايلون ، مثلا ، يورد احصاءات تشير الى ان الاسرائيليين ينتمون الى « مئة وطن ووطنين » وان نصف المهاجرين عام ١٩٥٦ « استعملوا نصف دزينة من اللغات كوسيلة للتخاطب » ( ص ٣٣ ) ، وحتى الآن لا يوجد أكثر من خمس يهود العالم في فلسطين المحتلة ، وهذه حقيقة تجعل تعريف الامة اليهودية مستحيلا جغرافيا . وكذلك لا يمكن تعريفها بعبارات التاريخ المشترك أو اللغة أو الاقتصاد ، لان الفي عام من الشتات قد صاغ لليهود شخصيات قومية لا تحصى . وهذا ما يعترف به الاستاذ يعقوب بيتوتشوتسكي ، الاميركي الصهيوني ، في كتابه **صهيون**

---

٩ – Theodor Herzl, **The Jewish State,** 3rd. ed., trans. Sylvia D'Avigdor in 1896 under the title **A Jewish State,** and pub. by D. Nutt, revised with forward by Israel Cohen (London : Central Office of the Zionist Organization, 1936), p. 30.

١٠ – Maxime Rodinson, **Israel and the Arabs,** trans. Michael Perl (1968 ; rpt. London : Penguin Books, 1970), p. 32.

**مرة اخرى**، اذ يرفض جميع المواصفات العلمية المتفق عليها لتعريف الامة ، ويقول انها لا تنطبق على اليهود ، لكنه يفسر ذلك بان اليهود مختلفون ، وان اليهودي ينتمي الى اسرة ابراهيم المختارة من الله لانجاز رسالة الهية . وسوف نرى فيما بعد ان هذا المفهوم العرقي لليهودي قد غدا باضطراد المؤشر الاساسي لتعريف الصهيوني .

يرتبط الاستعمار الصهيوني لفلسطين بوجود العرب والبريطانيين . ان اول التزام بريطاني علني بالصهيونية هو وعد بلفور المشهور الموجه الى اللورد روتشيلد على شكل رسالة عام ١٩١٧ :

> ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف لتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستعمل كل ما في وسعها لتسهيل تحقيق هذا الهدف ...

ورغم أن المندوب السامي البريطاني الاول في فلسطين كان يهوديا صهيونيا . فقد ادرك المسؤولون البريطانيون النتائج الخطيرة المترتبة على تحقيق الحلم الصهيوني. ونجم عن هذا الادراك حركة التفاف لتامين خط رجعة اذا ما بلغت الاصطدامات بين العرب والصهيونيين حدا معينا . وقد اتخذت هذه الحركة شكل مراجعة قانونية غير عملية ، في ما عرف بمذكرة تشرشل المنشورة عام ١٩٢٢ . في هذه المذكرة الغي تعبير ( وطن قومي ) الوارد في وعد بلفور ، وصار النص على النحو التالي : «التعجيل بتنمية مركز يكون موضع اهتمام وفخر الشعب اليهودي على اساس ديني وعرقي » . وحددت الهجرة الى فلسطين « بمقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب القادمين الجدد » ( رودنسون ، ص ٢٧ ) . وقد قبل هذا التعديل المجلس التنفيذي للحركة الصهيونية بزعامة الدكتور حاييم وايزمان ، واودع في ملفات عصبة الامم عام ١٩٢٢ .

من الجانب العربي كان ترحيب العرب بالقادمين اليهود على أساس فردي منسجما مع روح التسامح والحرية التي طبعت تعامل العرب مع اليهود . وكان هذا بالضبط هو واقع الملك فيصل الاول الاساسي لتوقيع اتفاقية مع وايزمان تشجع التعاون العربي اليهودي ( وليس الصهيوني ) . لكن القادة العرب وهؤلاء الذين ادركوا المرامي الصهيونية البعيدة رفضوا مباشرة وبلا نقاش اي شكل من اشكال الدولة الصهيونية في فلسطين .

لقد هلل الصهيونيون لوعد بلفور ومجدوه ، واعتبروا موافقة عصبة الامم عليه ـ بما فيها تعديلات تشرشل ـ موافقة دولية . وعندما حاولت سلطات الانتداب في اواخر الثلاثينات تطبيق مذكرة تشرشل ، اتهم الصهيونيون بريطانيا بالنكوص والخداع . لكن الامر الاقرب الى سخرية القدر هو موقفهم من العرب : عندما هرع سكرتير هرتزل الى رئيسه ذات يوم واخبره بان ثمة عربا في فلسطين ، التزم هرتزل الصمت ولم يتكلم بذلك طوال حياته . وبقي خلفاء هرتزل صامتين أيضا . ان تفسير السيد ايلون لهذا الموقف الظاهري الغرابة مرفوض وسيء النية . فاذا كان صحيحا ان الصهيونيين كانوا « يتحركون في فراغ سياسي » ، وان مفهومهم عن فلسطين هو ما طالب به زانغويل : « أرض بدون شعب لشعب بدون أرض » ، كان بريئا ، فاذا كان رد فعل المهاجرين الذين وجدوا العرب هناك مالكين لكل شبر من الارض ؟ يقول

ايلون انهم « صدموا صدمة عنيفة » ، غير انهم في الحقيقة رفضوا الاقرار بوجود العرب ، وسرعان ما لجأوا الى المنطق الامبريالي المعروف وهو ان وجودهم في فلسطين سيفيد العرب اقتصاديا . والا فما معنى انشاء جيش صهيوني منذ عام ١٩٠٩ ؟ يبدو انهم قد استخفوا منذ البداية بالقومية العربية . لقد كانوا جماعة غارقة في تقاليد اوروبا التي اعتبرت الاستعمار ظاهرة طبيعية وحقا اخلاقيا يمنحه لهم تفوقهم كأوروبيين ومعاناتهم كيهود .

## ٢

على الصعيد الثقافي ، رافقت الاحداث التاريخية في حياة اليهود اسطورة اليهودي التائه الذائعة الصيت ، وتبعتها فيما بعد شخصية شايلوك . وتنبثق قصة التائه من ارض دينية عريقة . انها تبدأ بكارتافيلوس الجندي اليهودي في جيش روما — كما تزعم احدى الروايات — او الحذاء اليهودي في القدس — كما تزعم أخرى — واقفا امام باب المحكمة التي اقتيد اليها يسوع . واذ يطل يسوع يضربه ويقول له : اسرع . وكنتيجة لذلك يحكم يسوع بالبقاء حيا وبالتشرد حتى يوم القيامة على كارتافيلوس ، أو يوسف ، أو اسحاق القديم — وهي بضعة من اسماء كثيرة أعطيت له . ومن تشرداته تنشأ اسطورة وتكيف نفسها مع المفاهيم والشروط المختلفة لشعوب وعقائد مختلفة . في البداية ، يقترن ظهور التائه بظهور العواصف والرعود والزوابع ... ويملأ اسمه خيال الاطفال بصورة مروعة . كما تنسب اليه أعمال الشر على اختلاف أنواعها . انها بالاساس اسطورة التغير في تاريخ الافكار والعلاقات الانسانية ، وكان اهم ما وصلت اليه هو ذلك التعبير المقطر الذي قدمه شكسبير في شخصية شايلوك على نحو جعل من هذه الشخصية شبه اسطورة ايضا .

اذن اصبح شايلوك والتائه النموذجين السائدين للتعريف باليهودي في الادب الانكليزي . لكن تغيرا بطيئا ومطردا بدأ يظهر في أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فقد استحال التائه من خاطيء الى متهم ، من تائب الى متمرد ، من تجسيد للعقاب الابدي الى تجسيد للصلاح . وهو الآن يمتلك مقدرة على شفاء المرضى تفوق مقدرة الاطباء ، ويفحم الاساتذة في أوكسفورد وكيمبردج بمعلوماته الغزيرة في التاريخ واللغات . ومن جانب آخر بقيت شخصية شايلوك كما هي حتى أواسط القرن الثامن عشر ، حيث ظهرت شخصية اليهودي الطيب في دراما التنوير ووصلت قمتها في مسرحية كمبرلاند : **اليهودي** (١٧٩٤) التي قدمت اليهودي شيفا « فاعل الخير المحترف الذي توحي مبادئه بأنه قد بنى مستشفاه في القلب الانساني» . (١١) وكما أسلفنا ، لم يظهر مثل هذه الشخصية في القصص الانكليزي الا بظهور روايتي ادجورث وسكوت . ولكن تنبغي الاشارة الى ان التراث الشايلوكي استمر في تقديم اليهود كأناس خارجين عن مضمون الطبيعة البشرية ، متميزين باجرامية صرف وعزوف مطلق عن التقيد بالقانون الاخلاقي . على هذا النحو رسم ديكنز شخصية

---

١١ – Edgar Rosenberg, **From Shylock to Svengali : Jewish Prototypes in English Fiction** (London : Peter Owen, 1961), p. 40.

فاغن في **اوليفر تويست** (١٨٣٨) وترولوب شخصية ملموت في **الطريقة التي نعيش بها الان** ( ١٨٧٥ ) . على ان هذا النوع من القصص لم يعرقل نمو النوع الجديد الآخر الذي قدم شخصيات يهودية طيبة .

الصهيوني اذن هو اليهودي المؤمن بمبدأ الصهيونية في القومية اليهودية القائمة على اعتبار اليهود شعبا واحدا وفلسطين وطنا لهم . وبالطبع ليس كل كاتب يهودي صهيونيا ، كما يمكن لكاتبغير يهودي أن يكون صهيوني الميول أو قد يقدم شخصيات صهيونية دون أن يكون هو نفسه صهيونيا . اما الشخصية الصهيونية في القصص فليس من السهل تعريفها بسبب خضوعها لتغير تاريخي مستمر ولرؤية كل كاتب الشخصية . لذلك تحاول هذه الدراسة تقديمها بالنسبة لكل كاتب . ويبقى بعد ذلك أن نعرف ( الصابرا ) بأنه الصهيوني المولود في فلسطين ، والاسرائيلي ، بأنه مواطن الكيان المركب على أرض فلسطين .

## ٣

هذا التقديم للشخصية الصهيونية كما تظهر في الرواية المكتوبة بالانكليزية يتبع خطا تاريخيا ولكنه ليس سياقيا ولا مقارنا . ولأن النقاش يتناول حوالي ثلاثة عشر كاتبا وكاتبة فقد اتبعت في الدراسة منهجا يقيم هذه الشخصية بحسب رؤية المؤلف الاخلاقية والضغوط التي اكتشف من خلالها اليهودي الصهيوني . ولكن ثمة استثناءين . في الفصل الثاني سيكون عملي وصفيا فقط ، باعتبار ان الشخصية المتناولة بالتحليل هي اليهودي الطيب وليست الصهيوني . وفي الفصل السادس ستقتصر الاشارة على نمط الشخصية الصهيونية ــ وهي الصابرا ــ دون التطرق الى مجال اهتمام الكتاب المعنيين بسبب ضحالة القيمة الفنية لاعمالهم واتصافها بالدعائية .

اما الفصل الثالث فيتناول شخصية بنجامين دزرائيلي الزلقة ، وهي اول من لفظ مثلا تقترب من العقيدة الصهيونية ، ولأن اعمال دزرائيلي الادبية مطبوعة بشخصيته وافكاره ، فقد اخترت أن أدرسه هو بدلا من شخصياته في خمس من رواياته كتبها قبل عام ١٨٥٠ . ليس دزرائيلي صهيونيا وانما هو يهودي يناضل لأجل اندماج مشرف بأسلوب شبه صهيوني . أما أول تقديم كامل لشخصيات صهيونية كاملة فقد جاءت به جورج اليوت في **دانييل ديروندا** (١٨٧٦) ، وسيكون هذا موضوع الفصل الرابع . لقد كتبت جورج اليوت روايتها والصهيونية ما تزال في مرحلتها الجنينية ، لذلك اعتمدت بشدة على خيالها وعلاقاتها باليهود ومعرفتها باليهودية . ومع ذلكيتميز رسمها للشخصيات برؤيةمذهلة النفاذ وتعاطفلا حد له .

ويناقش الفصل الخامس الصهيوني كرائد ومستعمر في أعمال أربعة مؤلفين ، أهمهم هو السيد آرثر كوستلر . وتغطي هذه الاعمال فترة تزيد عن ستين عاما ، وهي في حدود معرفتي الأعمال الوحيدة التي ظهرت في هذه الحقبة والمتعلقة بموضوع بحثنا . . .

أما الفصل السابع فمكرس برمته لروايات الكاتبة الاسرائيلية يائيل دايان التي تكتب بالانكليزية . والكاتبة ـ مثل كثير من كتاب اسرائيل البارزين ـ تستكشف المواطن المظلمة في النفسية الاسرائيلية ، لكنها تختلف عنهم في أنها لا تقدم شخصيات عربية . ان روايات دايان تتباين بشكل صارخ مع روايات الكتاب الصهيونيين خارج اسرائيل .

ثم يختتم الفصل الثامن مكتشفات الفصول السابقة في محاولة للوصول الى صورة عامة للصهيوني .

تغطي الاعمال الادبية التي تناقشها هذه الدراسة فترة مئة وخمسين عاما : ١٨١٧ ـ ١٩٦٧ . وهي لم تتطرق للأدب الصادر بعد ١٩٦٧ بسبب غزارته الهائلة وغثاثة معظمه .

# الفصل الثاني

## اليهودي الطيب

سوف يهتم هذا الفصل بتلك الشخصيات اليهودية القصصية التي سبقت ظهور الشخصية الصهيونية ، ويعود الفضل في ظهور فكرة اليهودي الطيب الى الثورة الصناعية والثورة الفرنسية اللتين غيرتا طبيعة العلاقات بين اليهود والاوروبيين . وقد أشرنا فيما سبق الى جهود مندلسون وأمثاله في التعجيل بهذا التغير .

وجاء التعبير الاول عن هذه الشخصية في رواية **هارنفتون** لماريا ادجورث . فيما مضى عمدت ادجورث الى ملء قصصها التربوية باللصوص والمجرمين من اليهود بغية اعطاء درس أخلاقي . وقد ساعد المؤلفة في منهجها هذا أبوها الليبرالي الغريب الأطوار الذي كثيرا ما أفسد موهبتها بتدخلاته التلقينية ، وخاصة في مجموعات القصص المكتوبة خصيصا لتوضيح المباديء التربوية لكتابهما المشترك، **التربية العملية** (١٧٩٨) . ففي مجموعة **قصص أخلاقية** (١٨٠١) يظهر اليهود كشخصيات مضادة لأبطال القصص الشرفاء . ومن الواضح ان المؤلفة قد استقت تصوراتها من الافكار الشائعة عن اليهودي كوغر بدون تفحص هذه الافكار . ففي قصة « المزهرية البروسية » يتضح ان الشاهد الغليظ الرقبة ، سليمان ، هو في الحقيقة المجرم الذي يجب أن يحاكم ، وبالتالي عليه بأن يشطف شوارع بوتسدام كلها . وكما يعلق الدكتور روزنبرغ ، فسليمان « يقتاد الى السجن بجرم مزدوج هو كونه خائنا ويهوديا » ( ص ٥٣ ) . وفي « الخالة الطيبة » نلتقي بالوفد اليهودي الذي يغش طلاب المدارس بيانصيب مزيف ويستمر في عمله هذا رغم علمه بالنتائج المخيفة .

وتقدم قصة « مراد السيء الحظ » في مجموعة **قصص شعبية** ( ١٨٠٤ ) الاعتقاد الاسطوري ، الذي يعود الى مفاهيم العصور الوسطى عن اليهودي التائه ، بأن اليهودي ينشر الامراض بواسطة المواد التي يتعامل بها . راحوب العريشي بائع أقمشة يهودي يبيع مراد ثيابا قديمة تؤدي الى موت مئات من الناس الابرياء .

اما في رواية **المتغيب** ( ١٨١٢ ) ، وهي من أهم ما كتبت ادجورث فنلتقي بنمط شايلوكي في شخص صانع عربات يهودي يحاول أن يورط ابن لورد يحتضر في توقيع عقد ، فاحش الشروط . ويرفض الابن ، فيضعه اليهودي أمام اختيارين : اما اعتقال

الاب على فراش موته أو توقيع العقد ، رغم معرفته الاكيدة بأن القضـاء سيجرده مـن ادعاءاته .

سنكتفي بهذا القدر من استعراض يهود ادجورث الأوغاد ، لان الهدف اساسا هو استعراض اليهود الطيبين . ومن الثابت ان المؤلفة لم تتعمد هذا الاختيار بدليل السهولة المفاجئة التي غيرت فيها موقفها من اليهود اثـر تلقيهـا رسالة شاكية من الولايات المتحدة . ومن الثابت الآن ان كتابـة **هارنغتون** « قـد سببتها رسالة مكتوبة بفصاحة تلقتها الآنسة ادجورث من أميركا ، من سيدة يهودية [ الآنسة موردیخاي ] تتذمر فيها من التحيز الفاضح في معالجة الآنسة ادجورث للأمة اليهودية في بعض أعمالها » . (١)

وهكذا ظهرت **هارنغتون** ، القصة المؤسسة على خلفية من الضغائن العنيدة تجاه اليهود ومن مواقف شرسة جعلت من بطل القصة فريسة لسوء الفهم . ففي السادسة من عمره يعلن هارنغتون أن « اليهود هم بالطبع حزمة غير طبيعية من الناس » . (٢) والرواية تتابع انحلال ضغينة هارنغتون ونمو تعلقه بالآنسة مونتنيرو ، ابنـة اليهودي الثري التي يتزوجها في المآل . ان قصة الحب بين هارنغتون وبرينيس مجـرد أداة تقدم المؤلفة بواسطتها عددا من الشخصيات اليهودية المناقضة لما سبقها . ولعل أهم هذه الشخصيات هو السيد مونتنيرو ، والد الفتاة . والمؤلفة تؤخر ظهوره وتمهد له طويلا ثم تصوره على هذا النحو :

> كانت له تلك السيماء التي لا توصف والتي ... تميـز الجنتلمان ـ عزيزا لبقا ومتحررا مـن الادعاء . وقد يظن من شكله انه اسباني ، ومن سيمائه انـه هندي غربي ، لكن ملامحـه كانت خاصة . وواضح انه لا ينتمي الى اية من هاتين الامتين . كانـت لـه عينان نفاذتان ، فيهمـا تعبير جدي اقرب الى الكآبة ولكن بالغ السماحة . لقـد تجـاوز عنفوان الشباب ، وظهـرت الخطوط على وجهه منبئة بآثار الفكر والشعور . ( ص ٨١ ) .

ها هوذا يهودي ليس شيطاني الملامح ، وبعيد عن الصفات الجسدية الكاريكاتورية كالانف الأعوج والعينين الشريرتين والجسد المنحني . على العكس ، انه بفيزيولوجيته السامية يفرض احترامه ويستدعي الاعجاب به. ومن الطريف انه وهارنغتون يتحدثان عن شايلوك ، فيقول الاول : « في القصة الحقيقية ... يلعب مسيحي دور اليهودي، ويهودي دور المسيحي » (ص ٨٣) . ورغم اعجابه بشكسبير ، ينتقد مونتنيرو بلباقة وصراحة اساءة المسرحي العظيم في تصوير شخصياته . ويشير بغبطـة الى ذلك الجزء السعيد من أمريكا الذي عاشت فيه ابنته حيث « التفرقة الدينية لا تكاد تذكر ـ حيث الشخصيات والمواهب عوامل النجاح الوحيدة ـ حيث يشكل اليهود قطاعا محترما من السكان » (٨٤) . ويتأثر هارنغتون عميق التأثر بتهذيب مونتنيرو وثقافته الفنية ولكن

ما سرني اكثر من ذوق السيد مونتنيرو هو تحرره وسعة عقله البارزين في آرائه وعواطفه .

---

١ – Richard Lovell Edgeworth, «Introduction» to **Harrington**, p. III.

٢ – Maria Edgeworth, **Harrington** (London : J.M. Dent & Co., 1893), p. 22.

كان فيه هدوء فلسفي وتواضع ، وبدا ان عقله قد صارع حساسية فطرية ضخمة ، بل وربما تحمسا ضخما ، حتى صار هذا الهدوء طبعا ثابتا لتفكيره . (١٠٢)

ولعل هذه الكلمات افضل ما يمكن ان توصف به شخصية مندلسونية. العقل والتحرر والتواضع صارت الآن مزايا اليهودي . والى جانب ذلك ، فمونتنيرو ضد اي نوع من انواع الضغينة ، وتعبيرا عن ذلك يدفع مبلغا ضخما لشراء لوحة تافهة اسمها « ازالة أسنان اليهودي » « لأدمرها . . . فليختف كل ما يوسعه ابقاء مشاعر الكراهية والثأر حية بين اليهود والمسيحيين ! » (١٣٣) .

يتميز السيد مونتنيرو أيضا بمعرفته العملية في شؤون الدنيا . فعند الضرورة يظهر من الثبات والحزم قدرا كافيا لهزيمة الليدي دي برانتفيلد في فراد ـ ولكن لاسباب نبيلة . وبالاضافة الى ذلك فقد استطاع الاحتفاظ بثروته الضخمة ولوحاته الفنية النفيسة رغم الاضطهاد الاسباني الشرس لليهود . ومع أنه لم يتعرف بصورة جيدة على الطبقة العليا في انكلترة مثلا قادر على تمييز الطيب من الرديء بينهم ، وفهمه العميق للمظاهر والحقائق يمكنه من كشف ادعاءات اللورد ماوبري المحبوكة والمدبرة بقصد الايقاع ببرينيس . ان هذا الارستقراطي الشاب « لوحة من لوحات الآنسة ادجورث الدقيقة والرائعة لرجل الحياة الدنيا ذي الطبيعة الشريرة . » (٢) ففيها تختفي تحت المظهر البراق والساوك المهذب شخصية الوغد المبرقعة . لكن مونتنيرو يكتشف طبيعته الخادعة ويرفضه كصهر .

يشير الدكتور روزنبرغ الى أن مونتنيرو نسخة عن نموذج اليهودي الثري المتطابق وصفه مع اسطورة روتشيلد ، ومع أن ماريا ادجورث لا تتطرق الى المضامين الاقتصادية والاجتماعية لثروة مونتنيرو ، مكتفية بالتعرض لها من جانب انساني ، فمن المفهوم عبر انقاذه للوضع المالي لهارنفتون الأب أن هذه الثروة تلعب دورا حاسما في علاقات المسيحيين واليهود في بريطانيا ، وتلك حقيقة يدركها مونتنيرو ويذكرها بفخر :

« تعرف . . . اننا نحن اليهود كنا اول من اخترع فواتير الصرف والارواق المالية ـ نحن اساسا مصرفيو ومبدلو العالم » . . . « ترين هنا ، يا برينيس ، كما في اي مثال آخر ، كيف ينجم الخير الدائم والعام عن شر عابر » (٤) . [ الشر العابر هو اضطهاد اليهود ] .

اليهودي الطيب ليس بالطبع شايلوك . ولكن ثمة تشابهات ظاهرية بين مونتنيرو ويهودي شكسبير المرذول ، فهما غنيان غنى فاحشا ، ولكل منهما ابنة ولا ولد ، وكلاهما يعاني من النبذ الاجتماعي . حقا ، ليس ثمة من ينعت مونتنيرو بكلمة « كافر » أو « كلب مقطوع الحلق » ، لكن هارنفتون الاب ، الذي هدد بحرمان ابنه من الميراث ان هو تزوج برينيس ، يؤمن بصلابة بانه « عندما يمضي انسان مرة الى اليهودي ، يمضي حالا الى الشيطان » (١٧) . أما السيدة هارنفتون فتوشك على

---

٣ – Helen Zimmern, **Maria Edgeworth**, Eminent Women Series (London: W.H. Allen and Co., 1883), p. 122.

٤ – Harrington, p. 120.

الاغماء غضبا اذ يحاول ابنها الدفاع عن السيد مونتنيرو ، بينما تفضل الليدي دي برانتفيلد الموت بايدي الفوغاء المتوحشين على الالتجاء الى بيت مونتنيرو .

الى هنا وتنتهي المشابهات بين الشخصيتين . لقد استبدلت ماريا ادجورث يهودي شكسبير الوغد بآخر كريم وانساني . ويمثل تقديمها لعدد من اليهود في الرواية على هذا النحو انعطافا تاما في المنطلقات الاجتماعية والنفسية التي كانت وراء تقديم شايلوك . فبالاضافة الى السيد مونتنيرو المرسوم كنقيض مباشر ليهودي شكسبير ، هناك سيمون اليهودي ، بائع الثياب العتيقة المرسوم كنقيض للعجوز غوبو ، ويعقوب ابن سيمون المرسوم كنقيض ثالث لابن غوبو ، لونسيلوت . انسيمون ينتمي الى نموذج منقرض من نماذج اليهودي التائه : « وبرق ضوء قنديله على وجه وقوام عجوزين ولحية بيضاء . وكان الرجل يمشي ببطء ويكرر بجرس متقطع غريب صيحة « ثياب عتيقة ! ثياب عتيقة ! » ولم أستطع فهم الكلمات التي قالها ، ولكنه اذ نظر الى شرفتنا رآني — ابتسم — وأذكر انني قلت لنفسي ان له سيماء توحي بطبيعة خيرة » (ص ٢) . فعلى العكس من غوبو ، ليس المقصود — تقديم سيمون ككاريكاتور أو كتسلية مسرحية وانما اثارة التعاطف . وبينما يضحك على غوبو ابنه، نرى ابن سيمون — يعقوب — يحترم أباه الى حد الاجلال .

يعقوب مثل أبيه : واحد من أفقر اليهود . انه ، على العكس من لونسليدت المهرج والمتسلق ، رجل جدي وشريف في معاملاته . في البداية نراه كبائع حلوى لتلاميذ احدى المدارس ، متصف بأمانة تتناقض والصورة الشائعة عن اليهودي كخاطف للتلاميذ أو فاتك بهم . ثم نلتقي به في اسبانيا عاملا في مخزن السيد منيسا، وهنا أيضا تدمج المؤلفة شخصيتي التائه وشايلوك بذكاء لتنتقد المفهوم الشعبي السائد عنهما ، اذ تجعل اللورد ماوبري ، الذي كان يعذبه في المدرسة ، ضابطا في الجيش البريطاني المقيم بجبل طارق ، وتقوده الى المخزن حيث يصيح بيعقوب : « هكذا ! انت هنا يا حضرة شايلوك الشاب ؟... انت من قبيلة الله ، كما أظن ، أيها اليهودي التائه ! » (ص ٩٥) . وفي الحقيقة ، ان يعقوب تائه ... ولكن كنتيجة لضغوط اقتصادية واجتماعية . فعبر الرواية كلها يبدو انسانا شقيا محكوما بالفرار من مكان الى آخر بسبب اضطهاد آل ماوبري له . على أن فضيلته تكافأ في نهاية الرواية عندما تمنحه المؤلفة مكانا وعملا ثابتين ولائقين .

آخر الشخصيات اليهودية الطيبة في **هارنفتون** هو الحاخام اسرائيل ليونز الاستاذ في جامعة كمبردج . انه على علاقة ممتازة بمونتنيرو تتناقض كليّة مع علاقة شايلوك بطوباك في **تاجر البندقية** . اما برينيس ابنة مونتنيرو فقضية شائكة . لقد اشار كثير من النقاد الى أن كونها مسيحية يمثل تراجعا جبانا من قبل المؤلفة عن تقديم شخصية يهودية طيبة . وفي هذا الصدد تكتب هيلين زيمرن ما يلي :

وحتى ابنته برينيس ، التي نعتقد انها يهودية حتى قبيل نهاية الرواية ، تظهر في المآل ابنة لام مسيحية معمدة في صباها ، وهكذا يغدو سهلا بالنسبة لحبيبها هارنفتون ان يتزوجها دون ان يضطر للتضحية بأية من ضمائنه الاجتماعية والعرقية . هذا ضعف حقيقي ، طالما ان

الغرض كله من القصة هو تغلب هارنغتون على كرهه لليهود الذي لا مبرر له والذي نما معه منذ نعومة أظفاره . ( ص ١٢١ )

ان نقد زيمرن يغفل عن حقيقة مشاعر هارنغتون ومواقفه . فلقد تغلب المسيحي الشاب على ضغائنه اللاسامية واظهر استعدادا للتضحية بعلاقاته العائلية وثروته كيما يتزوج برينيس التي يظنها يهودية .

ويشارك مونتاغيو مودر زيمرن رأيها ، بينما يقرأ السيد ارنست بيكر في الرواية ما يلي : « واذا كان الهدف من كتابة القصة هو التعويض لليهود عن قدح سابق فانها [ المؤلفة ] تخذل قضيتها اذ تجعل البطلة في النهاية تعلى على نحو يرضي جميع الفرقاء انها « ليست يهودية ، » بعد كل شيء وانما « مسيحية ـ بروتستنتية » بحيث تبطل حجج الساميين واللاساميين . » (٤) أما الدكتور روزنبرغ فهو أكثر حدة في نقده ، اذ يصف برينيس بأنها « يهودية مستترة يكشف خلاصها البروتستنتي في آخر لحظة عن شكلية ضحلة مخادعة » (ص ٧٦) .

يبدو ان برينيس لا تستطيع أن تكون اسبانية ولا اميركية ولا انكليزية . وفوق هذا كله ، لا تستطيع ان تكون يهودية باعتبار أن « ما يجعل اليهودي يهوديا ، وهو دينه ، » (٥) غير متوفر لديها . وحقا ، ما هي برينيس ؟ ان الجواب يعتمد على تعريفنا للدين . فبنجامين دزرائيلي مثلا ، الذي سيناقش في الفصل التالي ، عمد وهو في الثالثة عشرة ، لكن دفاعه عن اليهودية يفوق كل دفاع في قصص القرن التاسع عشر الانكليزي . وفي رأيي أن برينيس مونتنيرو يهودية اكثر منها أي شيء آخر . ان تأثير والدها عليها بالغ ولا يمكن ان يكون أوضح مما هو عليه . فهو لم يترك فرصة تفوته في تنشئة ابنته على مباديء وقيم استلهمها هو من اليهودية . وتعلقها به يشير الى تأثرها التام بافكاره ومواقفه : « عندما تكلم والدها بدا وكأن المتكلم هي نفسها ـ فتعاطفها معه كان قويا جدا » ( **هارنغتون** ، ص ١٠١ ) . وفي هذه الحال يغدو الدين شكلية . ويبدو أن الدكتور روزنبرغ قد حاكم نوايا المؤلفة ، وهو مخطيء ، وليس النص . فتربية برينيس اليهودية قد جعلتها مختلفة عن النساء المسيحيات المرسومات في الرواية ، وليس ثمة شك في أن مسيحيتها لن تجعلها واحدة منهن .

ليس غرض هذه الدراسة تقديم تبريرات لما يصفه عدد من النقاد بأنه تراجع من قبل المؤلفة افسد محاولتها للتعويض لليهود عن قدح سابق . على أنه من غير العدل أن نطالب بتعويض كامل عن حماقة بشرية عريقة . ومن المؤكد ان معالجة المؤلفة لموضوعها ورسمها للشخصيات اليهودية متقدمان كثيرا عن عصرها . فبعد كل شيء ، لم ترسل الآنسة موردیخاي مسدسا ولا فأسا سكسونية من امريكا وانما

---

٤ – Ernest Baker, **The History of the English Novel** (1929 ; rpt. New York : Barnes and Nobles, 1964), Vol. VI, p. 45.

٥ – Montagu F. Modder, **The Jew in the Literature of England to the End of the Nineteenth Century** (1939 ; rpt. New York : Meridian Books, Inc., 1960), p. 212.

رسالة متذمرة ، كما أنه ليس ثمة سبب للاعتقاد بأن المؤلفة ضد زواج مسيحي يهودي ما دام السيد مونتنيرو قد تزوج مسيحية . الاعتراض الصحيح على زواج كهذا يتعلق بالاختلافات الاجتماعية والعائلية في تربية كل من العاشقين . ان النقص الرئيسي في ما قدمته ماريا ادجورث ليس أخلاقيا ولكنه فني . فالبطلة تبقى دائما في الظل ، يحكى عنها أكثر مما تحكي هي ، وتشاهد أكثر مما تشاهد . انها تتفحص ما يجري حولها لكنها لا تفضي بأي تعليق عليه . وحيث يتوقع القارىء ان تعلن عن نفسها ، يغمى عليها او تدوخ . ان القليل الذي نعرفه عنها يأتينا من ابيها الدقيق العبارة أو من انطباعات هارنفتون العاطفية ، وليس ثمة مواقف واضحة نستشف منها مقدار يهوديتها .

يلخص مونتاغيو مودر قيمة الرواية على النحو التالي :

ومع أن في الرواية نقائص صارخة ، وأنها لا ترقى الى سوية دراسات ماريا ادجورث الاجتماعية الاخرى ، فان **هارنفتون** ذات دلالة خاصة لكونها أول عمل يشيع حقيقة أن بوسع اليهودي أن يكون تاجرا جنتلمان كالسيد مونتنيرو ، او استاذا جنتلمان كاسرائيل ليونز ، او بائع ثياب عتيقة وجنتلمان ايضا كسيمون اليهودي ، او بائعا متجولا جنتلمان كيعقوب اليهودي . ان الامل الواضح للرواية هو أن تطرد المفاهيم البالية غير المقبولة من اليهودي كمخلوق مريع منفر وتستبدله بصورة اخرى مريحة . ( ص ١٣٧ )

ولعل هذا هو الشيء الوحيد الهام في الرواية . فاذا وضعنا النوايا طيبة جانبا ، يبقى العمل نفسه فقيرا . ويبدو ان ماريا ادجورث أكثر قدرة على رسم الشخصيات الشريرة أو الغريبة الاطوار منها على رسم شخصيات طيبة . وهذا ما جعل شخصياتها اليهودية تبدو خشبية وبلا طعم . فالسيد مونتنيرو يلفظ العبارة المناسبة في الوقت المناسب الى حد تجعله مثاليا مملا . أما برينيس فشخصية باهتة وظيفتها الوحيدة هي الابتسام المؤيد لكلمات ابيها وخلب لب هارنفتون . ومع أن يعقوب أكثر هذه الشخصيات اثارة للتعاطف فانه من الاتضاع والكآبة بحيث يفشل في اثارة اهتمام حقيقي ، على أن الرواية حققت هدفها مع تقديم يهود ليسوا من صنف الشياطين ولا المجرمين .

الفرصة التي فاتت **هارنفتون** في تقديم يهودية صرف ويهودي مرسوم بواقعية، تعوضها رواية آيفنهو للسير والتر سكوت . فبعد عامين من ظهور **هارنفتون** ، وفي الخامس والعشرين من كانون الاول ( ديسمبر ) ، ١٨١٩ ، ظهرت **آيفنهو** في دكاكين الكتب . بعد أسبوع نفدت النسخ جميعها ، وخلال هذه الفترة القصيرة أطلع آلاف من القراء البريطانيين ، وأكثر منهم في أوروبا فيما بعد ، على شخصية ربيكا الجميلة وأبيها اسحاق من منطقة يورك .

لقد استقبل قراء أوائل القرن التاسع عشر هذه الرواية بتقدير زائد ، وسبب ذلك مختلف تماما عما يدفع النقاد المعاصرين الى اعتبارها عملا هاما . ولعل من المفيد متابعة صعود وهبوط سمعة سكوت ، ومعها **آيفنهو** ، منذ موته عام ١٨٣١ الى الوقت الحاضر . كان أول كاتب استشعر هذا الهبوط هو ستندال الروائي الفرنسي الذي علق على **آيفنهو** و **كونتن دوروورد** ، الرائجتين جدا بقوله : « سوف أعلن بكل صراحة

انه خلال عشر سنوات ستتدهور شهرة الروائي الاسكتلندي بمقدار النصف .» (٦) غير أن بلزاك يعتقد بعكس ذلك تماما ، اذ يكتب في رسالة للسيدة هانسكا عام ١٨٣٩ : « هذه الاعمال جميعها ذات تميز خاص ، لكن العبقرية تشع منها كلها » ( المصدر السابق ص ٣٧٤ ) . وبعد عشرين عاما يعلق والتر بيجهوت على سحر **آيفنهو** كرواية « موجهة الى نوع أبسط من الخيال ـ الى ذلك النوع من التوهم الصبياني الذي يقدس المجتمع الوسيط باعتباره ( عصر القتال ) » ( ص ٤٠٩ ) . اما هنري جيمز فيبدو متأكدا من انه « لن يجرؤ ناشر على تقديم **آيفنهو** سنة ١٨٦٤ كشيء جديد » ( ص ٤٢٨ ) . ويعتبر السير لزلي ستيفن ان « **آيفنهو** ... لم تعد عملا يهم الناضجين ، لكنها ما تزال ، وينبغي أن تكون ، قراءة ممتعة للأولاد . » (٧).

يستمر الراي النقدي في **آيفنهو** على اعتبارها رواية للاطفال حتى أواسط هذا القرن . ولعل ما كتبه كولردج يمثل تماما هذا الراي :

أنا نفسي لا أعرف كيف أفسر ذلك ، لكن الحقيقة هي أنني ، رغم قراءتي ورجوعي ثانية وثالثة الى فصول عديدة في **ايفنهو** دون كلل ، لم استطع قراءة الكل ... لعل يأس ربيكا المعروف سلفا ـ الاهتمام الهزيل الذي تثيره راوينا عروسة **ايفنهو** المعروفة منذ البداية ـ لعلها قساوة النبلاء النورمانديين ، ولامبالاتنا المطلقة بثارات النورمانديين والسكسون ... هذه كلها قد تكون او لا تكون الاسباب ، ولكني لم استطع قط ان اقرأ **ايفنهو** الى النهاية . لا شك ان فقدان الاهتمام المسيطر الذي زيد سوءا بفقدان اي خيط متواصل للاحداث نقيصة محزنة في الرواية . (٨)

وكان أول ناقد فحص أعمال سكوت على ضوء جديد مكتشفا قابلية شخصياته للتفسير الرمزي هو الاستاذ ديفيد ديتشز . ففي دراسة مطولة بعنوان « انجازات سكوت كروائي » يحلل الاستاذ ديتشز العنصر اللارومنتيكي في روايات «ويفرلي» ، معلنا ان سكوت ليس فقط راوية قصة ممتعا وانما كاتبا يرفض التقاليد الفارغة ويدعو لاتجاهات متحررة عصرية وبراغماتية ،

وأن العمل البطولي ... في التحليل الاخير ليس بطوليا ولا مفيداً . وأن مصير الانسان، على الاقل في العالم الحديث ، يكمن في الامتحان الذي يلاقيه ليس بين أصوات الابواق وانما في الكفاح اليومي والازمات المتكررة للحياة الفردية والاجتماعية (٩) .

غير أن هذا التفسير الجديد يقتصر على روايات « ويفرلي » . وقد قام السيد ج. اي. دنكان باستقصائه في **آيفنهو** . انه يعتبر ان هذه الرواية « ليست صبيانية ولا رومانتيكية ، وانما عميقة وناضجة ، وبمعنى ما لا رومانتيكية . » (١٠) ويشير السيد دنكان الى « الاهتمام المسيطر » الذي فشل كولردج في رؤيته ، وهو الترويج

٦ ـ Stendahl (Henry Beyle), «Walter Scott and la Princesse de Clevés», **Le National** (19 Feb. 1830), trans. Geoff Strickland, included in John D. Hayden (ed.), **Scott: The Critical Heritage** (London: Routledge and Kegan Paul, 1970), p. 319.

٧ ـ Leslie Stephen, «Hours in a Library with Scott,» **Cornhill Magazine,** XXIV (1871), p. 289.

٨ ـ From John Hayden (ed.), **Scott: The Critical Heritage,** p. 182.

٩ ـ **Nineteenth Century Fiction,** Vol. 6 (1951), p. 81.

١٠ ـ J. E. Duncan, «The Anti-Romantic in **Ivanhoe**», **Nineteenth Century Fiction,** Vol. 9 (1955), pp. 293-94.

للحاضر المعاش ضد الماضي المفروض الميت ـ بما فيه العلاقة بين المسيحي واليهودي. وفي دراسة أكثر حداثة من السير والتر سكوت ، يستعيد السيد ادغار جونسون جو العنف السائد وسفك الدماء والضغائن العرقية التي « قادت اجيال النقاد المتأخرين الى صرف **آيفنهو** على انها كتاب للاطفال . » (١١) ان قيمة الكتاب الدائمة تكمن في تصويرها لقيم الفروسية والاقطاعية المتلاشية . وقد ابرز المؤلف موضوعتين رئيسيتين ابرازا واضحا ، وهما الدعوة للمجتمع الجديد المتقدم الى مكان القديم والدعوة الى السلم بدلا من الحرب . فآيفنهو ينتقد الملك ريتشارد لتعريض الاخير نفسه الى مخاطر حمقاء لا ضرورة لها في وقت تحتاج البلاد الى وجوده كرمز لوحدتها بعد أن مزقتها الصراعات الداخلية . وغياب الملك نفسه عنها في حملته الصليبية . اما فارس المعبد برايان دو بوا ـ جلبير فشخصية تضيف عمقا اضافيا الى موضوعتي سكوت الرئيسيتين في الرواية . فالفارس يمثل العصر الصليبي بدينيته المهووسة ومعاييره الفروسية . غير أن حبه لربيكا يكشف بوضوح تام عن مدى تحول انسانيته. لقد غدا صليبيا مخفقا يعاني أسى جسيما تسببه الوحدة واضطراب العلاقات الانسانية وخواء حياة الفروسية . وتتحدى ربيكا ـ التي هي لسان حال سكوت ـ عالمه الظاهري المتفوق ، وتمزقه بمحض ثباتها على مبادئها . ورغم قسوته وجبروته، يذوق طعم الحب المر الذي ولد من الشهوة ، عندما ترفضه هي باستمرار . وعندما يعلن عن رغبته في التخلي عن امجاده الصليبية ليعيش معها ـ وهي اليهودية كما يعرف تماما ـ ينكشف جهله التام بالحضيض الذي انحدر اليه .

يكتب السيد روبين ميهد عن سكوت ما يلي :

قد تكون اعادة تركيب الفترات التاريخية الانكليزية وغير الاسكتلندية ممتعة بالنسبة للاختصاصي، فانها لا يمكن ان تعد بين انتاجه الهام الا بصعوبة . (١٢)

وهذا ليس صحيحا بالنسبة لـ **آيفنهو** . فبالاضافة الى النقد الذي يوجهه بطل الرواية الى الملك ريتشارد ، والى الانهيار الاخلاقي لفرسان المعبد ، ثمة مشاهد متعددة تنقل فهم سكوت العميق للتاريخ ولقيمة الحياة السلمية ، ولعل أهم هذه المشاهد هو حصار وتدمير قلعة ثوركيلستون . فالتدمير نفسه دلالة على سقوط النظام الاقطاعي أمام الوحدة القومية التي يحاول ريتشارد أن يؤسسها ، كما يطلعنا المؤلف بجلاء . أما الفأس السكسونية التي يحاول قلب الاسد ، أو « ريتشارد انكلتره » كما يسمي نفسه ، أن يخرق بها بوابات القلعة فرمز للعاطفة القومية المتنامية في البلاد . ويعادل هذا المشهد في أهميته مشهد ربيكا وهي تحاور آيفنهو أثناء الحصار ، عندما يكونان سجينين داخل القلعة . ففيما تنقل للمحارب الشاب تقريرا حيا عن الهجوم ، تصيح باستهجان : « يا رب يهوذا » ، « يا له من منظر مخيف » ، او « يا اله موسى ، سامح المخلوقات التي صنعت . » (١٣) بينما ينعى آيفنهو ،

---

١١ – Edgar Johnson, **Sir Walter Scott: The Great Unknown,** (London: Hamish Hamilton, 1970), p. 737.

١٢ – Robin Mayhead, **Walter Scott,** Profiles in Literature (London: Routledge & Kegan Paul, 1968), p. 8.

١٣ – Walter Scott, **Ivanhoe** (Edinburgh: Adam and Charles Black, 1870), p. 287.

بانبثاقات فصحنية ، استلقاءه هناك « كراهب طريح فراشه ... في الوقت الذي تقوم أيدي الآخرين بادارة اللعبة التي تمنحني الحرية أو الموت ! » ( ص ٢٨٨ ) ، وكلما ازداد نفاد صبره ازدادت هي أسى بسبب هذا القتل الجماعي . واذ يدعو هو « لاعمال الفروسية » ويندب عجزه عن المشاركة بسبب جرحه ، تقوم هي بطرح نقد سكوت للمثل الفروسية هذه وتقترح بدلا منها « الحب البيتي ، العاطفة الحنون ، السلام والسعادة » ( ص ٢٩٢ ) .

تمثل شخصية ربيكا أيضا المزيج الغريب والملتبس للرومانتيكي واللارومانتيكي، الذي يميز معظم روايات سكوت . وهذا واضح في أربع مناسبات هامة . فمع غرث تكشف عن شعورها الرومانتيكي بالجميل له ولسيده آيفنهو . وعندما تقدم له النقود لا تكون في وضع المرأة التي تحاول رشوة من تحب لتجذب اهتمامه . انها ببساطة تظهر لهما ان بوسع اليهودي أن يوازي المسيحي في كرمه . وعلى العكس من هذا الوضع ، تبدو مع أبيها ومع آيفنهو امرأة حصيفة وعقلانية بحيث تكسب جميع نقاشاتها مع الاول وتظهر الثاني كرومانتيكي متخلف . أما في مشهد المحاكمة ، فلا شيء يعادل تمسكها الرومانتيكي بدينها الا رفضها الدائب للاقرار بوجود عناصر جنية في شخصيتها . ويبدو قضاتها ، الذين يتهمونها بممارسة السحر ، تافهين ومتعصبين أمام حججها القوية الواقعية .

على أن حب ربيكا لآيفنهو يقدم مثالا أوضح للكيفية التي يخرج فيها سكوت الرومانتيكي واللارومانتيكي معا . انها تحب آيفنهو بكل عاطفة المرأة ، لكنها واقعية الى الحد الذي تدرك فيه أن هذا الحب غير مبادل وان أوهى أمل بمبادلته في المستقبل لا يمكن أن يعيش . انه حب خفي ميئوس منه . وكل ما تستطيع هذه اليهودية الجميلة أن تفعله هو ان تتأمل في خلو ذهن آيفنهو من أي تفكير بها .

وعلى اية حال ، لا بد وان يشعر القاريء بالدهشة من وقوع ربيكا الحذرة في حب آيفنهو . انها تراه للمرة الاولى في مباراة المسايفة ، وبعد ذلك بقليل يوحي لنا المؤلف بانها تحبه وانها تعيسة بسبب انشغاله **براوينا** . ذلك سريع حقا ، ومناقض لطبيعتها . ولكن يبدو أن سكوت لن يضيع فرصة تقديم قصة حب مثيرة كهذه ، فالرومانسية اغراء كبير له ، رغم أن وقفته الاساسية بالغة العقلانية .

ان يهودية سكوت هذا تتباين تماما مع يهودية شكسبير . وباستثناء الشبه العديم الاهمية في كونهما ابنتي يهوديين ثريين ومهانين ، فليس ثمة ما يجمعهما على الاطلاق . فبينما تجد جسيكا انه من اللائق والمجزي أن تفر الى المعسكر المسيحي ببائنة ضخمة مسروقة من خزائن أبيها ، تشعر ربيكا بحدة بالانحطاط والاذلال اللذين يعاني منهما أهلها ، وترفض عروض بوا ــ جلبير . ان الفارس هو الذي يخطفها ويقدم التنازل تلو الآخر كيما تشاركه حياته . وبالاضافة الى ذلك فان حبها لآيفنهو ، وهو حب لا ينسجم مع شخصيتها ، يبقى خفيا ، وغائبا عن حديثها المتزن معه . على العكس من ذلك ، تعتقد جسيكا أن أباها كافر وأمها خاطئة ، ومن ثم تعتنق المسيحية لتفوز بحماية الله على الارض وفي السماء . وحيث تبدو جسيكا خفيفة ومتنطعة

تتحمل ربيكا مصير أهلها بانزواء وبايمان ديني استثنائي . انهـا تفخر بكلا دينهـا وشعبها ، ويبدو انها تعرف تاريخهما جيدا ، ماضيا وحاضرا .

ان علاقتها بآيفنهو تقترب بها من جسيكا ، لكون اليهوديتين تحبان مسيحيين . غير أن ربيكا ليست ، بالطبع ، جسيكا ، وآيفنهو ليس لورنزو . فآيفنهو لا يظهر في اي جزء من الرواية اي وعي بحب اليهودية . انهما يلتقيان مرارا ، بينما لا يلتقـي آيفنهو براوينا الا قليلا . والحوادث التي تجمعهما تؤسس لقصة حب حقيقيـة . ولعل هذا هو ما دفع ( ثاكري ) الى الاعتراض على زواج آيفنهو وراوينا . فهـذه الأميرة المسيحية شخصية هزيلة في الرواية . ومع أن سكوت لا يهملها كليـة ، بل يقدمها أحيانا في مواقف جليلة ، فانها لا تظهر الا لتذكر القاريء بأفضلية ربيكا عليها. ولعل هذه هي الحال مع معظم بطلات سكوت اللواتي « ينحين باتجاه السلبيـة وفقر اللون . . . وبعضهن ــ راوينا ، مثـلا ــ يبدين وكأن سكوت لا يكن لهن احتراما ولا محبة . » (١٤) ولقد أراد ثاكري ، كما يخبرنا الدكتور روزنبرغ ، الحـل التقليدي للمشكلة ، وهو تعميد ربيكا . ويعلق روزنبرغ على هذا الاقتراح بما يلي :

> في هذه الحال ستكون [ ربيكا ] قد اقترفت الخطيئة المغفورة وهي التبجح مع خطيئة قاتلة هي النفاق ، وستكون وظيفتها في الرواية قد فقدت كل معنى . ان عليهـا ان تتمسك بموقفها مـع ابيها ، على الاقل لتؤكد جدية احتجاجاتها ولتعيش يقيناتها . والاسلوب الوحيد الـذي كـان بوسع سكوت اتباعه يفوز بقصب السبق هو ان يسجل ايفنهو في الكنيس . ( ص ٩٢ ) .

وليس اقتراح الدكتور روزنبرغ الاخير ــ تهويد آيفنهو ــ بأقل طيشا من اقتراح ثاكري المعاكس . ان سكوت يرد على الاثنين في مقدمته للكتاب عام ١٨٣٠ ، اذ يشير الى أن آيفنهو الكاثوليكي لم يكن ليبادل ربيكا عواطف من النوع الذي يكنه لراوينا ، والى أن زواج الاثنين مستحيل في ذلك العصر . وهو يرد الموضوع باقناع الى خلفيته التاريخية . غير أن ما هو أهم من الفرق الديني ، في الحقيقة ، تلك المشاعر ووجهات النظر والمواقف التي تميز كلا منهما . فربيكا التـي اقترفت خطأ الوقـوع في حـب آيفنهو المسيحي لن تقترف الخطأ المميت بزواجها منه ، وهـو المختلف عنهـا اختلافا حـادا .

من المؤكد أن الواقعي في سكوت قد غلب الرومانتيكي ، في موضوع زواج ربيكا وآيفنهو . فربيكا تعقلن باسم سكوت تصرفات اليهود وفي الوقت نفسه تكشف عن الرديء واللاانساني في مجتمع القرن الثاني عشر . ومهما يكن ، فان بدا ان سكـوت قد أظهر شيئا من الحرارة في تصويره لربيكا ، فان تقديمه لشخصية ابيها يتسم بقدر كبير من الانفصال . فربيكا شخصية رومانتيكية ذات أفكار واقعية ، أما اسحاق يورك فهو شخصية واقعية تاريخيا . وحالما يظهر على مسرح الرواية ، يبين المؤلف لنا الخلفية التي جعلته يضطر للظهور على غير حقيقته :

> بغير ما احتفال ، بتردد مشوب بالخوف ، وبانحناءات كثيرة تظهر ذله العميق ، تقـدم شخص طويل نحيل فقد بعادة الانحناء كثيرا من طوله الطبيعي ، واقترب مـن نهاية المائدة الوطيئـة .

---

١٤ – Angus and Jenni Calder, **Scott** (London : Evans Brothers Ltd., 1969), p. 122.

كانت ملامحه دقيقة ومنتظمة وانفه اقنى ، وعيناه سوداوين ثاقبتين . وكان ممكنا اعتبار جبهته العالية المجعدة وشعره الطويل الاشيب ولحيته ملامح وسيمة ، لو لم تكن خاصة بعرق عجيب كان خلال هذه العصور المظلمة محتقرا من قبل السوقة الضاغنين والمتطيرين ومضطهدا من قبل النبلاء الجشعين المفترسين ، وكان بسبب الكراهية والاضطهاد قد تبنى شخصية معينة فيها ، على الاقل ، الكثير من الضعة والتنفير . ( ص ٥٧ ــ ٥٨ )

هذا بيان اساسي عن تفكير سكوت بشخصية اسحاق اليهودية . فالمؤلف يقدمه بين حشد من السكسون والنورمانديين الحاقدين بمختلف طبقاتهم الاجتماعية، وكل منهم يتنافس مع الباقين في كيفية اهانته على نحو أبلغ من غيره . وتكون استجابة اسحاق تذللا لا حدود له . لكن هذا هو اليهودي ظاهريا فقط ، اليهودي المذل والمهان . ففي مجالسه الخاصة يظهر رقة حقيقية ويعبر عن أفكار مشابهة لافكار ربيكا . ولدى ادراكه لرغبة آيفنهو في الاشتراك بيوم المسايفة ، ينصحه الا يزج بنفسه في « تلك الحلبة الحمقاء ، ليس لاجل الحصان ، وعدة السلاح ، وانما لاجل حياتك واعضائك » ( ص ٧٨ ) .

غير ان اسحاق رجل براغماتي . ولو لم يكن كذلك لما استطاع البقاء الا كمتسول. وتزلفه للنورمانديين والسكسونيين ازاء اهاناتهم المتكومة عليه نوع من التكيف المريع الذي استطاع بواسطته أن يبقى حيا . واسحاق ايضا بخيل ، ونجله يساعده على تحمل الحياة . وينبغي ان نتذكر هنا وصف ربيكا للمال على انه « الدرب الوحيد الى القوة والتأثير » ( ص ٤٠٢ ) المتروك امام اليهود . لكن سكوت يضخم طمع اسحاق على نحو كاريكاتوري ، ربما لاجل التسرية الدرامية اللازمة بعد يوم المسايفة الصاخب. لكنه كاريكاتور مبالغ فيه ، وقد يؤدي ، في حالة سوء تفسيره ، الى نسف محاولات سكوت لتبرير سلوك اليهودي .

بالطبع ، لاسحاق اسبابه . ولا ينسى سكوت في أي مكان من الرواية ان يذكرنا بان يهوديه يعيش في رعب دائم من أن احدا ما يسعى وراء خزائنه ، وهو رعب يبقيه يقظا الظالم القاسي الذي تتصف به الطبقة الحاكمة . فعلى سبيل المثال ، يعطيه فارس المعبد ــ فرون ــ دو ــ بوف الخيار بين ان يقدم الفجنيه فضي او يسلم جسده لقضبان حمراء ثبتت فوق فرن متوهج . وعبر هذه الخلفية من اناس مهووسين وشرط بشري قلق ، يقود سكوت اسحاق الى وضعين ، احدهما تقليدي حيث يبهدل اليهودي أو يعذب ، والآخر متحرر يكشف عن طبيعته الطيبة . على أننا لا ينبغي ان نحكم على اسحاق بسلوكه الظاهري . وكما يشير السيد دنكان بحق « فاليهود متهمون عرفا بالجشع ... غير أنهم ايضا افضل الممثلين للفضائل المسيحية في الرواية ، وخاصة للحب والتضحية » ( ص ٢٩٨ ) . فاسحاق لا يطالب ابدا برطل لحم من مدينيه ، وهو يستجيب مباشرة لاحسان آيفنهو . كما أن ربيكا تقنعه بسهولة بنقل آيفنهو الجريح في محفتها . ولا يعني هذا أن طيبته تعمل فقط عندما يوجد حافز خارجي . فموقفه ازاء رفاقه في السجن يظهر اهتماما انسانيا محضا بهم .

تأتي لحظة اسحاق الحاسمة عندما يخبره دو ــ بوف ان ربيكا قد منحت كوصيفة للسير برايان دو بوا ــ جلبير . هنا يرتفع اسحاق الى مستوى بطولة حقيقية

بتصميمه المطلق على ان يقدم جسده للنار رافضا تسليم ابنته لبوا ـ جلبير . ان اخلاصه الشجاع يتباين مع نبذ ( سدرك ) السكسوني لابنه آيفنهو ومع قتل دو ـ بوف لابيه . وعندما تفشل قوة المال في انقاذ ابنته ، يصرخ بوجه دو ـ بوف :

( لص ونذل ! لن ادفع لك شيئا ـ ولا بنس فضة سأدفع لك ما لم ترد لي ابنتي بشرف وامان!... لا يهمني !... افعل أسوأ ما تستطيع . ابنتي هي لحمي ودمي ، اغلى علي من هذه الاعضاء التي تتهددها قسوتك ... خذ حياتي اذا اردت ، وقل ، ان اليهودي ، في غمار عذاباته ، يعرف كيف يخيب مسيحيا . ) ( ص ٢١٨ ـ ٢١٩ )

وفي الحقيقة ، تكمن بطولة يهودي يورك أساسا في قدرته على الاحتفاظ بطيبته بعد هذا العمر الطويل من الذل والظلم والاستغلال . فاليهودي المعروف تقليديا بصلابة رقبته وجشعه يثبت على يدي سكوت انه ذو قلب نبيل . وهو بهذا يتعارض مرة اخرى مع شايلوك الذي حولته ظروف مماثلة الى وغد . فبينما يزداد شايلوك مرارة ووحدة في استجابته لبيئة معادية ، يبدو خلاص اسحاق الاخلاقي عميقا ومثيرا للاعجاب . وبينما يدفع سلوك شايلوك ابنته ( للشريدة ) ، وخادمه للفرار ، يقوي سلوك اسحاق تكريس ابنته نفسها له واخلاص خادمه .

ويلخص السيد ادغار جونسون يهودي سكوت على النحو التالي :

اسحاق وربيكا يمثلان في الحقيقة القلب الاخلاقي لـ **آيفنهو** . وهما ما هما عليه بسبب ضغوط العالم الذي يعيشان فيه . واذا كان اسحاق مضحكا ومزدريا بشكل جزئي ، فسكوته يربطنا بوضوح ان خصاله الاكره والاقبح هي الى درجة عالية نتائج للقسوة التي عومل بها شعبهما . منفيون ومدفوعون ومرذولون ، ومحرم عليهم ممارسة اي عمل الا استغلال المال ، ثم ينبذون كمرابين مصاصي دماء . انهم يظهرون ليس كأوغاد وانما كضحايا . واذا كان اسحاق هو الدائن الاسطوري فلأن المسيحيين لا يسمحون له بان يكون شيئا آخر . ( ص ٧٤٢ ـ ٤٤ )

أما الدكتور روزنبرغ ، الذي درس ما يسميه بأنماط يهودية وتوابعها في القصص الانكليزي للقرن التاسع عشر ، فقد وصل الى خاتمة مختلفة بالنسبة لتفسير شخصية اسحاق . وها نحن هنا نقتبس بعض المقاطع من أحد فصول كتابه بعنوان « اليهودي كمهرج وابنة اليهودي » :

وحقا فانه [ سكوت ] قد اعطى شايلوك المكان الاول والارفع في الرواية الانكليزية . ومن المستحسن الالحاح على هذه النقطة منذ البداية ، على الاقل لتصحيح الاتجاه الدارج للتوكيد على تسامح سكوت ازاء اسحاق على حساب اشياء اخرى في تصويره . فبدلا من ان ينظر الى اسحاق ـ كما اعتقد انه يجب ان ينظر ـ على انه سليل شايلوك التاريخي ووارثه القصصي ، فقد سلم على طول الخط بانه نقيض شايلوك ... وتوضح تسعة اعشار النص ان اسحاق بلا اخلاق ، جشع وجبان ... والفرق بين اسحاق وشخصيته مثل ( فاغن ) (١٥) ليس بذي اهمية حتى عندما ننسب كلا منهما الى تقاليد مختلفة وطرق تفكير متباينة : فعناصر نموذج يهوذا تحكم تصوير الشخصيتين ... واستجابته [ اسحاق ] تحت الضغط هي أسوأ ما يكون ... فاسحاق اذن قصص محزن وبخيل يهودي تقليدي ... انه شايلوك بعد المحاكمة ، شايلوك بدون انياب ، شايلوك الكئيب . ( ص ٧٣ ـ ١١٥ ) .

ان الدكتور روزنبرغ يتجاهل اهمية الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التي يشير اليها المؤلف والنقاد ، ويعتبر امارات اسحاق التهريجية ، المقصودة للتخفيف من مشاعر العداء ، تعبيرا عن شخصيته الحقيقية . ويبدو أنه قد تغاضى

١٥ ـ يهودي تشارلز ديكنز المرجع في رواية **اوليفر تويست** .

ايضا عن المشاهد التي تظهر طيبة اسحاق . اما تأكيده بان « تسعة اعشار » الرواية تؤكد أن اسحاق شخصية مرذولة فهو تعسفي على نحو مذهل . ويمضي بعد ذلك ليسد الطريق أمام اي تفهم آخر للوضع اليهودي مختلف عما يراه هو فيقول : « وان اية نظرية تحاول ان تجعله [ اسحاق ] شخصية محترمة جزئيا [ وليس كليا ] ستضطر الى معاملته بنسبية غير محترمة » ( ص ٧٥ ) . وفي الحقيقة ، ليس اسحاق مثاليا ولا شايلوكيا ، مشكلته أنه لا ينطبق وتصنيف الدكتور روزنبرغ ليهود القصص الانكليزي بين جماعة مطلقة الشر واخرى مطلقة الخير . واذا كان علينا ان نعتبر اسحاق شايلوك الرواية ، فعلينا اذن أن نعتبر نقد سكوت لمواقف مسيحيي القرن الثاني عشر تجاه اليهود نقدا تافها . والحقيقة هي أن سكوت لم يقدم فقط شخصيات يهودية طيبة وانما أعطاها دورا رئيسيا في فضح التهوس الديني للمجتمع الاقطاعي . ان **آيفنهو** رواية أفكار أكثر منها رواية حوادث ، رغم أن الكثير من سحرها يأتي عبر المعارك وأعمال الفروسية . وفي التحليل النهائي ، تقود الملهاة المروعة التي يخلقها سكوت من محنة اسحاق الى خاتمة واحدة هي أن اليهود ليسوا أدنى مستوى من أي مجتمع آخر .

## ٣

الحال اليهودية في **هارنغتون** وفي **ايفنهو** تقريبا واحدة . فمن ناحية ، ثمة المجتمع المسيحي المعادي ، باستثناء قلة متزايدة من المتسامحين من نوع بطلي الروايتين . ومن ناحية أخرى ، ثمة اليهود الباحثين عن قبول لائق في المجتمع .

هناك بعض التفاصيل . العلاقة الابوية البنوية امر خاص ، والظلم الاجتماعي أحد تلك العوامل التي تقوي الرابطة العائلية في عالمها الصغير ، ولولاه لكان شأن تلك الرابطة مختلفا . وهكذا نجد ذلك الانسجام التام بين برينيس مونتنيرو وابيها ، حيث يصعب التمييز بين آرائها وآرائه . غير أن العلاقة بين ربيكا وأبيها تظهر استقلالا أكبر ، مرده الى المزايا الشخصية . فمن الواضح أن ربيكا أذكى من أبيها ، ومع ذلك فعلاقتهما متسمة بتوافق تام . وفي الاوقات العصيبة يظهر كل منهما اخلاصا مطلقا للآخر — وهو اخلاص يتصف به موقف يعقوب من أبيه سيمون — بينما تتميز حياتهما في الحياة العادية بروح الدعابة .

ثمة أيضا الرابطة العشائرية التي تظهر بوضوح وقوة في علاقات يهود الروايتين . ولا يدخر المؤلفان جهدا في تبيين اثر الاضطهاد في تقوية هذه الرابطة . وفي الحقيقة يصعب التوكيد على أن هذه المشاعر العشائرية ستبقى لو لم يكن هناك اضطهاد . ربيكا ، مثلا ، تبين لراوينا الاسباب التي تدفعها وأباها للسفر الى اسبانيا العربية على النحو التالي :

> « شعب انكلترة عرق شرس ، يتشاجر مع جيرانه او مع نفسه ، ومستعد لان يغرق سيفه في امعاء بعضه بعضا . وليس هذا بالمأوى الامين لابناء شعبي ... في ارض الحرب والدم ، المحاطة بجيران معادين ، لا تستطيع اسرائيل ان تستريح في تجوالها » . ( ص ٤٦٤ ) .

وهذا يفسر أهمية الاتصال بالرسائل بين اليهود . فرسالة تقديم من يعقوب

تمهد لتعرف هارنفتون بالجاخام ليونز ، الذي يرسل بدوره الى مونتنيرو رسالة مماثلة . وكثيرا ما يذكر اسحاق اسماء أصدقائه اليهود الذين ساعدوه على تحمل متاعبه . هو أيضا يكتب رسالة الى يهودي آخر ، يستطيع بواسطتها آيفنهو ان يحصل على الحصان وعدة الحرب .

التعاطف الديني مظهر بارز آخر من مظاهر حياة اليهود ، ويصعب في الواقع التمييز بين هذه الخاصية والخصائص الاخرى لحياتهم ، باعتبار أن اليهودية ، كما يقول مندلسون ، ليست دينا سماويا وانما شريعة سماوية تنظم علاقاتهم بقوانين صارمة . وباستثناء السيد مونتنيرو ، الذي يبدو كتيما امام المفاجأة والانفعال ، فجميع شخصيات ادجورث وسكوت يلفظون كلمات ( يهوه ) و ( الله ) و ( موسى ) و ( ابراهيم ) في مناسبات متعددة . وجميعهم يتبعون تعاليم دينهم الذي يزودهم بحلول لمشاكلهم اليومية . وفي هذا المجال ، لا تبدو علاقاتهم مع المسيحيين مهووسة دينيا . حتى تمسك اسحاق الشديد بدينه يستسلم امام ضرورة مساعدة مسيحي جريح .

النقطة الحاسمة في تاريخ يهود اوروبا هي اذن رغبة اليهود في الاندماج مع المجتمعات الغربية ، وضرورة اعتراف هذه المجتمعات بحق اليهود التاريخي في أن يكونوا مواطنين في البلدان التي يسكنونها على نحو طبيعي . وحيثما تنسجم مواقف الطرفين ، يغدو اليهود جزءا من تلك المجتمعات . أما عندما تختلف ، فبعضهم ينكفيء على ذاته وينقلب صهيونيا . وهذا هو أصل الصهيونية الى حد كبير : انها رد فعل وليست حركة تاريخية أصيلة .

# الفصل الثالث

## ما قبل الصهيوني

### ١

شهد القرن التاسع عشر نقلة حاسمة في حياة يهود اوروبا وامريكا الشمالية : من الاضطهاد الى العزلة . وتلك نتيجة من نتائج عصر التنوير . فقد ازداد أمثال هارنفتون وآيفنهو ، وصار التعايش المسيحي ـ اليهودي ممكنا . غير ان هذا الوضع لم يكن مرضيا لبعض اليهود .

في الولايات المتحدة كان تيار الاندماج سريعا وملموسا ، كما راينا في **هارنفتون**. ويعود السبب ، جزئيا على الاقل ، الى تأثر سكان نيو انكلند بأدب العهد القديم الذي درس بتعاطف واضح مع اليهود . « كانت بيوريتانية نيو انكلند نوعا من اليهودية الجديدة ، يهودية موصوفة بتعابير انكلو سكسونية . فقد ركز هؤلاء البروتستانت في دراستهم للكتاب المقدس على العهد القديم ، وحاول بعضهم فهمه بنصه الحرفي كما يفعل ارثوذكس اليهود . » (١) وفي فرنسا اعتبر اعلان حقوق الانسان، الذي جاءت به الثورة ، اليهود مواطنين عاديين . أما في بريطانيا الفيكتورية ، فقد أعطي ( رعايا جلالة الملكة اليهود ) الحقوق المدنية كلها تقريبا ، باستثناء ملكية الاراضي والنيابة اللتين صارتا حقا عام ١٨٥٨ .

ومن جانب آخر

كان اليهود الصاعدون ايام دزرائيلي الى القمة ميالين الى الصمت والحكمة والمباديء الرفيعة وذوي كرامة غير ملوثة ، وقد امتلكوا ثروات طائلة وصاروا سادة كلاب الصيد ، كما اشتروا وادي ايلزبري . ويمثلهم في هذا المضمار صديق دزرائيلي البارون روتشيلد الذي رشح نفسه للبرلمان المرة تلو المرة على اساس مبدئي حتى رفع الحظر عن اليهود ، واذ دخل هناك اخيرا جلس لمدة خمسة عشر عاما دون ان يفتح فاه . (٢)

ويبدو أن استجابة اليهود للتسامح البريطاني كانت نوعا من القبول الممزوج بالتحاشي . فبصورة عامة ، كانوا يطلبون القليل ويتوقعون الاقل ، وكانوا راضين

---

١ – Edmund Wilson, **A Piece of My Mind : Reflections at Sixty** (London : W. H. Allen, 1957), p. 68.

٢ – Robert Blake, **Disraeli** (London : Eyre and Spottiswoode, 1966), p. 49.

بالعيش في وطن مسالم . اما البريطانيون فقد اكبروا لانفسهم موقفهم السمح هذا . وكان ميزان العلاقة بين البريطانيين المسيحيين واليهود في الاساس قانونيا ، وبقي الجانب السياسي والاجتماعي غير متزن تماما .

هذا التفاهم الضمني لم يلائم بنجامين دزرائيلي ، الذي تجاوز طموحه حدود التسامح البريطاني في سياق الاندماج ، وأثار حنقا بصورة خاصة بين وجهاء الطبقة العليا . وهكذا كان الصراع الذي خاضه ليصير رئيس وزراء واحدا من الاعنف والأشق ، وكان بارزا فيه موضوع الاندماج والوعي الذاتي . ومن حسن الحظ أن دزرائيلي قد سجل في أعماله القصصية قدرا كبيرا من سيرته الذاتية وأفكاره السياسية الدينية ، منيرا بذلك هذا الجانب الهام من حياته . فرواياته جميعها تقريبا تبدأ ببطل يبلغ سن الرشد ، وتلك موضوعة تشير الى وعي المؤلف الذاتي . وقد آثرنا التركيز على المؤلف نفسه عبر أبطاله هؤلاء في خمس روايات ، لانهم في المناسبات جميعها أصوات لسيدهم تقص بعضا من أحداث حياته او تنطق بما يجول في ذهنه أو تعبر عن فلسفته . لقد كتبت هذه الروايات استجابة لأحداث معينة في تاريخه ، وثمة ما يؤكد أنه قد عاش أو أراد أن يعيش ما قد كتب . ففي أوراق هيوبندن يعلن :

> في **فيفيان غري** صورت طموحي الحقيقي والفعال . في **آلروي** طموحي المثالي . اما رواية [ **رومانسية نفسانية او قنطاريني فلمنغ** ] ففي نمو شخصيتي الشاعرية . وهذه الثلاثية هي التاريخ السري لشاعري ـ سوف لن اكتب اي شيء آخر عن نفسي . (٣)

وهذا صحيح « بشرط أن نسمح للروائي دائما بتغيير الحقائق لكي تلائم نفسه. وبالاخص بالنسبة لعادة دزرائيلي في أن يرى نفسه ، وكل من يتعلق به ، عبر ابهة مفخمة . » (٤) غير ان دزرائيلي لم يحافظ على وعده ، فثلاثيته الثانية ـ **كونتغزبي** ، **سيبل** ، **تانكريد** ـ هي بكل تأكيد التاريخ السري والمعلن لمؤلفها اثناء اربعينات القرن التاسع عشر . ويصعب جدا التمييز بين المؤلف وابطاله والقول من ثم أن هنا ينتهي دزرائيلي ويبدأ فيفيان غري ، أو سيدونيا ، أو ايفا بيسو . كذلك فان مؤلفات دزرائيلي وسيرة حياته مترابطتان على نحو يبرر قولة مونيبني : « بدون دراسة كتبه يستحيل أن نفهم حياته . » واضافة السيد بلومفيلد ، الذي اقتبس قولة مونيبني : « وبدون دراسة حياته يستحيل ان نفهم كتبه . » (٥)

ان اكثر صفات دزرائيلي بروزا هي يهوديته . فمع انه عمد كمسيحي في العام الذي كان ينبغي له أن يعمد كيهودي ، فان معموديته ظلت عاجزة عن التقليل من مشاعره اليهودية ، سواء في المدرسة أو في المجتمع او في ذاته . فقد بقي اجنبيا ، بل وربما ازدادت غربته واضطرابه ، رغم انه جنى كسبا ضخما لم يكن ليجنيه لو انه ظل يهوديا . وبالنسبة له فان ما يميز اليهودي كيهودي ليس ـ كما يقول مودر ـ

---

٣ ـ Box 11, A 111 ; quoted by Blake, **Disraeli**, p. 38.

٤ ـ Richard Aldington, **Four English Portraits, 1801-1851** (London : Evans Brothers Limited, 1948), p. 81.

٥ ـ Paul Bloomfield, **Disraeil**, published for the British Council and the National Book League (London : Longmans, Green & Co., 1961), p. 5.

دينه وانما عرقه . وقد حرص اعداؤه الانكليز على ابراز هذه الصفة فيه والتشنيع عليها . ففي ميدستون ، حيث انتخب نائبا للمرة الاولى « ترنح تحت صيحات ( ثياب قديمة ! ) و ( شايلوك ) » ( آلدنفتون ، ص ٩٥ ) . ويسجل السيد بلومفيلد ان ستانلي ، اللورد داربي فيما بعد ، « احتقر دزرائيلي واخبر بيل انه اذا اخذت هذا الزنيم [ وزيرا ] ، فسوف لن يشترك هو » ( ص ٢٢ ) . اما خطابه الاول في مجلس العموم فقد قوبل بالشوشرة والهياط والالقاب البذيئة . وكان جورج بنتنك « ابن عم اللورد جورج » ، يدعوه باستمرار « اليهودي » ، ( بليك ص ٤٢٧ ) ، وقد « وجد كارلايل ممرنات دزرائيلي اليهودية امرا لا يطاق ، وتساءل الى متى سيظل جون بول يسمح لهذا السعدان الاحمق بأن يرقص على صدره . » (٦) وفي ١٨٧٦ وصفه كارلايل ايضا بانه «عجوز يهودي لعين لا يساوي ثمن وزنة من لحم الخنزير» (بليك ص ٥٥٢) . كذلك فقد كان « احتقار دزرائيلي تقليعة الجامعات . » (٧) وفي ١٨٧٤ وجدت السيدة غلادستون انه من « المقرف » بعد « جهد » زوجها « ووطنيته واعوام شغله ان تفكر في تسليم بيضة العش الى ذلك اليهودي » ( بليك ، ص ٥٣٨ ) . ولقد اعتبره بسمارك يهوديا حاذقا واعجب به ، كما ان ناقدا ادبيا حديثا يؤكد بقوة : « يشعر الانسان بانعدام ثقة (وهو شعور ناخر) بأن احسن صفحة من دزرائيلي لا تمت لنا بصلة . » (٨)

الاحتمال الاكبر هو ان هذا الموقف المدمر اخلاقيا من جانب معاصري دزرائيلي قد بدأ لدى زملائه في المدرسة . وتجلو روايتا **فيفيان غري** و **قنطاريني فلمنغ** بوضوح تام هذا العجز الذي عانى منه دزرائيلي بسبب يهوديته . لقد عانى هناك تجربته الاولى في العزل من بين أصدقائه على هذا الاساس الذي كان يمكن لدزرائيلي بدونه ان يغدو انكليزيا صرفا . على الاغلب ، كان ذلك هو الوقت الذي غرست فيه بذرة الشعور بان كلمة « يهودي » تعني ( أجنبي ) . فثمة جو من الغربة غير المفسرة محيط بفيفيان وقنطاريني. فيفيان هو بطل المدرسة وقائدها ، والطلاب يصفقون لجراته واصالته ومواهبه ، ومع ذلك يوجد حوله باستمرار جو من العداء المحتمل الناجم ليس عن نجاحه ولكن عن شيء سلفي ، لا شخصي . فالطلاب والموجه يدعونه « غريب » . ويبدو هذا الجو من الغربة اكثر حدة في **قنطاريني فلمنغ** ، حيث يواجه « المظهر الجنوبي » للبطل بضغينة قاسية . وفي هذه الرواية يتقدم تعبير دزرائيلي عن غربته خطوة ابعد في كون قنطاريني ، بعكس فيفيان ، يعيش في غير وطنه . الا ان المشهد الاحفل في كلا الروايتين هو العراك الذي ينشب بين كل من البطلين وقائد المجموعة المعادية . أما العبارات التالية ، التي تقتبس عادة لتوضيح علاقاته الاخوية، فتتناول في الحقيقة علاقاته بزملائه التلاميذ :

لم يكن ثمة تشابه بيننا . لم يكن لاعينهم الزرق وشعرهم التبني الشاحب وتقاطيعهم البيضاء

---

٦ – André Maurois, **Disraeli : A Portrait of the Victorian Age,** trans. Hamish Miles (1927 ; rpt. London : The Bodley Head Ltd., 1929), p. 178.

٧ – J. A. Froude, Lord Beaconsfield (London : Sampson Low, Marston Searle and Rivington Ltd., 1890), p. 173.

٨ – Sir Arthur Quiller-Couch, **Charles Dickens and Other Victorians** (Cambridge : The University Press, 1925), p. 197.

أن تدعي قرابة من أي نوع مع محياي الفينيسي . وحيثما تحركت نظرت حولي ووجدت عرقا مختلفا عني . (٩)

ويديـر دزرائيلي ـ كذلك فيفيان وقنطاريني ـ ظهـره للمدرسة وذكرياتها ، ويدخل الحياة العامة : « في انكلتره ، التميز الشخصي هو الجواز الوحيد الى مجتمع العظام . وسواء اكان هذا التميز نابعا من الثروة أو العائلة أو الموهبة ، فذلك كلـه سواء ، لكن المؤكد انه لاجل الدخول في المجتمع الرفيع ، على الانسان أن يمتلك اما الدم واما مليونا واما العبقرية » . (١٠) ودزرائيلي الذي ينتمي الى الطبقة المتوسطة لا يملك مليونا ، على العكس انه مثقل بالديون . وهو لـم يكتشف بعـد تفوق دمه اليهودي . لكنه عبقري . وهكذا يدخل دزرائيلي المثلث الشخصية الـى وسط مستريب . ورغم مواهبه الهائلة فهو يصاب بخيبة أمـل قاصمة . وهكـذا يغدو قنطاريني زعيما لعصبة لصوص تتجمع في غابة لكي تسطو على الآباء النبلاء العابرين . وتنتهي علاقة دزرائيلي بموري ولوكهارت وكروكر الى خلاف مرير ، ثم تتحول في **فيفيان غري** الى افق السياسة . فلدى فيفيان ، كمـا يعتقـد ، الوسائل اللازمـة للنجاح : « لقد غدا قارئا حاذقا للقلب البشري ، وشعر بان لسانه قـد خلق ليقود الكائنات البشرية » . ( ص ١٨ ) . ان يقوم بدور محرك الاسلاك المختبيء فـي لعبة تشكيل سياسي جديد تكون نتيجتها عزلة واذلالا تامين . ان غرض دزرائيلي من كتابة **فيفيان غري** هو « فتح قلوب المجتمع للشباب المرذولين مثل فيفيان ، وليس لتقسيتها . لقد خمن أن المجتمع سيوافق عليه ، يربت علـى كتفه ، ويستعيد لفيفيان شهرته وثروته ، بل وينادي به كبايرون الجديد » . (١١) ومثل دزرائيلي ، يكتب قنطاريني رواية عنوانها **مانستاين** ، بعد فشل مماثل في المجتمع . في البداية تستقبل الروايتان باعجاب فضولي ، ويحاول كثيرون وضع مفاتيح لاسماء الشخصيات الواقعية الهامة التي أخفاها المؤلف بشفافية . ولكن عندما يكتشف اسماء المؤلفين ينهـال النقـاد والمعلقون بالتقريع عليهما وينبذونهما بلفة جارحة . وهذا هو تأثير رد الفعل العام على دزرائيلي وقنطاريني :

باي رعب ، باي يأس مطلق ، ودهشة مروعة ، وجدت نفسي ، للمرة الاولى في حياتي ، موضوعا لازدراء بالغ الطيش ، بالغ اللؤم ، وبالغ الدقة . ( قنطاريني ، ص ١٨٢ )

والنتيجة هي نكوص تام استمر اربع سنوات وتوج بمرض جسدي ـ نفسي هدد حياته تهديدا خطيرا : « لقد ادرك ـ أخيرا ـ انه لا أحد بالمقاييس التي اعتمدها الفلسطينيون وهي الدم والذهب . لقد ادرك انه لا منتم مرذول ، يهودي ، لا أكثر ـ وان الفلسطينيين ان يتركوه ينسى ذلك للحظة واحدة » . (١٢) ونلمس هذا النكوص في النقلة التي يقوم بها من ضمير الغائب في **فيفيان غري** الى ضمير المتكلم في **قنطاريني**

---

٩ ـ Benjamin Disraeli, **Contarini Fleming or A Psychological Romance** (1832, rpt. London : Peter Davies, 1927), p. 5.

١٠ ـ Benjamin Disraeli, **Vivian Grey** (1826 ; rpt. Edinburgh University Press : T and A. Constable Ltd., 1926), p. 17.

١١ ـ B. R. Jerman, **The Young Disraeli** (Oxford University Press, 1960), p. 50.

١٢ ـ المصدر السابق ، ص ٨٠ .

**فلمنغ** ، من فيفيان الانبساطي الى قنطاريني الانطوائي « ذي العواطف المحتدمة والرغبات الغلابة والمزاجات المحيرة والمشاعر المتضاربة » . (١٣) انه يهودي ولد ونشأ في بابل وعلى اسمه الطابع الواضح لاسرائيل ، كما يقول الاستاذ جرمان . وهكذا وجد دزرائيلي نفسه في كومة من الظروف الغريبة ، بدون بلاد ، بدون اقرباء ولا اصدقاء . لقد شعر بأنه ــ كما عبر شيريدان مرة « مثل الصفحة الفارغة بين العهدين القديم والجديد » (بليك ٥.٤) . انه ، مثل فيفيان ، يمضي الى فراشه وهو يتساءل : « من الذي سيكون عدوي غدا » ( ص ٣٨ ) ، ومثل قنطاريني ، يعتقد: « لقد حكمت وعلي الآن ان اعاتب ، دون محاكمة » . ويضيف : « لكني لن ارضخ بعد الآن لهذا الاضطهاد » . ( ص ٨٩ ) .

كمخرج ــ اذ يجب دائما ان يكون ثمة مخرج ــ يقرر دزرائيلي أن يغادر لندن ــ بابل ، موقتا على الاقل ، في ما عرف باسم الرحلة الكبرى . في **فيفيان غري** هجرة مماثلة . ففي الملحق الذي أضافه دزرائيلي الى الرواية ، يصور فيفيان في حالة انجرار نحو الجنوب ــ حيث كانت عائلة دزرائيلي قديما . وتنتهي الرواية نهاية رمزية هي وقوف فيفيان على قمة تلة وقد هجره خادمه الوفي وأحاط به السيل والسماء الجهمة ، والى جانبه حصانه النافق : عزلة مطلقة . كذلك يضطر قنطاريني الى ترك وطنه الاسمي في رحلة طويلة تبدأ بباريس وتمتد الى البندقية فسوريا فمصر . لقد بدأت رحلة دزرائيلي عام ١٨٣٠ واستغرقت سبعة عشر شهرا . وليس من المبالغة القول ان موقفه النهائي تجاه لندن ــ بابل قد تبلور خلالها . ومن المهم ان نلاحظ ايضا التحسن المذهل في صحته ، فقد فارقه مرضه العصابي الذي عذبه خلال سنوات بعد فشله المزدوج في الادب والمجتمع . ومهم ايضا ان نلاحظ انه ، نتيجة لاضطهاد مواطنيه الانكليز له ، قد اعتنق الفخر بيهوديته واكتشف تفوق ذلك الدم الذي كان ينشده :

> لقد التهب خياله اذ فكر بمجد اسرائيل الغابر ، بتلك الشخصية المتميزة للعرق الذي جاء منه والادب الشعري لدينه . ومن المحتمل جدا ان يكون قد فكر باحياء المجد والقوة العرقيين القديمين . (١٤)

وحقا فانه من المحتمل جدا أن يكون دزرائيلي قد حلم « باحياء المجد والقوة العرقيين القديمين » مع أن هذا الحلم لم يتحول الى حقيقة ، وهذا هو أحد الاسباب التي جعلتنا نصنفه على انه ما قبل صهيوني وليس صهيونيا كاملا . ان عودة دزرائيلي الى انكلتره تشير الى تفضيله لندن على القدس . الا انه لن يقبل أن تكون لندن بابل جديدة ، وسوف يحارب بجماع طبيعته المتدفقة لكي يجعلها وطنا لدزرائيلي، اليهودي، رافضا على طول الخط أن ينحني للفشل رغم أن اذلاله يبدو بلا حدود . ان عليه أن يفرض نفسه على الطبقة الانكليزية العليا الساخرة بسخرية أكبر و « بالاختلاف عنها

---

١٣ ــ المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

١٤ ــ Muriel Masefield, **Peacocks and Primroses: A Survey of Disraeli's Novels** (London: Geoffrey Bles, 1953), p. 75.

بأكبر عنف ممكن » . (١٥) وعلى أية حال ، فلدى مغادرته الشرق العربي كان يحمل معه مخطوطتي كتابين : **قنطاريني فلمنغ** ، وهي صورة دزرائيلي شاب، **وحكاية آلروي الرائعة** ، التي تحمل ( طموحه المثالي ) . ومن المؤسف ان هذه الفترة القصيرة من حياة دزرائيلي لم تعط الأهمية التي تستحقها ، وخاصة المصادفة الغريبة لانجاز هاتين الروايتين في وقت واحد . لقد أفرخ التأمل الطويل بمكونات نفسيته المتضاربة ازدواجية دائمة : انه يهودي اليهود الحقيقي ورئيس وزراء بريطانيا العظمى ، شرقي وغربي ، غريب وقائد . وحقا ، لقد جالد دزرائيلي مرة بعد مرة هذه الازدواجية واراد توحيد ذاته كانسان بريطاني ، لكن أحدا لم يثق به ، ومن المشكوك فيه أن يكون هو قد وثق بان محاولته ستنجح الا بغزو بابل الجديدة وفتحها . اننا لنجد تعبيرا مصفى عن هذه الازدواجية في الفصل الختامي من **قنطاريني فلمنغ** :

ونيتي هي ان ابني في هذا البقاع الجميلة ( فينيسيا ، موطنه الاصلي ) قصرا عربيا ستزينه مجموعاتي الشرقية ، ولكن آمل ان املأه ايضا بتحف الفن المسيحي . ( ص ٣٦٢ )

فها هو دزرائيلي يهيء نفسه لتقديم ما هو انكليزي للانكليز ، وما هو يهودي لليهود ، وما هو مفيد ومحرر للذات لنفسه . مرة أخرى :

ان اهتمامي بسعادة عرقي لن الحدة بحيث يمنعني من ان اكون اعمى للحظة واحدة تجاه العواصف المتلاحمة على افق المجتمع . وعسى الا يكون بعيدا التجدد السياسي للبلاد التي كرست نفسي لها ، ففي ذلك العمل العظيم اعتزم المشاركة . ( ص ٣٦٣ ) .

والاقتباسان السابقان يشيران أيضا الى طموح دزرائيلي الهائل . انه ينوي بناء « قصر » عربي ، وعازم على المشاركة في « التجدد السياسي » للبلاد التي ينتمي لها . ولدينا تعبير أكثر مباشرة من هذا الطموح أعطاه دزرائيلي رئيس الوزراء عام ١٨٧٤ :

( السلطة ! لقد جاءتني بعد فوات الاوان . كانت ثمة ايام اشعر فيها لدى استيقاظي ان بوسعي الاطاحة بأسر مالكة ومكرمات ، لكن هذا مضى ) . ( بليك ص ٥٤٢ )

اما الاستاذ جرمان فيستكشف في دزرائيلي « نارا باطنية حامية » تستطيع « ان تخنق الحوافز الانسانية الى درجة جعلته ينمي جميع انواع الصفات الرديئة ـ اللارحمة ، الأنانية ، والغرور ـ لكي يبقي تلك النار حية . وباختصار كان ملهما » ( ص ٣٩ ) .

لقد كانت شخصية دزرائيلي من الحساسية والجموح بحيث اضطر ، تحت ضغط بيئة مرتابة ووضع شخصي قلق ، الى أن يصيغ عقيدة تحميه وتكون له تعويضا ومخرجا. لقد صاغ فلسفته العرقية بين عامي ١٨٢٧ ـ ٤٧ عبر مرحلتين تناولت الاولى رواية **آلروي** ، والثانية ثلاثيته السياسية الدينية . ولا بد من الاشارة هنا الى ان شعور دزرائيلي بالتفوق ، رغم الاذلال الذي تعرض له ، كان عاملا حاسما في صياغته

---

١٥ Walter Allen, **The English Novel: A Short Critical Study** (London: Pheonix House Ltd., 1954), p. 146.

لهذه النظرية العرقية . لقد كان يشعر أن « العالم ــ على الاقل العالم غير اليهودي ــ مهزلة . تسع وتسعون بالمئة من الناس حمقى . » (١٦)

## ٢

شهد عام ١٨٣٣ صدور رواية **آلروي** ؛ ( طموح ) دزرائيلي ( المثالي ) . وبيانه عن عقيدته الصهيونية . وكما يكتب السيد آلن ، فان حلمها العرقي قد « عبر عما كان العامل المثبت في شخصية دزرائيلي » ( ص ١٤٩ ) . وكان ينبغي أن تكون رواية دزرائيلي الثانية . فقد بدأ كتابتها مباشرة بعد **فيفيان غري** . لسوء الحظ ، لا يشرح المؤلف ولا مؤرخوه سبب هذا التأخير في كتابتها . غير أن موضوعتها الاساسية ــ النضال لاجل انشاء كيان يهودي في فلسطين ــ تفترض أن المؤلف قد بدأ كتابتها كرد فعل على فشله الذريع في مواجهته الاولى مع الجمهور الانكليزي . ويبدو انه اجلها لظهور بوادر أمل بالنسبة لحياته في لندن . غير أن فشله الثاني ، فيما يبدو، احيا هذه الفكرة في ذهنه ، دون ان يتمكن من تنفيذها بسبب مرضه الذي اقعده عن الحركة فترة طويلة . أما التاريخ الحقيقي الذي يبني عليه دزرائيلي قصته فبسيط : في عام ١١٦٠ يحاول داوود بن الروحي التمرد ضد مسلمي اذربيجان ، فيروع بذلك يهود المنطقة كلها بما فيها فارس والعراق اذ يشعرون ان هذا التمرد سيهدد حياتهم الآمنة ، وهكذا يذبحه حموه وهو نائم واضعا نهاية قاسية لشر مقبل . وقد غير دزرائيلي كثيرا من هذه الوقائع وزور أخرى ، وشوه وبالغ حتى آلت القصة الى ما هي عليه في الرواية . وليس هذا بالامر الهام ، على أية حال ، وانما المهم هو الافكار التي ضمنها الرواية عقل يهودي من القرن التاسع عشر . فالرواية تمثل تقدم دزرائيلي، ليس كيهودي تائه أو كشايلوك ، وانما كدافيد آلروي ، الاسير أو أمير الاسرى الحانق على قومه بسبب حياتهم المقعدة المذلة، والذي يقرر ان يعصف بلندن ــ بغداد ويستعيد لاسرائيل مجلسها المبارك . والرواية هكذا تجسيد لحلم صهيوني مبكر يرتكز على العرق والدين وتاريخ العهد القديم وتميز القبائل اليهودية العشرة ، ويستهدف اعادة تجميع اليهود في فلسطين في ظل مملكة او حكومة دينية .

لقد كان تقييم دزرائيلي أمرا صعبا على الدوام . ففي كتابته مزيج محير من الجدية والنباهة والهجاء والواقعية والمهزلة والميلودراما والتوهم ، وحتى ما بعد الطبيعة . ويذكر السير لزلي ستيفن ، الذي يعجب به ، اشكالية دزرائيلي في أكثر من موضع : « دزرائيلي يبقى بمهارة فائقة في منطقة الاشكالي » ( ص ١١٣ ) . ويؤكد السيد بليك أنه « لم يكن من السهل أن تعرف دزرائيلي في أي وقت من أوقات حياته » ( ص ١٧٥ ) . ويحل ستيفن موضوع الاشكال هذا « بقبول نظرية الوعي المزدوج » ( ص ١١٩ ) . وبعبارة اخرى : بالاعتراف بازدواجية دزرائيلي . ومع أن هذه النظرية اساسية في فهم آثار دزرائيلي فانها لا تكفي لارشادنا الى تمييز مواقف المؤلف الجدية من الهزلية . فدوافعه متنوعة وغزيرة . وهو يتقصد أحيانا أن يتوه قارئه . ويعود السبب في ذلك الى خوفه من السخرية أو التجريح اللذين قد يوجههما اليه الأمميون.

١٦ Sir Leslie Stephen, **Hours in a Library** (London : Smith, Elder & Co. 1909), Vol. II, p. 114.

ويصدق هذا على **آلروي** بشكل خاص . فالرواية تبدأ بالموضوعة نفسها التي رأيناها في **فيفيان غري** و **قنطاريني فلمنغ** : امير الاسرى الشاب يشعر بقواه العقلية والروحية ويناجي نفسه :

( اوه ! قلبي مليء بالهم ، وروحي مثقلة بالحزن ! ماذا انا ؟ ما كل هذا ؟ غيمة ثقيلة تغمر حياتي . يا اله آبائي دعها تنفجر ! لا اعرف بماذا اشعر ، لكن ما اشعر به جنون ... يا رب الجنود ، دعني اغز او امت ! دعني اغز مثل داوود ، او امت ، يا رب ، مثل شاوول . ) (١٧)

هذا الاسلوب الطنان صفة شاملة للرواية باكملها ، ومع ذلك يكشف عن دزرائيلي في لحظة اعادة تفكير بحياته . فالهبوب الفكري ، المثقل بالشعور بالعظمة، دزرائيلي الصفة ، والغلاف الرقيق الذي يخفي شخصية آلروي ( مثل عبارتي : ( يا رب الجنود ، ويا اله آبائي ) ) ، يفشل في تغطية وضع المؤلف الحقيقي ( غيمة ثقيلة تغمر حياتي ) أو رغبته الجارفة في الغزو ( دعني اغز أو امت ) . غير أن لغة المقطع المفتعلة تعدم الكثير من معقولية المعاناة التي يرزح تحتها البطل ، وتفسر السبب الذي دفع غالبية النقاد الى اعتبار الرواية « مقصودة لسلة المهملات » . (١٨) أما كون هذه اللغة أداة معاكسة لغرض الكاتب في نقل كثافة مشاعر آلروي ، فأمر واضح في المقطع التالي ايضا . اذ سرعان ما يخبرنا المؤلف أن من بين اهتمامات بطله الوضع السيء الذي يعانيه شعب آلروي :

( يا اله آبائي ! اني لا اجرؤ على تسميتك اله ابنائهم الاشقياء ... انخادمك اسرائيل، يا رب، هو الآن عبد مهان ومذعور ... واأسفاه ! انهم لا يعانون ، انهم يتحملون ولا يشعرون . ) (ص٩)

وهذه الصورة التي يرسمها آلروي لليهود تبدو غير مشجعة لشاب يستهدف اعادة بناء هيكل سليمان : « لقد سقط القرميد ، لكننا سنعيد البناء بالمرمر » . ( ص ٣١ ) ومثل هذه الصورة وهذا الاسلوب ينعكسان على شخصية البطل نفسها ويجعلان القاريء غير ميال للتعاطف معها . غير أن هدف المؤلف واضح : اسرائيل خادم ، وهذا أمر لا يطاق .

وسرعان ما يقتل دافيد جوليات ، وهو امير مسلم حاول الاعتداء على ميريام شقيقة البطل :

( اذن نستطيع ان نخلص انفسنا منهم ، اه ؟ ان يسقط الامير فلماذا لا يسقط الشعب كله ؟ انه ميت ، ميت تماما ، وانا ذابحه ! هه ! اخيرا انا رجل . هذه ، هذه فعلا هي الحياة . فلأعش ذابحا ! ) ( ص ١٧ )

ترى ماذا سيكون موقف القراء من هذا المخلص المتعطش للدماء ؟ وعلى أية حال، فان آلروي ، مثل الصهيونيين الاوائل ، يجد أن عنصري التميز الاهم بالنسبة لليهود هما العرق والدين ، ويصمم على تحويلهما الى قوة فاعلة . ان الحوار الذي يجري بينه وبين ( حنين ) بشأن أسباب ثورته يكشف عن هذين العنصرين بوضوح . فآلروي يؤمن بـ « اشياء مقدسة » نزلت من « اله اسرائيل » الى « الشعب المختار » ، لكن هذا الشعب نسي ربه وهكذا انتهت « سجلاته التاريخية الحافلة بالنصر والتي

---

١٧ – B. Disraeli, **The Wonderous Tale of Alroy** (London : Peter Davies, 1927), p. 8.

١٨ – B. R. Jerman, The Young Disraeli, p. 171.

ستشرق ثانية » . ان آلروي مصمم « على المجد ، المجد الابدي » ( ٦٠ ــ ٦٣ ) الذي لن يسقط مادام آلروي متمسكا بايمانه الحازم في قيادة شعبه بصولجان سليمان الى الارض المقدسة . وهكذا فالدافع الاساسي لثورة آلروي ناجم عن ايمانه بان اليهود شعب مختار ، وبأن وضعهم الحالي يدفع الى هذه الثورة :

« ان العالم مريح لك ، يا مولاي حنين . ولكن لو كنت مثل اخوانك تعامل بالكف واللعنة بدلا من الانحناءات والتبريكات . لو كنت تنهض كل صباح لتشعر ان وجودك ذل وترى نفسك مشارا اليك ببنان الكره والقدرية . لو كان حظك مثل حظهم في جرجرة حياة مهينة بليدة ، يائسة وبلا هدف ، وليس فيها سوى الحط من قيمتك فيما انت تشعر بحدة بقيمتك الاصيلة وتعرف جيدا عرقك المتفوق . عندئذ ، ربما يكتشف حنين انه لا بأس بالنضال لاجل الحرية والشرف » . ( ص ٦١ )

اذن ثمة شعور بقيمة أصيلة لليهود وبتفوقهم العرقي .

أما حنين فهو يهودي مندمج بحسب مباديء مندلسون . انه يعتبر نفسه ببساطة « رجلا يعرف الرجال » . ويقول لآلروي : « انا اؤمن بالحقيقة ، واتمنى من الناس جميعا ان يفعلوا ذلك » . ان الاشياء لا يمكن ان تكون مقدسة لمجرد أنها جاءت من عند الله ، « فكل شيء جاء من عند الله . » اما الشعب المختار فـ « أقلية هزيلة » يبدو انها « اختيرت للاضاحيك والسخريات والازدراءات » . ويختتم كلامه بالقول : « اذا كان الخلاص اسما آخر للمذابح ، فلست أحسد اي مسيح ... ان الشرف والحرية ملكي ، لكنني كنت مسيحي الخاص » . ( ص ٥٩ ــ ٦٣ )

في هذا الحوار ، يبدو واضحا الفرق بين عبارات آلروي المنفوخة المفتعلة وعبارات حنين الواقعية المدعومة بالتجربة . وليس التفاوت في العمر هو الشيء الوحيد الذي يفسر طريقة آلروي في التعبير عن نفسه ، وفي الحقيقة ان يتكلم في أحيان أخرى بحكمة استثنائية : «تزدهر الامبراطوريات والاسر الحاكمة ثم تهوي ، والعاصمة العالمية الفخورة تغدو بابا ، والممالك صحاري ، لكن اسرائيل تبقى » ( ص ٤٠ ) . هذه العبارة الغريبة الجدية تسبق حديثه مع حنين . وباديء ذي بدء يمكن القول ان هناك بونا بين آلروي المفكر وآلروي المجادل . لكن هذا ليس كل شيء ، فالحقيقة هي انه بعيد لقاء أمير الاسرى بحنين تأسره ابنة الخليفة شيرين ، بروحها الوثابة وجمالها المتألق . وتلك هي اول الماعة يطرحها دزرائيلي للتمهيد لخروج آلروي عن خطه الصهيوني المعلن .

غير ان آلروي يمضي في سعيه لقيادة اليهود في حرب ناجحة ضد الخليفة . وهنا تلقي مناظر الدم المسفوح والموت الفاجع ضوءا بالغ الاهمية على حالة دزرائيلي العقلية في تلك الفترة من حياته . ان استاذ آلروي ــ جاباستر ، أخا حنين ، الصهيوني المقطر ــ يبعث بهذا الانذار الى المسلمين : « سوف يثب على بواباتكم ، ويطعن ، ويدمر تماما كل ما لديكم ، ولن يوفر أحدا ، بل سوف يذبح الرجل والمرأة ، الطفل والرضيع ، الثور والغنمة ، الجمل والحمار » ( ص ١٢٠ ) . والنتيجة هي :

لقد توقف المؤذنون المسطولون ونسوا الاعلان عن قوة معبودهم وقيمة نبيهم ، (ص ١٢٠) .

الدين والشجاعة والعبقرية الهمت جيوش آلروي ، وقد ساعده بلا شك ذلك التعاطف القومي لشعبه المشرد الفريد ... لقد دمرت مدينة الري الامبراطورية وأحرقت حتى أساساتها ( ص ١٢٤ ) . ولكن من يكون البختياري الجموح ، ومن هو التركماني المتوحش ... أمام محاربي اله ابراهيم واسحاق ويعقوب ؟... لقد شابهت المعركة مذبحة لا قتالا . وغطت السهل دماء السلجوقيين المتخثرة ... عشرون الفا من نخبة الجنود قتلوا من بين الاتراك ( ص ١٢٥ ) .

هذه مقاطع جدية وواضحة ، بمعنى أن دزرائيلي ليس سافرا ولا اشكاليا . ان حلمه الصهيوني ، اساسا ، رد فعل ، وهو يتخذ هنا شكل تخيلات انتقامية يقصد بها أعداءه الشخصيين . أما ان القتل يحدث بين المسلمين فأمر ينبغي أن يضللنا فيجعلنا نعتقد ان هؤلاء الاعداء موجودون في الشرق . ان اعجاب دزرائيلي بالاتراك ، مثلا ، معروف وموثق في رسائله . وخلال سنوات رئاسته كان مؤيدا صلبا لهم ضد شعوب البلقان المسيحية المضطهدة . ويكاد ان يكون في حكم المؤكد ان المقصود بالقتلى في هذه المشاهد هم أعداء دزرائيلي المسيحيون .

ان الانحراف الذي يصيب صهيونية دزرائيلي يتخذ شكل شمولية يهودية ذات سيطرة عالمية لليهود ، وهم في حالة الشتات ، على شعوب المعمورة. فآلروي يكتفي بجعل عاصمة الاسلام عاصمة له . وهذا التغير في موقفه لا يمكن ان يفسر بالظروف التاريخية . فما دام هذا التاريخ منسوجا ، يتعين علينا ان نبحث عن السبب في نفسية دزرائيلي . ان ميدان معركته الحقيقي هو لندن وليس القدس . وبغداد ، العاصمة الحديثة لما بين النهرين ، رمز لمدينة الاسر ، بابل جديدة ، ويمكن لها بسهولة أن تأخذ مكان لندن في لا وعي دزرائيلي . ان طموحه المثالي الذي يعبر عنه **آلروي** ، يبلغ مرحلته الثانية الاكثر صدقا . المرحلة الاولى تمثل هدف المؤلف الصهيوني المحض ؛ تأسيس دولة يهودية في فلسطين . أما الثانية فتشير الى رغبته في فتح لندن . ان آلروي الآن سيد الامبراطورية العربية ، ودزرائيلي يطمح الى أن يغدو سيد الامبراطورية البريطانية . وفي هذه المرحلة يؤمن آلروي ان بعثته هي لاجل تأسيس المملكة الاسرائيلية ولكن « لا يهم كيف أو أين » (ص ١٥٩) . والمؤلف راض بان يؤسس مملكته الدزرائيلية في لندن .

تظهر هنا أيضا ثنائية دزرائيلي. فحول آلروي أخوان يقدمان رمزين واضحين : جاباستر الصهيوني الصرف ، وحنين اليهودي الاندماجي . وبعبارة أخرى، ان وضع آلروي ، كوضع دزرائيلي ، في الوسط ، مثل الورقة البيضاء بين العهدين القديم والجديد وهو يحاول ان يجعل هذه الثنائية أمرا فعالا . ان دفاع آلروي عن سياسته لامر غريب بالنسبة ليهودي تراثي . « فتلك التأملات » التي صاغ فيها حلم الدولة اليهودية في حمدان ( أذربيجان ) قد جعلته يفقد « الساعات الذهبية » (١٦٢) ، و « شعبنا هو بقية ، جزء هزيل من الملايين الزاخرة تحت لوائي » (١٦٤) . لقد نقلت قوانين موسى واقتبست خلال آلاف السنين ، لكنها لم تمارس قط ، أما الآن فيجب أن « تلاءم مع الزمن » (١٥٩) . يقول آلروي لجاباستر :

العالم ملكي : فهل اترك الجائزة ، الجائزة العالمية والبطولية لانجز تقليدا بليدا لقيس حالم ، ولاطوب خرافة ؟... هل يغور هذا الوهج السريع للامبراطورية في غسق شاحب فوق أرض تافهة [ فلسطين ] ؟ أيكون رب الجنود ربا صغيرا الى حد ان نضع حاجزا أمام سلطانه

ونرسم حدودالقدرة الالهية بين الاردن ولبنان ؟... بغداد ستكون صهيوني ... يجب الا تقوم الامبراطورية العالمية على ضفائن طائفية وحقوق استثنائية ( ص ١٤٨ ) .

واضح ان هذا المنطق لا صهيوني ، لكنه ليس لا ساميا . فآلروي يؤمن بانه حقق ارادة الله في تحرير شعبه من العبودية ، وان عليه أن ينبذ اهدافه في اعادة بناء المدينة المقدسة واعادة اعمار الارض المقدسة ، داعيا الى تعايش سلمي في بغداد ومقدما النموذج بنفسه عن طريق زواجه بشيرين .

ثمة حقيقتان في سياسة آلروي . الاولى هي ان وضع الورقة البيضاء بين العهدين يلائمه ـ ويلائم دزرائيلي بالطبع ـ اذا كان مقترنا بالسلطة . والثانية هي انه غير معجب بشعبه وليس محبا له . في حياة دزرائيلي أمثلة كثيرة عن مواقفه المعادية لليهود ، لعل أهمها موقفه في البرلمان تجاه اليهود . يكتب الحاخام هـ. ا. فاين ما يلي :

من المؤكد أن دزرائيلي كان دائما الى جانب حق اليهود في دخول البرلمان ، لفظيا فقط . لقد نجح في ايجاد العرقلة بعد الاخرى ليحول دون الموافقة على قانون تحرير اليهود .

وفي اول خطاب برلماني له عن هذا الموضوع ( كانون الاول ١٨٤٧ ) بدأ دزرائيلي بالموافقة مع أعتى الرجعيين على ان « مباديء الحقيقة الدينية » يجب أن تكون أكثر اهمية من « مباديء الحرية الدينية » . (١٩)

ان علاقة آلروي بجاباستر وحنين جديرة بمزيد من الاهتمام . ففي المنصبين اللذين يشغلانهما ـ الاول هو الوزير والثاني المستشار الخاص ـ يمثلان القوى المصطرعة في عقل دزرائيلي . لقد قاد جاباستر مرة ثورة مماثلة ولكن فاشلة لخلق ثيوقراطية يهودية ، وها هو ذا يقتل بأيدي شيرين الاممية وحنين اليهودي المندمج . انه يبقى مخلصا لصهيونيته حتى النهاية ، ويحث آلروي على متابعة زحفه نحو فلسطين على أساس ان

( الرب قد بارك يهوذا : انها أرضه . وهو يريد ان يملأها بشعبه الخاص بحيث تزدهر عبادته أبدا ... يجب ان نوجد منفردين . وحفظ هذا الانفراد هو الهدف العظيم ولب الشريعة ... سيدي ، يمكنك ان تكون ملك بغداد ، لكنك لا تستطيع في الوقت نفسه ان تكون يهوديا ) . ( ص ١٦٤ )

ولا شك أن جاباستر يعني بـ ( الانفراد ) ، الانفصال ، وهو هدف صهيوني أساسي . وفي مناشدة جائشة ، يعلن مباديء صهيونيته :

( تسألني ماذا أريد : جوابي هو ، وجودا قوميا لا نملكه . تسألني ماذا اريد : جوابي هو ، ارض الميعاد . تسألني ماذا اريد : جوابي هو ، القدس . تسألني ماذا أريد : جوابي هو ، المعبد ) . ( ص ١٦٢ )

وهكذا يمكننا أن ننسب لدزرائيلي كونه أول من سجل في التاريخ الحديث تطلعا صهيونيا . وهو أمر مقصور على القرن التاسع عشر ، وليس قديما كما يدعي دهاقنة الصهيونية .

---

١٩ - Hillel A. Fine, «Disraeli and Jewish Emancipation,» **Commentary**, Vol. 13, Feb. 1952, p. 187.

أما حنين فهو من يغري آلروي بغوايات عالم الاميين . وهو من يعلق على صهيونية اخيه على النحو التالي :

( يريد اخي التقي ان يقودك [ آلروي ] الى الثيوقراطية ، ويخشى اذا هو صلى في بغداد بدلا من صهيون ان يكون مجرد رأس لجماعة دينية بدلا من التنعم في عطاءات أمة كاملة . اما بالنسبة للنيزك [ وهو انذار غيبي لآلروي ] فلا بد أن شيريرا كان يعبر النهر في ذلك الحين ) . ( ص ١٦٦ )

قد يمكن القول ان جاباستر وحنين مجرد شخصيتين قصصيتين ، وليسا تعبيرا عن ازدواجية المؤلف . غير انهما في الحقيقة شخصيتان استثنائيتان بين رسوم دزرائيلي البشرية في كونهما مصقولتين ومؤثرتين وموضوعيتين . ان قصور دزرائيلي في بناء شخصيات مقنعة أمر متفق عليه بين نقاده وكتاب سيرته. فالسيد بليك يعتقد ان دزرائيلي يفتقر الى « المقدرة على خلق الشخصيات ، الدخول فيها وتقديم تطورها ، والقوة التي تمكنه من وضع نفسه في مشاهد وأوضاع غير مألوفة » ( ص ٢١٩ ) . أما السير آرثر كويلر ـ كاوتش فيكتب :

(١) كانت لديه أغمض الخواطر بالنسبة لتكوين الحبكة . من الاول للآخر لا يخرج عن دائرة فكرة وشريط من الاحداث . (٢) وبطله ، رغم التوصيات كلها ، مغفل ، على طول الخط ، وبطلته ( سيبل خاصة ) ليست لحما ودما ، ليس حتى تجسيدا لفكرة . ( ص ١٩٤ )

الاستثناء الوحيد يكون عندما يستعرض دزرائيلي ذاته عبر شخصياته . ان مناورات فيفيان السياسية ، وهي الجانب الوحيد المقنع من شخصيته ، تنبع مباشرة من عقل دزرائيلي السياسي . ومحنة قنطاريني وشعوره بالعزلة ـ وقد رسمها المؤلف بفعالية ـ هما محنة دزرائيلي وشعوره الشخصيان. وفي **آلروي** توجد ثلاث شخصيات مقنعة الى حد معقول : حنين بآرائه الثاقبة الواقعية ، وآلروي كمعبر عن صهيونية دزرائيلي ، وجاباستر بايمانه الثابت . والحقيقة هي ان كلا من هؤلاء الرجال يمثل جانبا من شخصية دزرائيلي . ومن الواضح ان آلروي هو الاكثر تمثيلا ، انه الورقة البيضاء في موقع القوة ، أما الاثنان الآخران فيمثلان الدوافع المصطرعة في ذات المؤلف بين الاندماج والانفصال ، والتي حاول المؤلف ان يوفق بينها عبر شخصية آلروي . لقد كان دزرائيلي واحدا من هؤلاء اليهود الذين واجههم عصر القوميات بضرورة الاختيار بين الاندماج و ( الانفراد ) . وهذه هي خطوة أبعد في تطور شخصية اليهودي الطيب . وهنا يتوقف دزرائيلي دون القيام بهذا الاختيار . اما حلمه الصهيوني الباكر ، المطروح في **آلروي** ، فعابر ، وكما يقول السيد بلومفيلد ، فانه

اذا كان حلم ببدء او قيادة حركة صهيونية ، فلم يكن ذلك لوقت طويل . لقد كان تيار تفكيره باجمعه منصبا في اتجاه آخر . وربما كان الامر مختلفا في هذه الايام . ( ص ١٦ )

يشير السيد بلومفيلد بهذا الى عامل هام في صنع صهيونية دزرائيلي : في اوائل القرن التاسع عشر ، لم يكن لحركة مثل هذه ان تلقى من تحبيذ اليهود الانكليز اكثر مما لقيه هرتزل نفسه عام ١٨٩٦ . كانت في حاجة الى ما خطه قنطاريني على جدار بيت آدم بيسو : ( الزمن ) .

## ٣

عاد دزرائيلي الى انكلتره « بحالة شهيرة ـ افضل فعلا من اي وقت مضى من حياتي ، ومليئا بالامل والشجاعة » . (٢٠) كان عازما على فتح لندن ـ بابل . ويمكننا تقدير جدية هذا العزم من مدى انغماسه في الغندورية ومن صلابة متابعته ترشيح نفسه لمجلس العموم :

استعان دزرائيلي بالغندورية ليجعل أجنبيته شرعية ، وهي يهوديته . لقد اتحدت غندوريته بيهوديته . وتلك كانت الصورة الشعبية عنه الى آخر حياته ، أو على الاقل حتى صار اللورد بيكونزفيلد ... انه يبقى ابدا اليهودي اللاعب ، مسرفا في اناقته ، ولسانه في وجنته ، عازفا لحنا كليبا . لا شيء يتعلق به كان حقيقيا ـ باستثناء يهوديته . (٢١)

على الصعيد السياسي ، يشير اخفاقه المتكرر اربع مرات في دخول البرلمان واصراره مع ذلك على الترشيح بين عامي ١٨٣٢ ـ ٣٦ ، الى حلم قنطاريني ـ آلروي والى نفور الناخبين الانكليز من انجاح نائب يهودي . ومرة أخرى ادرك دزرائيلي ان يهوديته هي السبب الحقيقي لفشله . وعندما نجح أخيرا عام ١٨٣٧ ، اضطر بسبب السخرية والتشنيعات الى وضع نهاية عجولة لخطابه البرلماني الاول . لكن الحديث انتهى بالعبارة الخالدة : « سوف يأتي وقت ... » لقد كانت معارضة الاموميين له شرسة للغاية لكنها لم تضطره هذه المرة الى النكوص كما فعلت في العقد السابق . لقد طور ضدها دفاعات صلبة . وفي عام ١٩٤٦ جاءه الوقت ، وأدرك ان « عليه ان يجازف بحياته السياسية ليدمر حياة [ روبرت ] بيل السياسية » (٢٢) ولعله كان نصر دزرائيلي الاعظم ، وفي مستوى فتح آلروي لبغداد .

بين عامي ١٨٣٢ ـ ١٨٤٧ بنى دزرائيلي وكمل نظرية في العروق يحتل فيها اليهود المركز الاعلى ، الامر الشائك هو : هل يهودية دزرائيلي رد فعل على الوعي المعادي بالآخرين ، كما يقول جان ـ بول سارتر ، أم انها مصدر العداء الاممي ، كما يقول السيد فيليب ريف ( ص ٢٢ ) . هنالك جانب من الحقيقة على كلا الجانبين . من المؤكد ان يهودية دزرائيلي كانت نافرة ، وبطريقة ما مغيظة . ومن المؤكد ايضا ان العداء الشعبي قد عزز فيه انتسابه لليهودية . وزاد الامر تعقيدا ان شخصية دزرائيلي الجامحة قد فسرت عن منطلق عرقي . واكثر من هذا ، يمكن القول ان نظريته العرقية قد صيغت كرد فعل على تهزئة الاموميين له ، عندما يتخلى آلروي عن يهوديته يهزمه أعداؤه ، اذ حتى عندما يكون مستعدا لنسيانها يرفضون أن يعاملوه الا على اساس انه يهودي . ويبدو ان دزرائيلي قد ادرك هذه الحقيقة ، لذلك بالغ في اظهار يهوديته حتى صارت « متعة ، انتقاما ، ينبوعا » . (٢٣)

لكن موقف دزرائيلي تجاه اليهود متضارب أساسا . انه يشعر بالعار لكونه

---

٢٠ ـ Quoted without reference by Philip Rief, «Disraeli: The Chosen of History,» **Commentary**, Vol. 12, Jan. 1952, p. 25.

٢١ ـ المصدر السابق ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

٢٢ ـ R. Blake, Disraeli, p. 183.

٢٣ ـ Ph. Rief, «Disraeli: The Chosen of History,» p. 26.

واحدا منهم ، وفي الوقت نفسه يفخر بمواهبهم الفذة . لقد ورث عن جدته كرهها لذاتها بسبب كونها يهودية عبر «النقص في احترام الذات» (٢٤) الذي اتصف به ابوه . وقد ورث عن ابيه الوضع الذي لا مكانة له والذي شبهه بوضع الورقة البيضاء بين العهدين . ففي بداية حياته فصل اسحاق دزرائيلي نفسه عن اليهودية ولكن لم يصر مسيحيا . ومن ناحية أخرى ، كان مستحيلا الا يلاحظ دزرائيلي المهانة التي تعرض لها اليهود وتقبلوها كأمر لا مفر منه . وكانت ثورته مدفوعة بهذه المهانة وبالفخر واحساس بالظلم وطموح لا يرتوي . وهذا هو موقف صهيوني صرف . فكما رأينا في الفصل الاول ، كان عامل كراهية الذات اساسيا في نشوء الصهيونية . والعامل الآخر هو الوعي بالذات في عصر القوميات . أما الاضطهاد ، الذي هو منبع العاملين معا ، فقد افرخ العقيدة الصهيونية التي تنبيء بها نظرية دزرائيلي العرقية . يكتب لزلي ستيفن عن تبجيل دزرائيلي لليهود بوصفه « يقينات ثابتة » :

كان لدى دزرائيلي بلا شك يقينات ثابتة تؤسس وتفسر تنوعه المسطح في تعاليمه ... انه يؤمن، بحميا مشرفة ، بالمواهب الفذة لعرقه . ( ص ١٠٢ )

كذلك يتحدث السيد بلومفيلد عن « قناعات » و « ايمان » :

لقد وقف وقفته على اساس قناعتين لم يتزحزح عنهما . وهما ايمانه بما اخطأ في تسميته بـ ( عرق ) ، وثقته المطلقة بانه ، هو بنجامين دزرائيلي قد خلق للاشياء العظيمة . (ص ٧)

ولكن تنبغي ملاحظة ان ايمانه المشرف هذا هو نتيجة للضرورة . بمعنى ان دزرائيلي قد صاغ نظريته العرقية كوسيلة دفاعية ضد غرمائه وليس بسبب تفكيره الحصيف . وعلى هذا تكون ملاحظة الاستاذ ديفيز صحيحة : « لقد وجدت نظرية دزرائيلي العرقية لانه شعر بالحاجة الى دعامة لثقته لم يكن له أن ينالها عن طريق التصرف كانكليزي حقيقي » . (٢٥)

ليست العرقية من اختراع دزرائيلي ، كما ان القومية ليست اكتشافا صهيونيا . ان كلمتي ( العرق ) و ( الدم ) أوروبيتان مئة بالمئة ، وهما كلمتان اثيرتان في أدب القرن التاسع عشر . انهما تعبران عن فكرة تميز قومي على أسس وراثية . وقد رأينا في الفصل الثاني ان ربيكا تصف الانكليز بانهم عرق شرس . ويلتقط دزرائيلي الفكرة فيستخدمها لتلائم ما يصفه فيفيان غري بانه مكونات النجاح والقوة : « ( لو كنت ابنا لمليونير أو لنبيل ، لملكت كل شيء . اللعنة على حظي ! ان حاجتي الى بضعة دريهمات، وملكية قليل من الدم الازعر ، ستلطخان مستقبلي ! ) » (ص ١٩) . ان اهتمام فيفيان بالدم انتفاعي محض . انه يصف بـ ( الازعر ) ما سيغدو في فلسفة دزرائيلي العنصر الحاسم في التمييز . ويشير هذا الى ان المؤلف ، في عشريناته ، كان يحتقر فكرة النقاء العرقي . غير ان حافز التعويض يجبره — كما اجبر الصهيونيين فيما بعد — على ان يقوم بهجوم مضاد على غرمائه ومعارضيه بادعائه تفوقا مبنيا على

---

٢٤ — المصدر السابق ، ص ٢٣ .

٢٥ — M. Bryn Davies, **The Novels of Benjamin Disraeli**, a lecture (Ghana : Ghana University Press, 1969), p. 7.

الادعاءات المتبجحة نفسها التي يطلقونها . وما دام الاوروبيون ينسبون لانفسهم تاريخا مجيدا يبتهجون دائما بربطه بتاريخ اليونان ، فبوسع اليهود ، تحت زعامة دزرائيلي، ان يتبجحوا بتاريخ عرقي متميز في تاريخ يهوذا واسرائيل المجيد . وهكذا يفخر دزرائيلي بكونه يهوديا ، ويعتبر الصفات اليهودية الرائعة صفاته هو . ومما لا شك فيه أن أحد اهدافه في كتابته للثلاثية الثانية هو ، في المآل ان يشرف نفسه امام جمهور نقاد عبر نظرية عرقية. ولكي يصل الى هذا المبتغى يعمد ، هو العاشق للاقاصي ، الى خلق « سر آسيوي عظيم » . معظم النقاد يميل الى الهزء من هذا السر العظيم . سبير مثلا يؤمن بان « له علاقة بسيدة بيثاني». (٢٦) ويعلن الدكتور تايلور ان «السبب في انه | دزرائيلي | لم يكشف السر هو أنه لم يكن ثمة شيء ليكشف » . (٢٧) وفي الحقيقة ليس هناك سر : انه بساطة العرق اليهودي وأمجاده .

يكرس دزرائيلي في ثلاثيته الثانية الصفحة تلو الصفحة ليقص تاريخ اليهود السفارديم ( الشرقيين ) ورمزهم المعاصر سيدونيا ، الذي هو فرنسي بالاسم وليس انكليزيا . ولكونه سفارديا ، لا يذكر دزرائيلي اي شيء عن اليهود الاشكينازيم ( الغربيين ) ويبدو ان اهتمامه مركز على هؤلاء اليهود الذي يسميهم « أرستقراطيو اليهود » . انه يركز في هذا السرد على الاضطهاد بصورة رئيسية ، وهو يعتقد انه ظاهرة أوروبية بحتة . أما السبب الذي يدفع الاوروبيين لاضطهاد اليهود فهو الغيرة :

لا بد ان احدى نتائج الحكم الالهي في هذا العالم ، الذي قرر ان الهدف المقدس يجب ان ينجز بواسطة عروق بشرية مختلفة ، هي سخط غيور على الوحي الذي انزل على عائلة خاصة . (٢٨)

وبسبب هذا السخط الغيور ، حاول الاوروبيون باستمرار ان يدمروا اليهود . ولكن عبثا . فهؤلاء يحميهم الله : « اهي معجزة أن يحمي يهوه شعبه ؟ » تسأل ايفا تانكريد ، وتضيف : « وهل يمكن ان يحميهم بافضل من ان يهبهم قدرات تفوق قدرات الامم الاخرى التي يعيشون بينها ؟ » (٢٩) وتؤمن ايفا ــ رواية **تانكريد** ــ ان هذه القدرات قد حمت اليهود من الامتزاج بغزاتهم وحفظت لهم يهوديتهم . أما المجموعات اليهودية المعاصرة فهي ، في زعمها « ( سلالات القبائل العشر والمسبيين قبل المسيح ) » ( ص ١٩٧ ) اما سيدونيا فيعتقد ان اليهود لا يمكن تدميرهم ، انهم حقيقة عضوية. انه يسأل كوننغزبي متهكما : « ( أتعتقد ان الاضطهاد الابله الذي يقوم به ممثل وجيه لجامعة انكليزية قادر على سحق هؤلاء الذين أعيوا على التوالي الفراعنة ونبوخذ نصر وروما والعصور الاقطاعية ؟) » ثم يجيب بنفسه عن هذا السؤال :

الحقيقة هي انك لا تستطيع ان تدمر عرقا نقيا من المنظمة القوقازية . انه حقيقة فيزيولوجية، قانون بسيط من قوانين الطبيعة أعيا ملوك مصر وآشور والاباطرة الرومان والمفتشين المسيحيين.

---

٢٦ – M. E. Speare. **The Political Novel : Its Development in England and in America** (New York : Oxford University Press, American Branch, 1924), p. 84.

٢٧ – P. Bloomfield, **Disraeli**, p. 29.

٢٨ – Disraeli's introduction to the 1879 edition of his works. Quoted by Walter Sichel, **Disraeli : A Study in Personality and Ideas** (London : Methuen and Co., 1904), p. 157.

٢٩ – B. Disraeli, **Tancred or the New Consade** (1847 ; rpt. London : Peter Davies, 1927), p. 198.

لا تستطيع اية قوانين للعقوبات ولا أي تعذيب جسدي ان يصل الى تذويب عرق متفوق في عرق دوني او تدميره . (٣٠)

ويمضي سيدونيا ــ دزرائيلي بعدئذ في تفسير الحضارة والتاريخ، ليس بنظرية التحدي والاستجابة كما يقول الاستاذ توينبي ، ولا بالعامل الاقتصادي كما يؤمن ماركس ، وانما بمزايا العروق . ايطاليا واسبانيا وفرنسا والمانيا أمم تتدهور لانها تتألف من مزيج من العروق . انكلتره فقط ــ اكراما لكوننغزبي وتانكريد ــ ليست هكذا ، لان القضية « ( قضية عرق ... كل شيء عرق ، وليس ثمة حقيقة أخرى ) » ( تانكريد ، ١٥٣ ) . والشخصية الفردية هي ، اذن ، تجسيد للعرق ، كماله ونموذجه الافضل .

وهكذا تغدو هرمية العروق عند دزرائيلي واضحة : العرب اليهود ، والعرب المسلمون ، والانكليز ــ على التوالي ــ في القمة ، وكل انسان آخر في الاسفل . وليس اليهود على القمة الاعلى فقط وانما هم

الآن ودائما مسؤولون عن كل ما هو عظيم وخير في التاريخ ، رغم محاولة من هم أدنى اذلالهم وتحطيمهم . واليهود ، عند سيدونيا ، متفوقون باكثر من قوة الذكاء . اليهود هم من حبتهم الطبيعة بالعبقرية كهبة الهية ... انهم الوسطاء بين الله والانسان ، الصلة الربانية التي تعطي للجنس البشري انسانيته ، شعب القبس في عالم تكون الثيوقراطية أفضل تنظيم له . (٣١)

ويبدو ان هرمية دزرائيلي تتفوق حتى على عرقية الصهيونية ، التي تدعو الى وحدة اليهود على انهم سليلو اسرة ابراهيم واسحاق دونما ادعاء معلن بتفوق عرقي . لكن دزرائيلي والصهيونيين يلتقون عند حد اقل ادعاء هو الايمان بان اليهود عرق صاف فعلا . ويقوم سيدونيا بشرح حضارة اليهود التي لا مثيل لها لكوننغزبي ، الذي يسأل : « ( ولكن ما دامت الطبيعة قد فضلت اليهود على هذا الشكل ، لماذا لم ينجب عرقكم شعراء عظاما ، خطباء عظاما، أو كتابا عظاما ؟ ) » ( ص ٢٦٦ ) ويجيب سيدونيا بانه لولا اليهود لما سمع احد بالفراعنة او ببابل ، ولما عرفنا كلمة الله . لقد ابتدع العرق اليهودي المعرفة لاجل جميع العروق ، والتشريع والشعر والخطابة ، وانتج اغاني داوود واعطى للعالم اشعيا وحزقيال ، لكي لا نذكر ارميا ونشيد الانشاد . وفي الحقيقة ان اكثر الشعراء شعبية في انكلتره لن يوجد بين « السادة ووردزورث او اللوردات بايرون ... حتى شكسبير ذو العقل الفني ، هل يمكن اعطاؤه الاكليل ؟ كلا ، ان اكثر الشعراء شعبية في انكلتره هو مغني اسرائيل العذب [ داوود ] » ( ص تانكريد ٢٧٤ ) . « ( لقد كان سيف الله وجدعون ) ما اكسب انكلتره حرياتها التي تتبجح بها » ( ٢٧٤ ) . وزيادة على ذلك ، من هو توما الاكويني بالنسبة لابن ميمون ، وأي شيء هي الفلسفة الحديثة سوى جداول تتدفق من الينبوع الرئيسي سبينوزا ؟ حتى حياة اللورد الانكليزي تنظمها « القوانين العربية » و « العادات السورية » (٢٧٣) . ان أعظم المشرعين ، موسى

---

٣٠ ــ B. Disraeli, **Conings by or the New Generation** (1844; rpt. London: Peter Davies, 1927), p. 198.

٣١ ــ Ph. Rief, «Disraeli: The Chosen of History,» p. 31.

الذي تطاع قوانينه حتى الان ، واعظم الملوك ، سليمان الذي ما زالت حكمته مضرب الامثال بين الامم ، واعظم المعلمين ، يسوع الذي صاغت عقائده اوروبا المتحضرة ـ هؤلاء كلهم يهود . « ( اي عرق ، منقرض او حي ، يستطيع انجاب مثل هؤلاء الثلاثة ! ) » (ص ٦٧٤) ويلخص السير لزلي ستيفن مقارنات دزرائيلي المتفرقة هنا وهناك بين العرقين السامي والآري على النحو الالمعي التالي :

ليس النقد الحديث سوى التمرد العقلي للعروق التيوتونية ضد الوحي السامي ... لكن هذا الاضطراب سيزول ، وسنكتشف ان ابراهيم وموسى قد عرفا عن الكون اكثر مما عرفهيجل وكونت . لقد كان انبياء العرق المقدس مزودين بمعرفة علوية مخفية عن السفهاء وراء رموز غيبية وطقوس ... في الحقيقة يمتلك الآريون لمسات من تلك القوة النسيبة ، لكنها تبلدت بفعل مزاج اكثر حسية . بوسعهم ان يدخلوا بلاط الاميين ، لكن كساءهم الاخلاقياكثر توحلا من أن يجيزهم الى داخل قدس الاقداس . وان هم قبسوا قبسة من الحقيقة ، فذلك ايام صباهم الالاق ، حيث لا تكون السياسيات الدنيوية قد افسدتهم ، وحيث يحثون واحدا مثل سيدونيا على ان يزيح النقاب ولو جزئيا . ( ص ١٠٥ ـ ١٠٦ )

وبنتيجة هذه المقارنة يعلن دزرائيلي ان اليهود هم سادة العالم قديما وحديثا . ومثالا على ذلك يذكر دزرائيلي ـ سيدونيا انه بالرغم من « كون اليهود ( توري ) » ( محافظين ) ، فان حزب التوري يخسر فجأة معركة انتخابية مهمة في مرحلة حرجة لان معارضته لمشروع يهودي في انكلتره جعلت « اليهود يتقدمون ويقترعون ضد » المرشح التوري ( كوننغزبي ٢٦٣ ) .

واكثر من ذلك ، يقول سيدونيا ، « اوروبا الموسيقية لنا » . ( ص ٢٦٧ ) الشركات الموسيقية والاوركسترات تزدحم بابناء اسرائيل . روسيني ، مايربير ، ومندلسون ( يعقوب لودفيغ ) ، أهم المؤلفين الموسيقيين في ذلك الوقت ، هم من العرق اليهودي . ان قديس جمهورية فينيسيا واحد من ابناء اسرائيل ، ووزيري المال في فرنسا واسبانيا يهوديان ، كذلك رئيس المجلس الفرنسي ، وسولت ، وماسينا ، والوزير البروسي ، ورئيس الوزراء المصري ـ كل هؤلاء يهود ، بغض النظر ايضا عن مئات الاسماء الاخرى في مراكز مختلفة هامة عبر اوروبا باجمعها . اما رسالة التوصية التي يرسلها سيدونيا ، والتي تشبه الرسائل التي ناقشناها في **آيفنهو وهارنفتون** ، « ( فسوف تفتح سوريا ) » لتانكريد ( ص ١٣٠ ) . ويعترف تانكريد لايفا مخجلا « ( ان الشيء الاثمن في اوروبا هو المال ) » ( ص ١٩٩ ) ، وان اغنى واجل انسان في بابل ـ كما تسمي لندن ـ « ( هو رجل من عرقك ودينك ) » (٢٠٠) واخوه هو الاغنى والاجل في باريس . وينتهي الحديث بين تانكريد وايفا بحملة متشددة من الفتاة : « ( نصف المسيحية يعبدون يهودية [ مريم ] والنصف الآخر يهوديا [ يسوع ] ) » ، ثم تضيف : « ( فمن تظن العرق المتفوق ، اذن ، العابد ام المعبود ؟ ) » (٢٠٢) .

ثمة نقطتان في مفاهيم دزرائيلي الما قبل ـ الصهيونية تستحقان مزيدا من البحث : العلاقة بين العرب واليهود ، وفلسطين . في تاريخه للسفارديم في اسبانيا يكون العرب « اخوة الهلال » بالنسبة لليهود ، الذين انقذوا العرب الموسويين ، ابناء

عمهم ، من طاغوت الحكم الاسباني . ويخبرنا انه خلال ما يقرب من ثماني مئة عام ، شارك اليهود العرب في بناء المدن وادارة الحياة المدنية . هذا التقرير يمثل تغيرا أساسيا في وجهات نظر كاتب **آلروي** ، ففي هذه الرواية ، يكون الجميع ، بما فيهم العرب محط معاملة سيئة ، اما الآن فالعرب واليهود ــ وخاصة في اسبانيا ــ اخوة وابناء عم ، وربما يعود هذا التغير الى قراءة دزرائيلي لابن ميمون وتاريخ اليهود مع العرب الذي يشير الى درجة عالية من الاندماج والسلام . ولعل دزرائيلي قد ادرك ان الاضطهاد لم يكن قط صفة لحياة اليهود بين العرب غير أن السيد بليك يعتقد بان دزرائيلي « كان ملتبسا بشكل غريب بالنسبة لعرقه » وان « تقمصه الشاذ » لليهود والعرب « يساعده على الابتهال للصحراء التي تبدو وكأنها سحرته » (ص ٢٠٤) . وليس هذا صحيحا تماما . والحقيقة هي ان دزرائيلي قد أخذ بالصحراء قبل طباعة آلروي بثلاث سنوات . وانه يؤمن فعلا ــ في **تانكريد** و **كوننغزبي** ــ ان الاسحاقيين والاسماعيليين ابناء عمومة . ان العقل الاوروبي ميال الى الظن بان العرب لا بد وان يعاملوا اليهود بالطريقة نفسها التي عاملهم بها الاوروبيون . وليس المقصود بهذه الملحوظة اضافة أي وزن الى ادعاءات دزرائيلي العرقية ، وانما التوكيد على ان العرب واليهود عاشوا دائما بسلام وتشابه ثقافي الى أن بدأ الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لفلسطين . ومن الممكن تبرير دزرائيلي ، الذي زار الشرق الادنى ، في اعتقاده بان الشعبين ( عرق ) واحد . غير ان ابناء اسماعيل هم بالتأكيد ادنى مرتبة من ابناء اسرائيل في هرمية دزرائيلي العرقية .

ومن ناحية اخرى يبدو ان جاذبية فلسطين قد تناقصت بشكل ملحوظ في الثلاثية الثانية . وان أفضل ما كتب دزرائيلي عنها هو وصف جغرافي :

> من بيت لحم الى الخليل ، ما تزال كنعان ارض العسل واللبن ، مع انها هنا ليست في غنى وزهاء الامتداد الفلسطيني الشاسع الى الشمال من المدينة المقدسة ، الجمال والوفرة في الارض الموعودة ما يزالان موجودين في السامرة والجليل . ( تانكريد ٢٢١ )

غير ان دزرائيلي ــ عبر تانكريد ــ مفتون بالقدس ( تاريخ الارض والسماء ) ، التي يفيض عليها حبا واعجابا . الا ان الارض المقدسة هي المكان الوحيد الذي ينبغي ان يقصده قائد من قادة ( انكلتره الفتاة ) الموهوبين الارستقراطيين ، قبل ان يحاول ايجاد التفسيرات للالغاز والتعقيدات التي تحفل بها حياة شعبه السياسية . ذلك ان الصلة الالهية ، كما يبدو ، هي بطبيعتها اقليمية وليست فقط عرقية :

> ( من تراه يصدق ان بلادا قدست مرة بالحضور الرباني يمكن ان تشبه البلدان الاخرى ؟... انني [ تانكريد ] ميال ، اذن ، لان اؤمن ان جزءا من الخطة الالهية يكمن في ان تأثير هذه الخطة يجب ان يكون اقليميا ) . ( ص ١٢٧ )

**تانكريد** ، مثل **آلروي** ومعظم روايات دزرائيلي ، مزيج من النباهة والميلودراما والجدية . وكالعادة ، فان جرس الرواية مفتوح باستمرار لعدة تفسيرات ، لكن غرضها واضح : تلقين القراء الانكليز دروسا في ( السر الآسيوي العظيم ) . وقد اختير تانكريد ــ آيفنهو لهذه الحملة الصليبية الجديدة ، ولكن المختلفة نوعيا ، كيما يكتشف هذا السر . فهذا المتحمس المتدين الشاب تواق لان يشيد حياته ، وحياة بلاده ، على عقيدة اساسية :

( انت هاجم باتجاه المباديء الاولية ) . قال الدوق باندهاش كبير .
( اعطني مباديء ثانوية ) ، قال ابنه ( اعطني اي مبدأ ) . ( ص ٥١ )

ليس فقط أن روح الدعابة ، المتضمنة في جواب تانكريد ، تجعل جدية الفرض امرا مشكوكا فيه ، وانما ان تانكريد ، وبالتالي دزرائيلي ، يتناول الحياة الانكليزية بالتجريح . ان الهجوة واضحة أيضا في المقطع التالي :

[ الدوق ] : ( انت عمود الدولة ، فادعم الدولة ) .
[ تانكريد ] : ( اه ! لو ان احدا يقول لي فقط ما هي الدولة)، قال اللورد مونتاكيوت متنهدا : ( يبدو لي ان اعمدتكم تبقى ، ولكنها لا تدعم شيئا ... انهم [ السياسيون ] لا يعترفون حتى بانهم يدعمون شيئا ، على العكس ، ان لب فلسفتهم هو الا يؤسس اي شيء ، وان تترك الاشياء جميعها لتؤسس نفسها ) . ( ص ٤٨ )

من غير الممكن أن يخطيء القاريء هذه الطعنة التي يوجهها دزرائيلي عبر بطله الى السياسيين الانكليز ، وينتقل النبيل الشاب بعدئذ من السخرية الى الاعلان الجاد عن عزمه على الرحيل الى الضريح المقدس ، حيث سيركع باتضاع ويسأل : « ( ما هو الواجب ، وما هو الايمان ؟ ماذا علي أن أفعل ، وبماذا علي أن أؤمن ؟ ) » ( ٥٦ ) وهكذا فان الجرس المدعي في هذه الاسئلة يزداد سوءا بالملحوظة التي يقدمها اللورد ميلفورد من أنه « ( ليس ثمة أي مجال للتحريض من اي نوع (٨٧) ) » ولا حتى « ( طائر صغير في البلاد كلها ) » ( ٨٨ ) .

وفي الارض المقدسة يعرض دزرائيلي كاهنه الاعلى الى مؤثرات عرقية وروحية هائلة تكشف له في المآل عن الكيفية التي يريد خالقه من الانكليز أن يفكروا بها ويتصرفوا ازاء اليهود . ان أحد هذه المؤثرات ، بالضرورة، ايفا بيسو ، ربيكا الجديدة ذات المحاجات المربكة ، وثانيها هو التأمل المستمر التقي ، ولكن العقيم ، امام الضريح المقدس ، حيث تجيء السلوى وليس الوحي ، ثالثها ، واكثرها اهمية، حجه الى جبل سيناء . ويتضح ان القدس أقل اهمية روحية من جبل موسى الاجرد ، حيث يعبر الصليبي الجديد الى الوحي بواسطة ملاك الجزيرة العربية الغامض . ان حديث ايفا مع تانكريد مليء بالهجوات للاوروبيين ، وبالدعاية لليهود . أما الملاك ، الذي يتكلم بلغة شكسبير ، فيذكر تانكريد بالمباديء العربية ذات القيم الروحية التي « يجب ان تحل محل مادية مدرسة مانشستر » ، (٣٢) ويوصيه بان « يعلن العقيدة المعزية للمساواة الثيوقراطية » (٣٠٠) . وهكذا يرسم تانكريد مع الامير فخر الدين الشهابي صليبية جديدة يؤكد بها الرجلان التفوق الروحي لآسيا ويفتحان اوروبا بجيوش من العروق العربية والسورية . سوف « يصعد [ تانكريد ] الى جبل الكرمل ويلفظ ثلاث كلمات فتأتي بالعرب ثانية الى غرناطة ، وربما الى ابعد من ذلك » (٣١٢) ، والرجلان سوف « يقيمان سعادة الانسان بالانتشار الالهي ، واذ يسحقان الالحاد السياسي الذي يوحش الآن الوجود ، سيمحقان طغيان الحكم الذاتي الزاحف » . ( بليك ٢٠٤ )

معظم النقاد يعلق باستنكار على النهاية المفتوحة المفاجئة لـ **تانكريد** . مرة

---

٣٢ – M. F. Modder, **The Jew in the Literature of England**, p. 203.

اخرى تحيطنا اشكالية دزرائيلي ، وجديته تتلطخ بروح دعابة مجانية وبسقطات متفرقة في الميلودراما . ويلخص السيد لفين الموضوع بطرحه الاسئلة التالية :

هل يشير هذا الغزو من قبل السواح الانكليز الى الدرب الطويل الذي يتعين على الارستقراطية الانكليزية ان تمضي عليه قبل ان يعدو المعنى الرمزي للسر الاسيوي العظيم واقعة ، ام ان دزرائيلي ـ الذي يندر ان يتخلى عن اللمحة النبيهة ـ يتلاعب بقرائه ويسليهم ؟ (٢٣)

ويبدو لي ان الجواب الاصح هو الابسط . فبعد ان لقن دزرائيلي كاهنه الاعلى بالمباديء الدزرائيلية ، وبعد أن لون بيت عرقه وشرف مكانه في التاريخ ، لم تعد ثمة حاجة لنهاية مبلورة للرواية . ان طلب تانكريد ليد ايفا هو طلب للزواج بين اليهودية والمسيحية مبني على أساس ان الدينين دين واحد باعتبارهما نابعين من عرق واحد ، وان الثاني يكمل الاول ، كما يؤمن دزرائيلي .

ما الذي دفع دزرائيلي الى هذا الايمان ؟

اولا ، كون المسيحية ، كبنية أخلاقية ولاهوتية ، مشتقة من عبقرية اليهود . وكما يشرح سيدونيا لتانكريد ، فان موسى ويسوع يهوديان ، وكانا يتكلمان العبرية . وهكذا يظهر شطط ، تفكير دزرائيلي، اذ ينجرف برغبته في تعميم الاصل اليهودي على كل شيء حتى ليزعم ان المسيح كان يتكلم العبرية ! وبعدئذ يمضي الى القول ان الانبياء والرسل ومؤسسي الكنيسة الآسيوية ، والقديس بطرس الذي « حولت كنيسته هذه الجزيرة الى ديانة موسى والمسيح » ( تانكريد ١٢٦ ) ـ كل هؤلاء مسيحيون . وبهجوة أخرى ، مريرة هذه المرة ، يتابع سيدونيا :

« اساقفتكم هنا لا يعرفون شيئا عن هذه الاشياء . وكيف يمكنهم ؟ قبل قليل من القرون كانوا موشومين وحوشا ... لقد اسس الكنيسة عبري ، والتأثير المغناطيسي يبقى ... تتطلب الشريعة تلمذة لمدة الف عام على الاقل ، اذا لم نقل شيئا عن المناخ والعرق » . ( تانكريد ١٢٩ )

هذا الوضع المحزن يفسر لنا لماذا يشعر تانكريد بان الكنيسة الانكليكانية ، رغم تكوينها القدسي ، لم تعد تؤدي واجبها كما ينبغي . فآراؤها مصطرعة وبياناتها متناقضة وسلوكها منافق . وعندما يؤكد تانكريد لايفا ان « الكنيسة ستكون رشدا لها » اذا ما اعتنقت المسيحية ، تسأله : « اي كنيسة ؟ فهناك كنائس متعددة في القدس » (١٩٥) وما هو اكثر من ذلك ـ ايفا تقول ـ لقد أنقذ البشرية «أمير يهودي» هو المسيح حاول شعبه أن يحقق الارادة الالهية « بحمل الرومان على صلب يسوع » (٢٠١) .

وثانيا ، فان دزرائيلي « لم يفهم كيف ان يهوديا لا يكون مسيحيا ، فذلك يعني التوقف في منتصف الطريق ونبذ مجد العرق الذي اعطى العالم الها » . (٢٤) انه يفكر في المسيح بكونه أميرا عبريا شابا ، وفي المسيحية كيهودية تكاملت ومنحت للعالم . وهكذا فهو « ينهي حقيقة ان ملايين من اليهود يستمرون في الايمان بنصف دينهم فقط » ( بليك ٥.٣ ) انه واجب اليهود المقدس ان ينشروا كلمة الله بين الاممين ، لان

٢٣ ـ Richard A. Levine, «Disraeli's **Tancred** and "The Great Asian Mystery",» **Nineteenth Century Fiction**, Vol. 22, No. 1, 1967, a footnote to p. 77.

٢٤ ـ André Maurois, **Disraeli : A Picture of the Victorian Age**, p. 48

الحكومة الربانية تعمل عبر العروق وقد منح الله كلمته للساميين القوقازيين ، أولا عبر موسى وثانيا عبر يسوع :

« كان قضاء الله ان يصوغ العقل العبري الملهم العالم ويحكمه . وعبر يسوع تكلم الله الى الاميين وليس الى قبائل اسرائيل فقط . وهذا هو الفرق الدنيوي الكبير بين يسوع واسلافه الملهمين . المسيحية هي اليهودية المعطاة للشعوب ، لكنها اليهودية » . ( تانكريد ٤٣٩ )

على اليهود اذن ان يعتنقوا المسيحية ، وعلى المسيحيين أن يعترفوا باليهود كأداة ربانية ويكفوا عن اضطهادهم . وستكون النتيجة أن يلتحم العهدان القديم والجديد ، بما فيهما الورقة البيضاء ، ويضعا حدا لوضع دزرائيلي القلق وثنائيته المؤلمة .

ان غرض دزرائيلي من كتابة ثلاثيته الثانية هو بالضبط الوصول الى هذه النهاية . وبمعنى آخر ، فهو يريد الوصول الى المركز الذي يطمح له بين الانكليز ، دون التخلي عن يهوديته . ان جهده هو أن يبرر نفسه امام جمهور معاد لا يتبين مزاياه العظيمة ، ولهجته ، اذ يتعرض لمواضيع كهذه ، جدلية ومبررة للذات . وتتراوح محاجته بين المناشدة والاغاظة ، لكنه في الاحوال جميعها يحاول ان يقنع المتفرجين بان دزرائيلي ، اليهودي ، يمكن أن يشتفي . وهو بلا جدال يشعر بالتفوق على السياسيين الانكليز ، وهذا الشعور واضح في تحليلاته للمؤسسات الانكليزية والحياة العامة وكذلك الشخصيات اليهودية . وفي الثلاثية هذه يكون ممثلو صهيون أهم بكثير من ممثلي انكلتره .

ان تمييع الفروق بين اليهودية والمسيحية أمر يلائم دزرائيلي حتما ، فهو ينشد اعترافا به كقائد سياسي في وقت يرفض حتى ضربه ان يعطيه الفرصة . وباثبات انه لا فرق كبيرا بين الدينيين ، ستزاح العقبات التي وضعتها يهوديته على طريقه نحو المجد . لقد كان دزرائيلي ، كما يوضح السيد لويس(٣٥) ، سيد الانتفاعيين . من المؤكد أن بوسعنا استنباط مباديء وعقائد من تعليقاته اللوذعية ، وحتى السيد جون هولووي يصنفه كواحد من حكماء العصر الفيكتوري(٣٦) . لكن حقيقة واحدة تبقى واضحة : ان الاهم من بين كتاباته كان رد فعل وتمردا ، وان الافكار والتحليلات الموجودة هناك تنبع من احساس بالافراد ، وهو احساس يهودي أوروبي ويمثل ظاهرة عامة في حياة الاوروبيين واليهود الاوروبيين . وقد عبر دزرائيلي عن هذا الافراد في صيغة كبرياء عرقية جامحة هي في القلب من العقيدة الصهيونية . فلدى نهاية القرب ستلتقط الصهيونية هذه الفكرة العرقية وتجعلها أساسا لدعوتها الى القومية اليهودية .

اما نقاشات دزرائيلي في الثلاثية الثانية فينقلها سيدونيا وايفا . الافراد والكبرياء ، العاملان النفسيان الاهم في ولادة الصهيونية ، يميزان حياة وشخصية سيدونيا . والمؤلف يقدمه لنا على نحو دراماتيكي : « لمع برق اضاء المنطقة ، فيما كان فارس يرمح بسرعة قصوى نحو الباب متبوعا بسائسه » ( كوننغزبي ١٢٠ ) ، انه يأتي

---

٣٥ – Clyde I. Lewis, «Theory and Expediency in the Policy of Disraeli,» **Victorian Studies**, Vol. V, March 1961, pp. 237-258.

٣٦ – John Holloway, **The Victorian Sage: Studies in Argument** (London: Archon Books, 1962), pp. 86-110.

وحيدا ، ليس معه الا السائس . وما عدا ذلك فدزرائيلي يضخم مزاياه وانجازاته الى درجة تبدو فيها غربته محصلة منطقية لتفوقه . ان سيدونيا الممتاز المعجز مخزي العبقرية البشرية . ولا يمكننا بحال ان نصفه بأبلغ مما وصفه المؤلف في **كوننغزبي** :

لقد امتص سيدونيا مصادر المعرفة البشرية كلها ، وكان سيد العلم في كل امة ، وبكل الالسنة الحية والميتة ، وبكل أدب غربي أو شرقي . لقد تابع تخمينات العلم الى آخر حد لها ، وقام بنفسه بتوضيح بعضها عبر الملاحظة والتجربة . ولقد عاش في مختلف طبقات المجتمع وتأمل في كل خلق طبيعي وفني ... (٢٢٨) .

كان سيدونيا رجلا لا تهزه التعاليات التقليدية الا كما تهز نثارة صفائح الجليد على الالب . وكان فهمه للعالم وللطبيعة البشرية بالغ السعة والكمال . ( ٢٣٥ )

لقد امتلك تلك الخاصية النادرة في التعبير بدقة عن افكار هي الاشد غوصا ، وقدرة عامة على التعبير تأسر الاهتمام وترضيه . ( ٢٢٨ – ٢٩ )

كان رب وسيد سوق المال في العالم ، وبالطبع رب وسيد كل شيء آخر في المآل . ( ٢٢٥ )

على اننا يمكن بفهم معين ان نجعل من سيدونيا شخصية اقل اسطورية واكثر واقعية ، وذلك اذا اعتبرناه تجسيدا لتصور المؤلف المفخم لليهود . فبثروته التي لا تحصى يمثل اغنياء اليهود ، وخاصة آل روتشيلد في انكلترا وفرنسا والمانيا . أما عبقريته فهي خلاصة عبقريات اليهود الدارسين والعلماء والفلاسفة والموسيقيين والنفسانيين وعلماء الاجتماع والجنرالات ، وبالطبع السياسيين والمولين . وهو أيضا دزرائيلي نفسه في شخصيته ومعرفته . وهو يكشف عن فخر المؤلف نفسه بـ « القبائل العربية » ، التي يصنفها الاولى بين الانواع الخمسة الرئيسية للملامح البشرية . وهو أيضا يؤمن بان دم العرب الموسويين والمحمديين – المسيحيون غير مذكورين – نقي نقاء « أبناء الشيخ ابراهيم » وان « العرب الموسويين هم ذوو الدم الاقدم ، ان لم يكن الوحيد ، الذي يوجد في المدن » ( كوننغزبي ٢٣٢ ) . وهكذا فهو لن يتزوج مسيحية لان زواجا كهذا سيؤدي الى اختلاط دم أولاده .

لكن « الفعل ليس لي » ( كوننغزبي ١٢٨ ) . انه أوروبي بالطبع ، لكنه لا ينتمي الى اية امة أوروبية . انه في كل مكان ولا مكان . حوله تتركز روايتا **كوننغزبي** و**تانكريد** ، لكنه متفرج ، بدون بلاد ، بدون هوية ، وبدون حكومة . وتجبره طبيعة الحياة الانكليزية ، كما فعلت بدزرائيلي ، على ان يلجأ الى السخريات المراوغة والعبارات المفخمة . انه أعمق جذورا في انكلتره من ربيكا ، ومع ذلك فهو أجنبي . انه ليس صليبيا – بعد ، لكنه واثق من مستقبل عرقه . وبظهور الصهيونية تزاح صعوبة انعدام الفعل . واما في المجالات الاخرى ، فله صفات الصهيوني كلها . واذا لم يكن صهيونيا كاملا فهو نذير بصهيوني ، وفي عقيدته العرقية فوق – صهيوني . ان شحنة الحياة الاوروبية تسمح له بالاطلاع على حياة اليهود الاوروبيين وانقاذ عبقرياتهم من الضياع. انه ايضا يبدو ضائعا بين اليهود أنفسهم الذين « فضلوا التنعم بما لديهم وكانوا آخر من حاول استغلال اصولهم السلالية (٢٧) . ان سيدونيا مختلف عن يهود القرن التاسع عشر المندمجين من أمثال مونتفيرو ، ومشكلته ليست في اكتساب هوية قومية وانما في اختيار هذه القومية . لقد صنع السادة مونتفيرو اختياراتهم وقبلوا قومياتهم

٢٧ – M. E. Speare, **The Political Novel**, p. 91.

الجديدة . لكن هذا لا ينطبق على اقلية من اليهود . فبعضهم ، مثل بنجامين دزرائيلي ، يشعر بالغربة أو أنهم مضطهدون . والاضطهاد امر اكثر من عضوي احيانا : « كل شيء يهودي بالتحديد هو من درجة دنيئة» (٣٨) . تقول جورج اليوت في عام ١٨٤٨ .

أما اهمية ايفا بيسو فترجع الى كونها تتقدم بمحاجات دزرائيلي الهجائية ضد الاضطهاد المسيحي لليهود . أما كصنيعة قصصية فهي ربيكا اكثر تفذلكا . وتمتلك الانثيان الصفات نفسها تقريبا : شجاعة روحية ، اخلاص للدين ، فخر بالشعب ، فصاحة ، جودة في الجدال ، وفوق هذا كله : الجمال . لكن صفات ايفا افضل بقليل من صفات ربيكا . انها حورية خرجت للتو من **ألف ليلة وليلة** بمحاجات مفحمة واسئلة مذهلة وعواطف رقيقة وميل للاغماء . وهي تختلف عن ربيكا في أنها اقدر على ادانة المسيحيين واجلال اليهود . انها الناطقة باسم دزرائيلي ، ليس لشؤون السلام والمحبة التي تدعو لها ربيكا سكوت ، وانما لاظهار تفوق اليهود المطلق وبربرية الاممين الذين يضطهدونهم . ومثل سيدونيا ، هي « ترمز لعبقرية اليهود » (٣٩) . وزيادة على ذلك ، فان آيفنهو دزرائيلي هو الذي يعترف بحبه لايفا ، أما هي فتعالجه باعشابها البرية من مرض خطـر .

## ٤

يتبع اهتمام دزرائيلي باليهود ، في ما تلى من مؤلفاته ، الخط نفسه الذي اتبعه في ثلاثيته الثانية . في كتابه **حياة جورج بنتنك** ( ١٨٥١ ) يعيد توكيد عقيدته العرقية الدينية في فصل يبدو مقحما على الكتاب ككل . امـا في **لوثير** (١٨٧٠) و **انديميون** (١٨٨١) فيبدو انه اكثر اهتماما بالقضايا الاوروبية ، وخاصة (الحركات التخريبية) ، منه بالقضايا اليهودية . وقبيل وفاته سئل عما حل بفيفيان غري فكان جوابه عميق الدلالة : « لا داعي للسؤال ، فمن المظنون انه قد بقي » (٤٠) . وقـد رفض قـراءة **دانييل ديروندا** على أساس انه من الافضل كتابة رواية بدلا من قراءة اخرى .

وعلى أية حال فان يهودية دزرائيلي ومواقفه اليهودية منذ ١٨٤٤ لم تتغير . **تانكريد** وليس **آلروي** كان روايته المفضلة التي كان يقرؤها باستمرار . اما اهتمام هذا البحث فيتركز على الفترة التي كان فيها آلروي معبرا عن شخصية مبدعة . والغرض من فحص ثلاثيته الثانية كان متابعة صهيونيته في انحلالها الى شمولية يهودية قوية واستخلاص صورة عن ما قبل الصهيوني . فصهيونية دزرائيلي اذن تبلغ قمتها بطباعة **آلروي** عام ١٨٣٣ ثم تحول الى موقف اقرب الى الصهيونية ولكنـه ليس صهيونيا . وكانت انكليزيته منفصلة باستمرار عن كلا يهوديته وصهيونيته . لقد رفض الاندماج والافراد ، أو تعين عليه أن يفعل ذلك ، لكنه لم ينف نفسه خارج انكلتره ، التي احبها بعمق . وعلى الارجح ، فقد أبقى في ذاته ، أو تعين عليه ان يبقي ، ثنائيته الى آخر

---

٣٨ – J. W. Cross (ed.), **George Eliot's Life as Related in Her Letters and Journals** (Edinburgh & London : W. Blackwood and Sons, N.D.), p. 94.

٣٩ – M. E. Speare, **The Political Novel**, p. 84.

٤٠ – Quoted by Bronson Feldman, «The Imperial Dreams of Disraeli,» **The Psychoanalytic Review**, Vol. 53, No. 4, Winter 1966-67, p. 141.

عمره . وليس بعيدا عن الصحة ما استنتجته جورج اليوت عن عقدة الضعة في نفسيته. ويشير سبير الى اعـادة تحول ديني جعلته يرمي بحذره الى الريح . الشعور بالعظمة والشعور بالضعة ، هما التوتران الرئيسيان في رد فعله علـى اضطهاد الاموميين له . سيدونيا ـ الذي هو آلروي بعد عشر سنوات ـ يتفوه بأبلغ تعبير عـن صهيونيته في الثلاثية الثانية :

« لم يعد صعبا الوصول الى القدس ، الصعوبة الحقيقية هي التي عاناها الصليبيون، ماذا تفعل بعد وصولك هناك » . ( **تانكريد** ١٢٥ )

انه لمن غير المعقول ان نصف بالصهيوني يهوديا لا يعرف ماذا يفعل فـي القدس بعد وصوله اليها . ليس لدى سيدونيا اية خطط لاستعمار فلسطين . فـي **آلروي** ، تقود الصهيونية الى حرب متشنجة . بالطبع كان على الصهيونيين أن يشنوا حربا ، ولكن قبل ذلك امضوا خمسين عاما وهم يعدون لها . ولم يكن لدى دزرائيلي اي شيء حول هذا الموضوع . لكن اهمية حياته تكمن في انها تخبرنا عن الكيفية التـي يتحول فيها يهودي الى صهيوني .

# الفصل الرابع

## الصهيوني : مكتشفا للذات والامة

### ١

في عام ١٨٤٨ كتبت جورج اليوت رسالة الى صديقة لها فعلقت على عرقية دزرائيلي كما يلي :

اما العروق الاخرى [ عدا الزنوج ] فيبدو ببساطة ان انقراضها محتوم ، ولست استثني حتى القوقازيين العبريين . ان اخوة العرق ، التي ينسب دزرائيلي اليها سخاء سيدونيا ، هي بوضوح شعور بالضعة ، وسوف تتجاوزها الانسانية في المآل حتى انني لاتعجب من انه ، وهو اليهودي ، يجرؤ على التبجح بها . ان طبيعتي الاممية لتضرب بحزم عات ضد اي افتراض بالتفوق لدى اليهود ... انني اغني لتفوق الشعر العبري ، لكن الكثير من اساطيرهم الاولى وتقريبا كل تاريخهم يقزز النفس تماما . لقد أنجب جنسهم موسى وعيسى ، لكن موسى كان مشبعا بالفلسفة المصرية ، واما عيسى ... فقد تجاوز او ناهض اليهودية . اما تفخيم فكرتهم عن رب قومي الى توحيد روحي فيبدو مستعارا من القبائل الشرقية . كل شيء يهودي على وجه الخصوص لهو من درجة وضيعة . (١)

بعد هذا النقد الحاد لدزرائيلي واليهود بدأت جورج اليوت عام ١٨٧٤ كتابة **دانييل ديروندا** ، وهي اول رواية صهيونية ، ولو جزئيا ، في تاريخ القصص الانكليزي . ان امكانية وجود انبياء وقادة بين اليهود ، على غرار العهد القديم ، تبدو واضحة فيها ، وكذلك تظهر الشخصية اليهودية والتراث اليهودي في أعلى مجدهما وشاعريتهما . كما أن هدف انشاء جمهورية يهودية بحتة مرسوم ليس فقط كامكانية وانما كواجب .

باستثناء اعجاب جورج اليوت بـ ( لسنغ ) و **ناتان الحكيم** ، ليس ثمة ، لسوء الحظ ، الا القليل في كتاباتها ورسائلها ليشير الى هذا التغير الجذري في موقفها تجاه اليهود . ولعل أهم ما يذكر هنا اقتباس سيفاردو في **الفجرية الاسبانية** من يهودا بن هاليفي :

... اسرائيل
بين الامم بمثابة القلب من الجسد :
هكذا يكتب شاعرنا يهودا . (٢)

---

١ – J. W. Cross (ed.), **George Eliot's Life**, pp. 94-95.

٢ – George Eliot, **The Spanish Gypsy**, Standard Edition (Edinburgh and London : William Blackwood and Sons, 1868), pp. 209-10.

في هذه الكلمات ابتعاد واضح عما كانت جورج اليوت تؤمن به عام ١٨٤٨ . ويخبرنا لزلي ستيفن أن غرض المؤلفة الاولي من كتابة **الفجرية الاسبانية** كان تقديم مأساة تحدث اما للمغاربة أو لليهود ، لكنها اختارت اخيرا الفجر لان « حقائق تاريخهم [ اليهود أو المغاربة ] كانت معارضة بشكل مفضوح لصياغة فاجعتي » (٣) . كما اننا نجد في **ميدلارتش** شخصية ويل لاديسلو الذي يثير امر سلالته نصف اليهودية نفور السكان .

انني أميل الى الاعتقاد بان تعاطف جورج اليوت مع اليهود يعود الىوقت كتابتها لـ **الفجرية الاسبانية** ، في كتابه : جورج اليوت : سيرة يؤمن الاستاذ هيث بان « اهتمامها النشيط بفكرة القومية اليهودية قد انبثق مباشرة من صداقتها لعمانيويل دويتش » (٤) . الذي تعرفت اليه بعيد نشر **ميدلارتش** ، وان موردخاي قد استلهم منه . واقترح هنا أن هذا « الاهتمام النشيط بفكرة القومية اليهودية » قد بعثه . وليس خلقه ، تعرفها بذلك اليهودي الغريب الاطوار .

وعلى اية حال ، يبدو أن جورج اليوت قد تخلت في **دانييل ديروندا** عنافكارها السابقة جميعها ، فيما يتعلق باليهود . أما كونها معجبة بـ ربيكا السير والتر سكوت فواضح في تكرار ذكر الفتاة والمؤلف مرتين في الرواية (٥) ، ولا يسعنا هنا الا الاشارة العابرة الى التضاد الغريب في الناحية الدينية بين ادعاء اليهودية من قبل برينيس مونتنيرو في **هارنغتون** وبين ادعاء دانييل ديروندا للمسيحية . غير أن الامر الابينهو اشتراك جورج اليوت ودزرائيلي في اكثر من وجهة نظر . فنحن من جانب الصواب اذا ربطنا بين استهداف موردخاي خلق كيان يهودي وتكريس ديروندا نفسه لهذا الهدف وبين حلم آلروي الصهيوني نصف المتحقق . وزيادة على ذلك فان عبارة موردخاي التالية تشبه افكار دزرائيلي تماما : « منذ عهد الاسكندرية وما بعده ، كانت اكثر العقول تكاملا هي العقول اليهودية » ( ج ٣ ، ص ١٤٨ ) . والمؤلفة تؤمن بان الدين اليهودي « قد تغلغل في تفكير نصف العالم وقولب الصيغ الرائعة لدين هذا العالم » ( ج ٢ ، ص ١٣٧ ) . ويقول ديروندا ، وهو ما يزال يظن نفسه مسيحيا : « ان ديننا دين عبري أساسا » ( ج ٢ ، ص ١٤٨ ) . كذلك فالمؤلفة تجعل هانز ميريك يكرر « خاطرة موردخاي عن أن مسيحيا كاملا يعادل ثلاثة أرباع يهودي » ( ج ٣ ، ص ١٤٨ ) .

في رسالة الى مؤلفة **كوخ العم توم** ، تكشف جورج اليوت عن حافزها المباشر في كتابة « الجزء اليهودي في (ديروندا) » كما يلي :

ولكن لاني بالضبط اشعر بان الموقف العادي للمسيحيين تجاه اليهود هو ـ لاكاد اعجز عن القول الا انه اكثر عقوقا او اكثر بلاهة عندما نحكم عليه في ضوء مبادئهم المعلنة ، ولذلك فقد حثني

---

٣ – Quoted by Leslie Stephen, **George Eliot,** English Men of Letters (1902; rpt. London: Macmillan and Co. Ltd., 1907), p. 160.

٤ – Gordon S. Haight, **George Eliot: A Biography** (1968; rpt. Oxford: Oxford University Press, 1969), p. 469.

٥ – George Eliot, **Daniel Deronda,** Standard Edition (Edinburgh and London: W. Blackwood and Sons, 1876), Vol. I, ch. XVII, p. 291 and Vol. II, ch. XXXII, p. 127.

شعور بان علي ان اعامل اليهود بكل التعاطف والفهم اللذين تسمح بهما طبيعتي ومعرفتي . وزيادة على ذلك ، ليس فقط تجاه اليهود وانما تجاه الشعوب الشرقية جميعها التي تعاملنا معها نحن الانكليز ، فان ثمة روحا من الفجة والدكتاتورية الازدرية ... ليس ثمة شيء احرص على القيام به ، ان استطيع ، من ان استحث خيال الرجال والنساء وأرفعه الى رؤيا للمطالب الانسانية في تلك العروق التي تختلف عنا في العادات والعقائد اختلافا كبيرا . غير اننا ، نحن الذين نشأنا في المسيحية ، مدينون لليهود بشكل خاص ، وسواء اعترفنا بذلك أم لا فرابطة الزمالة الكاملة والفريدة بيننا وبينهم هي رابطة دينية واخلاقية عاطفية... انهم [ المسيحيين ] لا يعرفون ان المسيح كان يهوديا . ( **جورج اليوت : سيرة** ، ص ٤٨٧ )

واضح من هذه الرسالة ان آراء المؤلفة عام ١٨٤٨ قد انعكست تماما في ١٨٧٦ . وتذكر الجملتان الاخيرتان بعقيدة دزرائيلي العرقية . وفي الحقيقة ان عرض المؤلفة لفكرة القومية اليهودية في **دانييل ديروندا** يكشف عن استيعاب أكبر بكثير مما أظهره دزرائيلي في عدد من كتبه . فلا عجب اذن أن يجد الصهيونيون الروس الرواية ملهمة وأن يحيلوها الى انجيل صهيوني :

بعد اربع سنوات من ظهور الكتاب ظهرت في روسيا مدرسة جديدة من المنظرين ، وهم رجال بدأوا حياتهم بتعليم اشقائهم في الدين مبادىء الاندماج ، ثم رأوا انفسهم عام ١٨٨٠ غارقين في رعب الاضطهاد والمذابح فصارت فكرة الوطن القومي بالنسبة لهم طريق الخلاص الانساني . هؤلاء جعلوا ( دانييل ديروندا ) كتابهم ، ترجموه الى العبرية ، وارفقوه بآرائهم عن اعادة استعمار فلسطين . وقد طبعت هذه الكتب عدة مرات والتهمها جمهور المفكرين اليهود بنهم . (٦)

والحال ان مفهوم جورج اليوت من الصهيونية لم يفهم جيدا من قبل عدد من النقاد الذين ناقشوا القيمة الاجتماعية والادبية لـ **دانييل ديروندا** بطريقة قصرت عن ربط موضوعة الصهيونية بفلسفة جورج اليوت عن الانسان والطبيعة . لقد أسرع اليهود الى مدح الرواية وعبروا عن امتنانهم للمؤلفة . وأرسل كثيرون من الجماعة اليهودية الانكليزية رسائل يشكرونها فيها لاخلاصها ومدرسيتها في مناقشة « (بعض المزايا الافضل في الشخصية اليهودية ) » ( **جورج اليوت : سيرة** ، ص ٤٨٦ ) . وقد تطرف بعضهم في موقفه : فبعد فيض من المديح لكلا اليهود والمؤلفة يعلن دافيد كاوفمان ان « اليهود ــ مجهولو البشرية العظماء ــ » متفوقون على الشعوب جميعها : « فالشخصيات [ اليهودية ] تبدو وكأنها تتحدث بصوتها وتصرخ : قارنوا وجاهتكم المسطحة ومسراتكم السخيفة وتسلياتكم العقيمة الفقيرة وعواطفكم الناخرة ورذائلكم الممتصة ، بالقناعة العميقة والفرح الرضي والنقاء الاخلاقي للحياة اليهودية العليا ، وقولوا ما اذا كان اليهود بعدئذ اكثر مدعاة للازدراء منكم » (٧) . ثم يمضي الى القول:

( دانييل ديروندا ) كتاب يهودي ليس فقط بمعنى انه يتعامل مع اليهود ، ولكن ايضا بمعنى انه مناسب بشكل مسبق لان يفهم ويتذوق من قبل اليهود . وحقا فانهم وحدهم المؤهلون لان يعانقوا ويستمتعوا بدلالته التامة . ( ص ٩٠ ) (٨)

---

٦ – Solomon Hurwitz, «George Eliot's Jewish Character,» **Jewish Forum,** Vol. V, 1922, p. 369; quoted in footnote by E. Rosenberg, **From Shylock to Svengali,** pp. 365-66.

٧ – David Kaufmann, **George Eliot and Judaism,** trans. from German by J. W. Ferrier (Edinburgh and London: W. Blackwood and Sons, 1878), p. 54.

ان استحسان اليهود وتقدير كاوفمان التهجمي للرواية لم يلتقطا رؤية المؤلفة لمستقبل اليهود . وكذلك يظهر استقبال الفيكتوريين لها نقصا مماثلا في الفهم، ولكن في اتجاه معاكس . فهم لم يكونوا مستعدين لتقبل هذا المقدار الهائل من التعاطف مع اليهود . « من يستطيع ان يؤمن بغلوائي اخلاقي مثل ديروندا ؟ » سألوا ، و « موردیخاي ظل » . وتضيف The Tablet : « تقترف المؤلفة غلطا ادبيا عندما تجعل ديروندا يهجر لدى علمه بأصله اليهودي كل ما تحيكه التربية الانكليزية الحديثة من مباديء المسيحية ونتائج المسيحية في حياة جنتلمن انكليزي » (٨) . ومع ان هذا النقد معقول من وجهة نظر أدبية فهو يشير الى اتجاه نحومقارنة الشخصياتاليهودية بالانكليزية . وفي الحقيقة ، تميل جمهرة من النقاد الى التعبير عن السخط على الحيف الذي عاملت به جورج اليوت شخصياتها الانكليزية . وتعرض السيدة هاردي باحكام هذا الموقف باعتباره نابعا عن تحيز معاد للانكليز . ففي مقدمتها لطبعة بنغوين للرواية تكتب :

فالانكليز هم بدرجات متفاوتة موضوع للهجاء ، والاوروبيون ، وخاصة اليهود ، بدرجات متفاوتة ايضا ، موضوع للمديح ، ثمة استثناءات على كلا الجانبين ، لكن التحيز لا يمكن ان تخطئه العين . انه لمصلحة اليهود والجماعة اليهودية مهما كان ذلك متوزعا وجزئيا ... وعندما تظهر جورج اليوت صورة مستحبة لحياة عائلية انكليزية ، مثلا ، في المشاهد البالغة الراحة لوقت آل ميريك ، فمن الجدير بالملاحظة ان اسرة ميريك هي نصف فرنسية . ( ص ١٧ )

وقد اظهرت السيدة هاردي استيعابا مماثلا ولكن أقل حدة في كتابها الممتاز : **روايات جورج اليوت** ، اذ تكتب : « ان النقيضة العرقية تشكل الرواية ، ولكن ثمة في نموذجها ما هو أكثر من النقيضة » (٩) . غير انها في مقدمتها تعتبر ان هذا المنطلق في معالجة **دانييل ديروندا** غير حكيم ، وتدعو الى دراسة الرواية في حبكتهاوحوارها ورسمها للشخصيات وتطويرها للحدث والنفسية .

ويعتقد الدكتور ليفس انه ينبغي تقسيم **دانييل ديروندا** الى روايتين منفصلتين نضع لهما العنوانين التاليين : **دانييل ديروندا** و **غويندولين هارلث** ، الاولى « رديئة على نحو مدهش » وللثانية « قوة وتميز يتباينان بشكل مدهش » (١٠) مع ردائة الاولى . وفكرة التقسيم هذه ، التي أعاد طرحها في مقدمته لطبعة يانثر للكتاب عام ١٩٧٠ ، قد لاقت معارضا واحدا على الاقل ، هو الاديب والمحاضر الاسرائيلي هارولد فيش الذي يحتج في مقال بعنوان « دانييل ديروندا أم غويندولين هارلث ؟ » على دراسة الرواية من منطلق انكليزي بحت، ويتذمر من سلسلة من «النقاد التقسيميين» الذين حكموا بالاجماع على القسم اليهودي من الرواية بالفشل لمجرد انه « لا ينبثق

٨ – Barbara Hardy, «Introduction» to **Daniel Deronda,** Penguin edition, (1967), p. 14.

٩ – Barbara Hardy, **The Novels of George Eliot : A Study in Form** (1959 ; rpt. University of London : The Athlone Press, 1963), p. 112.

١٠ – F. R. Leavis, **The Great Tradition** (1948, rpt. London : Chatto & Windus, 1955), p. 82.

عن التربة الاخلاقية والاجتماعية للحياة الفيكتورية العليا » (١١) . والفكرة الرئيسية في مقال السيد فيش ، كما يوحي بذلك العنوان ، هي انه بالنسبة لـ

غرض جورج اليوت كروائية تحتفل بالتغيرات التاريخية الكبرى على نحو ملحمي رومانتيكي ... فاننا يمكن ان نسأل حقا : لماذا اقحمت قضية غويندولين على الاطلاق ؟ لماذا لا نقصر انفسنا على الموضوعة الاكبر ؟... اذا كنا سنعلن دانييل البطل الحقيقي ( وليس الاسمي فقط ) ، فعلينا اذن ... ان نسأل : ماذا تفعل غويندولين في الرواية ولماذا تحتل هي وعالمها كل هذه الفسحة وهذا الاهتمام ؟ ( ص ٣٥٢ ــ ٥٣ )

واذا كان ثمة اي فشل في **دانييل ديروندا** ، كما يعلن السيد فيش ، فهو يعود اذن الى أن « جسامة المهمة قد قهرتها [ المؤلفة ] » ( ص ٣٥٦ ) .

## ٢

المقصود من هذه المراجعة السريعة للنقد الذي حظيت به **دانييل ديروندا** اظهار بعد هذا النقد عن ان يستوعب علاقة موضوعتي الصهيونية وخلاص غويندولين الاخلاقي بعضهما ببعض ، وعن أن يفسرهما بحسب رؤية جورج اليوت للحياة . ان ما يبدو غريبا عن قصد المؤلفة هو بالضبط هذه الفكرة السائدة عن شخصيات يهودية ممتازة تواجه شخصيات انكليزية رديئة. وهي فكرة لا تجد ما يدعمها في الرواية . غراندكورت مثلا ، الرجل المتصف بقسوة بالغة ، ليس افضل ولا اردأ من لابيدوث الذي انحط الى مستوى قواد لابنته . اما الاميرة هالم ــ ابرستاين الملعونة الى الابد فبعيدة اشد البعد عن انبعاث غويندولين الخلاق بعد أن تجاوزت خطيئتها المتمثلة في الابتعاد عن روح « اختها العريقة » . ديروندا نفسه نصف انكليزي بالنشأة ونصف يهودي بالولادة . واذا طرحنا جانبا الرؤى القومية لورديخاي التي لا علاقة لها بالحياة الانكليزية ، فانه يفتقر الى اية مزايا متفوقة . كذلك فان فضيلة ميرا ، وهي فضيلة خاصة بها فقط ، لا ترقى الى سوية كرم الضيافة الذي يتمتع به آل ميريك .

ولكن ، كما تشير السيدة هاردي ، لا يمكن لتناول نقدي أن ينطلق من فصحنة عرقية . ولعله من المناسب هنا ان نشدد على ايمان جورج اليوت الانساني بالعرقية ، وهو ايمان مختلف بالتأكيد عما يعتقد به دزرائيلي بل ويشجبه . فجورج اليوت تؤمن بأن اليهود عرق ، ولكن كبقية العروق ، مختلف ولكن ليس أسمى ولا أدنى . كذلك فليس اليهود جميعا دنيئين ، كما يعتقد الاموريون ، فان في تراثهم وشعرهم ومعاناتهم ما يستوجب الاحترام . وهكذا فليس ثمة اي معنى في عقد المقارنات والمباينات ، كما هو واضح في الحوار التالي الذي يجري بين ميرا وديروندا :

« نعم ، سأقول لك . لقد ولدت انكليزية ، لكنني يهودية » ...

« هل تحتقرني لذلك ؟ » قالت للتو بجرس خفيض فيه حزن ثاقب كصرخة مخلوق اعجم صغير يرتعش خوفا .

« لماذا احتقرك ؟ » قال ديروندا . « لست على هذه الدرجة من الحماقة » .

« اعرف ان كثيرا من اليهود اشرار » .

---

١١ ــ Harold Fisch, «Daniel Deronda or Gwendolen Harleth ?» **Nineteenth Century Fiction**, Vol. 19, No. 4, 1965, p. 347.

« وكذلك كثير مـــن المسيحيين . لكني لـــن اقول انك عادلة اذا احتقرتني بسبب ذلك » .
( ج ١ ، ص ٢٨٩ )

وليس من الحكمة ايضا تقسيم الرواية الى اثنتين ، سواء أكان التقسيم لمصلحة ديروندا أم لمصلحة غويندولين . عندما تحتج المؤلفة على قطع « الكتاب الـى مزق » وتؤكد: « لقد قصدت أن يكون كل شيء في الكتاب مرتبطا بكل شيء آخر هناك» (١٢) ، فينبغي ان نتمعن في احتجابها ونفحص الرواية بناء عليـه . فالعلاقات بـين اليهود والامميين تتفسر بمبدأ دانييل كاريزي الصهيوني القائم على « الاتصال والانفصال » ، ويعني ان اليهود مختلفون كأمة وعرق ومرتبطون بغيرهم من الشعوب عبـــر التجربة الانسانية العامة ، وان هذه العلاقات محكومة بخصائص طبيعية مـن وراثة وتقاليد وفروق فردية ، وأن اكتشاف هذه الخصائص يتوافق وقوانين الطبيعة ويشكل مانعا يحول دون اساءة التفسير او ضحولته في اية دراسة ادبية . وهكذا فجورج اليوت تضيف عاملا جديدا الى صهيونية جاباستر القائمة على « الانفراد » او الانفصال ، هو « الاتصال » . وليس دانييل كاريزي ــ جد ديروندا ــ بأقل تعصبا شوفينيا لليهود . غير أن انسانيته المتبدية في مبدأ « الاتصال » هي في الحقيقة انسانية المؤلفة نفسها التي لا تريد لليهود أن يعيشوا منغلقين عن تيار البشرية . وهذا هو ، علـى الارجح مصدر سخطها على فهم النقاد الضحل لموضوعات الرواية ، المتمثل في رغبة كثيرين من القراء بان يكون لغويندولين رجل يكمل حياتها . وينبغي ان نتذكر هنا ان جورج اليوت لم تتقبل ايضا ( الروايات السخيفة للسيدات الروائيات ) التي تبنى على تزويج الناس بطريقة زاهية بعد ازاحة العقبات المتعددة . انها اذ توصل ديروندا وغويندولين بموضوعة الكتاب الرئيسية ، التي هي الاكتشاف المبدع أخلاقيا للذات وللعالم، فهي تقيم توازنا رهيفا من الاستقلال والاتكال في علاقات هاتين الشخصيتين . وتنجـم الصعوبة عن أن ما تبغيه المؤلفة كموضوع أخلاقي قد فسره النقاد على أساس الحب والزواج . والسبب هو ان التكنيك قـد فشل في توطيد هـذا الموضوع . فبحسب خطتها ، ليس ديروندا خلاص غويندولين الشخصي ؛ وليس المقصود به ــ في عالم غويندولين ــ أن يكون اكثر من عامل يعجـل بتطور الفعاليات الداخلية لطبيعة خيرة اساسا وقادرة على الخلاص رغـم التربية الرديئـة والقيم المـادية . ينبغي فحص شخصية ديروندا ، اذن ، على انها تمثل حركة تاريخية باعتناقها النهائي للصهيونية. ان الخلاف الشاجر بشأن فهم **دانييل ديروندا** ناجم عـن اهمال غـريب لموضوعـة الصهيونية نتج عن سوء تفسير لما دعي خطأ بـ « النصف اليهودي » للرواية . فالنقاد المعجبون بالصور اليهودية في الرواية ، يبنون اعجابهم على أرضية عاطفية بحتة . اما الدكتور ليفس وآخرون من النقاد فمع أنهم يقيمون الكتاب تقييما مقبولا ، الا انهم يتغاضون عن رؤية المؤلفة للعالم والانسان اذ يركزون على الفشل التكنيكي والاسلوب. وبتعبير ادق انهم يفشلون فـي تبيان موضع الصهيونية فـي مفهومات المؤلفة عـن الطبيعة والاخلاق وتركيب الامة . بالطبع ليست الصهيونية واحدة من هموم جورج اليوت الرئيسية ، وليست مذكورة في أي من أعمالها السابقة ، الا اذا تذكرنا هدفها

١٢ In a letter to Mme Eugène Bodichon; Gordon S. Haight (ed.), **The George Eliot Letters** (London : Oxford University Press, 1956) Vol. VI, p. 290.

القديم في كتابة مأساة عن حياة اليهود او المغاربة ، وهي مأساة تقررت فيما بعد للفجر . ان دراسة الصهيونية كموضوعة رئيسية سيكون حيفا كبيرا بالنسبة لاهتمامات المؤلفةالثابتة . ولكن ، لانموضوعنا هنا هو بالضبط الصهيونية فسنحاول ربطها برؤية المؤلفة للحياة .

تعالج **دانييل ديروندا** الصهيونية والشخصيات الصهيونية على اساس المفهوم العريض للاتصال والانفصال المشار اليه آنفا . وهذا واضح في علاقة ديروندا بغويندولين . فليس مجانيا اختيار المؤلفة لشهد القمار كبداية للرواية مع انه ليس بداية للاحداث . وكما يعلق السيد هيوغو مخاطبا ديروندا : « لا بد وأن ثمة تشابكا بين برجك وبرجها » ( ٣ ، ٢٦٣ ) . ان لقاء الشخصيتين في غرفة الروليت يعبر عما تسميه المؤلفة : « التأثير المتبادل لمصائر متباينة » (١٣) ، وهو أيضا « قبولمدهش بالمساواة الانسانية » (١٤) ، وبعبارة اخرى انه تعبير عن فكرة الاتصال والانفصال .

دانييل ديروندا « شاب ، وسيم ، متميز المظهر ــ ليس واحدا من هؤلاء الفلسطينيين التافهين الازرياء » ( ١ ، ١٠ ) . وقد تاقت روحه على الدوام الى مهمة مثالية ما ، يمكنني ان اشعر فيها بأني القلب والدماغ للجمهور ــ قيادة اجتماعية ما تأتي الي كواجب ، دون أن اسعى اليها كجائزة شخصية . ( ٣ ، ٣١٥ )

وفيما هو يبحث عن مهمته الصهيونية المجهولة هذه ، تبحث غويندولين هارلث، وهي فتاة جميلة من الطبقة المتوسطة ، عن ظفر اجتماعي وقوة شخصية رغم هشاشتها ازاء الخطر . وتتقارن حركتا الشخصيتين كما تتباينان . فغويندولين تتحرك أساسا نحو الداخل ، نحو اكتشاف ذاتها والرغبات المصطرعة مع الميول الطبيعية « كنسيج عنكبوت متشابك » ، فتفجر صراعا بين المكونات الخيرة والشريرة لطبيعتها رسمته المؤلفة بابداع جلي . ويرافق هذا التحرك الداخلي تحرك آخر خارجي نحو السامي والمتعالي في الحيلة ، نحو اكتشاف الذات في وحدة منسوجة مع الناس والطبيعة . وتكون نتيجة هذين التحركين ، كما يقول السيد ستاينهوف ، « تحررها من عبودية الذات والدخول في عالم الواجب الارحب غير الاناني » (١٥) .

اما ديروندا ، الذي يفصله عن الحياة الارحب توق سديمي لقيادة غيرية او لوظيفة اجتماعية ، فيختبر أصالة غيريته ونكران ذاته في الرضى الذي يشعر به اذ يفوز هانز ميريك بمنحة من كيمبردج على حسابه هو . ثم يقوده ضوء داخلي مبهم نحو خط عملي محدد لم يكن واضحا له من قبل ، فيرص طاقته المبعثرة . وعندما يلتقي بموردیخاي الذي يضيء له طريق الواجب اللاانانى برؤاه القومية ، فيعتنق ــ ديروندا ــ بعد اكتشافه لاصله اليهودي القضية الصهيونية ويكرس نفسه لها .

---

١٣ – Quoted by Robert Preyer, «Beyond The Liberal Imagination: Vision and Unreality in **Daniel Deronda**,» **Victorian Studies**, Vol. IV, No. 1, Sep. 1960, p. 46.

١٤ – **Daniel Deronda, I**, p. 5.

١٥ – William R. Steinhoff, «The Metaphysical Texture of **Daniel Deronda**,» **Books Abroad**, Vol. 35, University of Oklahoma, Summer 1961, p. 223.

ومثل تحرك غويندولين الخارجي ، يترافق تحرك ديروندا بآخر داخلي يبلور « خدره التأملي » في هوية حقيقية وواجب محدد في توحيد ذاته مع امته . وفي كلا الاتجاهين يكتشف ديروندا الصهيونية ، انه يكتشفها كقضية تاريخية وكضوء داخلي تعتم تعتيما مصطنعا عبر ظروف غير طبيعية .

ان فكرة الاتصال والانفصال في الرواية مجرد اطار تعرض جورج اليوت فيه مفهومها عن الامة اليهودية المنبثق عن فلسفتها في الحرية والجبرية المتواشجتين في شبكة الطبيعة المعقدة . ففي تقديمها لحركة القومية اليهودية تحاول المؤلفة « ان تنسل تلك الرؤية للعالم التي تكشف عن كلية تصميمه وقيمته » (١٦) . فالشتات اليهودي نتيجة سلبية لشبكة العلل والنتائج ذات الصفة الجبرية ، ويمكن رصدها في الحركة الجسيمة للتاريخ والمجتمعات ، في

> حركات العالم العظمى ، المصائر الاوسع للبشرية ، التي ... تدخل كزلزال في حيواتهم ـ عندما يتحول الالحاح البطيء للاجيال النامية الى طريق للجيوش الغازية او صدام عنيف في حرب اهلية . ( **دانييل ديروندا** ، ٣ ، ٣٩٨ ) .

وعلى هذا النحو تكون اعادة تجميع اليهود في وطن قومي استعادة الحياة الانسانية للطبيعة ، لان الطبيعة تحفظ بالعلة والنتيجة استمرار صلتها بالانسان او تدمرها . ثمة قوى غير شخصية تنجم عن حركة الطبيعة وتقرر مصائر البشر ، رديئها وحسنها . وهذا هو التفسير الاعمق لتجارب ميرا الشقية وكارثة غويندولين المالية . ان المصادفات التي تقود ديروندا لانقاذ ميرا ، وللتعرف بموردیخاي ، ومن ثم لاكتشاف ملابين الشتات التي يربط مصيره بمصيرها ، لا يمكن أن تكون مستحيلة او حتى غير محتملة ، على العكس ، انها نتائج لاسباب صاغتها قوى عليا . وتوضح المؤلفة لنا ، عبر آل ميريك ، انه لم يكن حائزا لاي انسان عدا ديروندا ان ينقذ ميرا من الانتحار . وعندما يفعل ذلك تقول ميرا : « ( قد يكون امر الله ) »، « ( لقد امرت بأن أحيا ) » (١٧) . أما موردیخاي فيعلق على الحادث كما يلي : « ( ان ما صلي لاجله قد تم : لقد انقذت ميرا من الشر ) » ( ٣ ، ٣٩ ) . القوى العليا هذه هي الروح اليهودية في حركةتاريخية جديدة : انها أبعد ما تكون عن الموت ، وان انبعاثها قد بدأ يصوغ حياة اليهود أو يؤثر فيها .

ولكن اذا كان انقاذ ميرا حادثا سعيدا نجم عنسيج الحياة المتشابك، فالاحداث الاخرى ليست دائما كذلك . وعلى اليهود أن يعوا ان العلل والنتائج تنسج مسارها المقرر سلفا بغض النظر عن الوجود الفردي . وعلى اليهودي أن يكتشف « معابره » ليظفر بالحرية والوحدة مع العالم . في **ميدلمارتش** تكتب جورج اليوت : « تتحرك الروح في قنوات عديدة » (١٨) . ومن المفيد أن نلاحظ كيف ان استعارتها الاساسية ـ « النسيج المتشابك » تتفرع الى مجموعة من الاستعارات لتعبر عن رؤيتها للحياة .

---

١٦ – John Holloway, **The Victorian Sage**, p. 112.

١٧ – **Daniel Deronda**, I, pp. 288-290.

١٨ – **Middlemarch**, Standard Edition (Edinburgh and London: W. Blackwood and Sons), II, XLII, p. 224.

فعبر هذا ( النسيج ) يتعين على اليهودي ان يجد ( معـابره ) . يقـول موردیخاي لديروندا: « ( ترى اعيننا بعض المعابر ) » ( ٣ ، ٣١٣ ) و « ( الانسان يجد معابره ) » ( ٢ ، ٣٤٣ ) واذ يتأكد من ان ديروندا يهودي يلاحظ : « ( دانييل ، منذ البـداية قلت لك ، نحن لا نعرف المعابر كلها ) » ( ٣ ، ٣١٣ ) . اذن يجب العثور على المعابر ، ليس فقط في الحياة وانما في داخل النفس : وتكتب المؤلفة في تصدير الفصل السادس عشر عن « معابر الفكر والشعور الخفية التي تقود الى كل حركة فاعلة » . على اليهود اذن ، مرة اخرى ، ترقية « الارادة المحبة » التي يتمتع بها موردیخاي كـي يكتشفوا الموجه الكامن في الفكر والشعور . يجب ان يكونوا « متحركين بوعي وقوة مع مسيرة المصائر الانسانية الكبيرة » ( ٢ ، ٤٠٦ ) . فتلك هي العلة التي ستخلق حريتهم وانتهاء ( نفيهم ) ( كما هو الحال مع ديروندا وموردیخاي وميرا ) ، أو خلاصهم من ( النير ) ( كما هو الحال مع لابيدوث والاميرة ) . و ( النفي ) و ( النير ) مجازان تكثـر المؤلفة من استعمالهما في وصف حالة اليهود المعاصرة .

شخصيات جورج اليوت تجهد ، واعية او غير واعية ، رغم القوى اللاشخصية ، نحـو تفجير النسيج المتشابك باتجاه الحياة الاعرض . والمؤلفـة تتابـع تحـركاتهم بـ « الرعب والشفقة » . ان من واجب اليهود ان يناضلوا بالارادة النبيـلة والخلق القويم لتحرير انفسهم من الجبرية التي تفرضها عليهم هذه القوى . انهم مسؤولون، رغم الجبرية ، عن اختياراتهم لان « العلاقة بين العلة والنتيجة تنكسر في مجـال الاختيارات الانسانية . وهكذا فالانسان حر وبالتالي مسؤول » (١٩) . ليس ثمـة وصفة سحرية للخلاص من أوضاع حياتهم الحالية المنحطة سوى القيـام بالواجب اليومي لتحسين هذه الاوضاع ومساعدة بعضهم بعضا في ذلك . ان اصرار موردیخاي على الوعي الشخصي بالمعابر الباطنية يفسر خوف جورج اليوت من انها قد « تنسل الخيط الخطأ في خطة الاشياء المتشابكة » (٢٠) . وهكذا يحث موردیخاي شعبه على التمييز بين ( الخيط الصحيح ) و ( الخيط الخطأ ) لانهما يقرران فـي المآل ( المعبر الصحيح ) و ( المعبر الخطأ ) وبالتالي الحياة الاوسع ( الصهيونية ) أو الخنوع تحت النير لحياة النفي ( الشتات ) . ان ( جذر اللااستقرار ) في ديروندا يقعده عن ايجاد ( المعبر الصحيح ) لتوقه ، وبالتالي فهو يعيش منفيا . أما موردیخاي فهو نبي «منفي في ندرة عقله » ( ٢ ، ٤٠٦ ) . وحقا فان **دانييل ديروندا** تقدم « لوحة منفى » (٢١) .

تستخدم المؤلفة فكرة المنفى اليهود ايضا في الزمن . ان جزءا كبيرا من نسيج حياة اليهود مصنوع بالتجارب الماضية ، الشخصية والجماعية . المنفى هو المسؤول ـ وليس طبيعة الحياة الحديثة مثلا ـ عن انحطاط اليهود الى شعب متعلق بالمادة .

---

١٩ – George Levine, «Determination and Responsibility in the Works of George Eliot, **Publications of the Modern Language Association of America**, Vol. L. XXVII, No. 1, March 1962, p. 269.

٢٠ – Quoted by Raymond Williams, **Culture and Society, 1780-1950** (1958; rpt. London: Chatto and Windus, 1960), p. 108.

٢١ – See Jean Sudrann, «**Daniel Deronda** and the Landscape of Exile,» **English Literary History**, Vol. 37, Sep. 1970, pp. 433-455.

نفي ديروندا هو نتيجة لقرار غير مسؤول اتخذ في الماضي من قبل امه الاميرة . لكن المؤلفة تؤكد لنا انه « يمكن لحياة ديروندا ان تتقرر بالمصير التاريخي لليهود » ( ٣ ، ٣ ) . وترمز عزلة موردیخاي الى مصير شعبه خلال ثمانية عشر قرنا : « ( نصيبنا هو نصيب اسرائيل ) » ( ٣ ، ٣٠٣ ) . كذلك يلعب المستقبل دورا مماثلا في اهميته في صياغة مصير اليهودي . ولكن على اليهودي ان يقراه جيدا . وهذا هو بالضبط السبب في ان الصهيونية يجب ان تعتنق : انها تمثل الانبعاث المستقبلي لليهود . ان انفصال حاضرهم عن ماضيهم ومستقبلهم قد عزلهم ، نفاهم . لقد قوطع تكريس موردیخاي نفسه لاجل الصهيونية ، لاجل اعادة وصل الحاضر بالمستقبل والماضي ، وهكذا تحول الايمان الى رؤى ناخرة دمرت صحته ، هي واستسحاف شعبه له وازدراؤه به . ان حالة النفي ، التي يعيشها ديروندا وموردیخاي وميرا ، نتيجة أيضا لفصل ماضيهم الجماعي عن وعيهم فصلا حرمهم من قدرة التقاليد والارث على تزويدهم بالتوجه الاخلاقي ومن عطاء عرقهم اليهودي باكمله .

## ٣

ثمة معابر ثلاثة لخلاص اليهودي من المنفى ومن العمى الاخلاقي او النير . وهي ليست معابر منفصلة ، وانما تتفاعل وتتواشج وتتبادل التأثير . وكما تكتب جورج اليوت في **آدم بيد** : « الطبيعةنظام شاسعمعقد » (٢٢) يقرر مصير الانسان، والانسان « مجذر » فيه . انها علاقة القوى المتعددة الغامضة التي تكون الحقيقة . لقد رأينا كيف ان موردیخاي اعتبر انقاذ ميرا تحقيقا لارادة الطبيعة . ويصف ديروندا وضعه قبل معرفته بأبويه الحقيقيين في مثالين لهما دلالتهما . الاول يتعلق بالصفات الوراثية وصراعها مع شروط الحياة الخارجية . انه مثل « وليد سرق من قبيلة جبلية وانشيء في مدينة في السهول » ( ٣ ، ٣١٥ ) وهو يشعر دائما بلا طبيعية وضعه . ومن هنا تأتي فكرة بعض النقاد عن أن ديروندا يمثل موسى الذي لاقى تقريبا المصير نفسه . ان قوة الوراثة ، الكامنة فيه « كتوق مبهم لاشياء واحاسيس مجهولة » تدفعه الى التعرف على عرقه الحقيقي ومن ثم قيادته نحو الخلاص . أما المقال الثاني فيتعلق بالوراثة أيضا ، عندما تقعدها مظاهر مكبلة . وديروندا هنا يشبه نفسه بانسان « ذي عبقرية موروثة في فن الرسم لكنه ولد أعمى » ( ٣ ، ٣١٥ ) . انه يشعر دائما بتلك الرغبة الحارقة لصياغة احاسيسه في أشكال . ويقول ديروندا : « ( شيء مثل هذا ... كان تجربتي ) » . وهو يعني بذلك ان الروح اليهودية قد حذت حذو الطبيعة في التأثير عليه عبر الخصائص العرقية . ان قلقه ناجم عن انفصاله عن تلك « الاشياء والاحاسيس المجهولة » . انه يفتقر الى ذلك العامل المثبت الذي لا يمكن لغير الوراثة العرقية أن تمنحه . فمن المفروض انه الابن غير الشرعي للسير هيوغو، ولكن سببا غامضا يدفعه الى عدم الايمان بذلك . وهكذا يعجز عن ايجاد وظيفته الحقيقية التي يتوق لها ، ويعجز عن ان ينهج مسلكا انكليزيا بحتا . ان افتقاره الواضح الى الحماس والطموح ، ووقوفه المستمر مع كل « هاجر واسماعيل »

---

٢٢ - Quoted by John Holloway, **The Victorian Sage**, p. 124.

( ٢ ، ٢٤٠ ) ، و « توهجه المضغوط » ، و « مشاعره المكبوتة ذاتيا » ـ كل هذه نتائج لغياب الصلات الطبيعية مع عرقه . اما عذاب الاميرة ، الذي تحول الى مرض عضوي غريب ، فيفسره رفضها لان تمنح ابنها شخصية يهودية . وكذلك خيانتها للدم اليهودي بزواجها من مسيحي روسي وانجابها اطفالا ذوي دم مختلط . لقد اتهمها كالونيموس ، صديق أبيها ، بنهب الموتى لانها فعلت ذلك . ومن ناحية اخرى فان ديروندا ، الذي ورث نفسية أبيه وعقلية جده وملامحه ، مأسور برغبة غيبية في التعرف على اليهود ، وهو يستمع بارتياح غريب الى توكيد موردیخاي له بانه يهودي . ثم تأتي لحظة الطبيعة الصادقة عندما تخبره أمه انه فعلا يهودي . وهكذا يكافأ شوقه وبحثه عن هوية بجائزة الوحدة مع شعبه ومع الطبيعة والتاريخ. ويلخص الامر و. ج. هارفي بقوله : «ان قانوننا الخلقي» ، يعطينا الفباء كينونتنا ، اما قدرتنا على صياغة الشعر بها أو النثر فأمر يتوقف علينا نحن وعلى الطبيعة بمعنى أوسع » (٢٣) .

ثمة سياق طبيعي آخر غاب عن ديروندا فسبب تشوشه ، وهو الارث، انه وقد انقطع عن تراث شعبه يعيش في فراغ . انه لا يعرف شيئا عما لليهود من دين ولغة وتقاليد وشعر وتاريخ ، بينما يعجز عن التفاعل مع الثقافة الانكليزية . وهو هنا بعكس ميرا ، التي ينقذها هذا المعبر من المنفى الروحي . وان كان هذا الانقاذ جزئيا. انها تندب باستمرار جهلها باليهودية وتخاف من أن تغدو خبيثة بسبب عدم معرفتها بالعبرية والصلاة في الكنيس . وهذا ما يحدث للاميرة التي تدفع غاليا ثمن تنكرها للتراث اليهودي . لقد رفضت أن تكون امرأة يهودية وفضلت ان تعيش في حياة الاضواء والمجد تاركة الحياة الطبيعية في ظل التقاليد والعادات اليهودية . وهكذا تقنصتها « لعنة اليهود » خلال خمسة وعشرين عاما ، أولا عبر والدها المتوفي، وثانيا عبر ابنها ديروندا . لقد اختلت طبيعتها باكملها ثم تمزقت بندم غيبي ترفض الاعتراف به . في اختيارها « الخيط الخطأ » اختارت اللعنة والعذاب .

أما المعبر الثالث فهو البيئة اليهودية ، التي تعادل في اهميتها الوراثة والتراث في عملية اعادة صياغة الامة اليهودية . انها تهيء وسطا طبيعيا لنمو وتطور المزايا الوراثية والصفات القومية باتجاه حياة أعرض وافضل . وعندما تفسد الاشياء ، كما هي الحال بالنسبة لليهود ، فالتفسير موجود في الصراع القائم بين علل البيئة وعلل الوراثة والتقاليد . وهذا الصراع يتخذ اشكالا متعددة . في حالة ديروندا يكون بين أوجه متنافرة للطبيعة ، حيث ينتمي بالنشأة الى البيئة الانكليزية وبالولادة والمواهب الشخصية الى العرق اليهودي . ويتخذ المثالان السابقان معنى اضافيا هنا : فانفصال ديروندا عن تراثه يزداد سوءا بفعل التأثير الذي تمارسه عليه بيئة غير يهودية .

---

٢٣ – W. J. Harvey, «Idea and Image in the Novels of George Eliot,» **Critical Essays on George Eliot**, ed. Barbara Hardy (London: Routledge & Kegan Paul, 1970), p. 162.

بعض النقاد يخطيء هنا تفسير وضع ديروندا في المجتمع الانكليزي . ففي مقالته الجيدة عن الرواية يكتب السيد غراهام مارتن ما يلي :

وباختصار فان المجتمع الانكليزي مركب بحيث ان ديروندا يتركه ، ليس لانه [ المجتمع ] يرفضه [ ديروندا ] ولكن اذ يهدد بان يدينه فان ديروندا نفسه يرفضه (٢٤) .

وهذا التفسير يستدعي الى الذاكرة فكرة التحيز التي نوقشت من قبل . ان نفور ديروندا من المشاركة في الحياة الانكليزية ينبع من شعور ضعيف ولكنه ثابت بان وظيفته الطبيعية توجد في مكان آخر ، في عرق غير معلوم بعد ، وهذا الشعور هو محصلة تأثير الطبيعة عليه . لقد وجهت جورج اليوت زخم هجومها على السياسة الانكليزية عبر السيد بلط والهر كلزمر . وعبر ترشيح غراندكورت كحاكم لمستعمرة صعبة . ان وضع ديروندا يجب ان تفهم من خلال اتجاه المؤلفة في أواخر حياتها الى صوفية غريبة . وكما يوضح السيد بريير ببلاغة فاننا

نريد ان نعلم كيف ان اهتماما اخلاقيا ملحا بالخلاص الفردي والاجتماعي ، وبقيام الانسان بواجبه ، يقود سيدة عظيمة من سادة الحقيقة الى الاسطورة والتوهم ، وفي المآل الى الصوفية (٢٥) .

ان المؤثرات الوراثية ــ في رأي المؤلفة ــ هي التي تدفع ديروندا الى الابتعاد عن البيئة الانكليزية وليس الموقف الشخصي له .

في هذا الصراع المتشابك يوجد خيط آخر لحرية اليهودي تحيكه لعبة الثبات والتغير التي تزود الانسان بعدد من الاختيارات يجد فيها فرصته لصياغة مصيره . فالطبيعة والانسان ليسا لوحتين مكتملتين ، وهناك دائما فرصة لاضافات افضل وتعديلات اجمل يستطيع اليهود ان يقوموا بها ، وان كان ذلك يتم بمشقة . ويبدو ان موردیخاي متأثر حتى بنظرية القابالا اليهودية القائمة بالتناسخ ، بتجدد الروح في اجيال متعاقبة عبر اجساد مختلفة بحيث تتكامل وتنقى في النهاية وتتمدد بالارواح المحتاجة لتساعدها في عملية السمو والتطهر هذه . « ( عندما تتحرر روحي التائهة ابدا من هذا الجسد المتعب فستنضم الى روحك وسيتكامل العمل ) » (٢٦) .

ولكن عندما يفشل اليهودي في الاستفادة من فرص الصراع هذه يتحول الى صيغة ، وربما الى ما هو أسوأ من ذلك : ان دنيوية آل كوهين نتيجة لانسياقهم في بيئة لم تخلق لهم ، لانفصال هذه البيئة عن تراثهم الطبيعي . وعلى هذا ، فستكون الصهيونية انقاذا لهم من هذا الانقطاع وسوف تستعيد الصورة الطبيعية لحياتهم . تكتب جورج اليوت في **طاحونة على الجدول** : « هذه الحياة القومية الواسعة مرتكزة كلية على . . . ضغط الحاجة . . . وفي ظروف كهذه ثمة كثيرون . . . ممن يحتاجون الى ايمان متشدد حاجة مطلقة » (٢٧) . ولعل هذا هو الاساس في رؤى موردیخاي ورسالة ديروندا . موردیخاي يشعر بالرعب للفجوة المتواسعة بين ( المعلمين )

٢٤ – Ibid, pp. 146-47.

٢٥ – R. Preyer, «Beyond the Liberal Imagination,» p. 35.

٢٦ – **Daniel Deronda**, II, p. 399, see also II, pp. 298-99.

٢٧ – Quoted by John Holloway, **The Victorian Sage**, p. 112.

و ( المجد القديم ) والروح التي الهمت الازمنة الغابرة وبين هؤلاء الذين يقولون : « ( لا اعرف ابي ولا امي ... لن ابحث عن الفروق بيني وبين الامي ، ولن ارعى الوعي النبوي لقوميتنا ـ فليتوقف العبري عن أن يكون ولتكن ذكرياته كلها الهية لجامعي العاديات ) » ( ٢ ، ٣٨١ ـ ٨٢ ) . ان رؤيته للامة اليهودية معروضة باسهاب في الفصل الثاني والاربعين ، وتتوافق تماما مع مفهوم جورج اليوت للخلاص كما يشرحه فيليكس هولت الذي تجعله المؤلفة يقول :

انا انسان تدفئه الرؤى . تلك القصص القديمة عن الرؤى والاحلام التي تقود الناس تمتلك حقيقتها الخاصة : ما ينقذنا هو ان نجعل المستقبل حاضرا في انفسنا ... اريدكم ان تمتلكوا رؤيا كهذه عن المستقبل بحيث لا تفقدون ابدا نفسكم الافضل . قد يكون ثمة رصد يسير حياتكم ... وليس هناك ما ينقذكم سوى رؤيا جيدة قوية ومروعة (٢٨) .

وهذا القول مرتبط باستهلالية **دانييل ديروندا** :

فليكن رعبك الاساسي ملك روحك الخاص :
هناك ، بين حشد الرغبات المتعجلة التي تتمثر بالموتى لتلتقط غنيمتها ، يقعي الانتقام ، بلا قدمين ، لا مرد له كزفير مبطن بموت بطيء ، وفوق اجمل حشد من الافراح المقتنصة يتنفس وباء شاحبا .

الرؤيا المروعة التي ينادي بها فيليكس هولت يجب ان تكون « ملك روحك الخاص » . وهي ضمانة ضد فقدانك « نفسكم الافضل » او السقوط ضحايا « الانتقام » أو « الموت البطيء » أو « الوباء الشاحب » . وبهذا المعنى تكون صهيونية موردیخاي محاولة لاعادة تكوين العناصر الايجابية والخلاقة في الشخصية اليهودية . ان موردیخاي الوفي لطبيعة ارثه وتراثه يرفض الشروط الحالية للحياة اليهودية على اساس انها متناقضة وحركة التاريخ . ويتأكد ايمانه بتحقق توقعاته من ديروندا، عندما يعتبره موسى اليهود الجديد . ان ديروندا ، مدفوعا بذلك الحافز العرقي اللاواعي ، يحقق توقعات موردیخاي على اربعة اصعدة : (١) شكله ووضعه الاجتماعي هما تماما ما صوره موردیخاي في ذهنه . (٢) ظهوره على الجسر فوق التيمز يأتي في اللحظة التي يخمنهما موردیخاي تماما ، (٣) انه يهودي بعد كل شيء ، (٤) هو يتحول باستمرار وثبات الى شخصيته القومية . فمن نافلة القول تكرار الحديث عن شبهه بابيه وجده . كذلك فهو يعيش في المجتمع الراقي وينتمي له ، وهو أمر بالغ الاهمية بالنسبة لموردیخاي . أما لقاؤهما عند جسر بلاكفرايرز فبالغ الدلالة ورمزي. فالنهر يفصل والجسر يصل ، وديروندا يأتيه في قارب وليس على الجسر . انعبوره الثاني من الغرب الى الشرق ( كان الاول لانقاذ ميرا ) لمقابلة موردیخاي يعني بداية نهاية انفصاله عن شعبه اليهودي . انه عبور الى حيث ينتمي حقا . أما موردیخاي، الذي يقف عند « متراس الجسر » بـ « توهج مدهش متميز » ، ( ٢٧٧،٢ ) فيمثل الصلة التي ستربط ديروندا بشعبه الى الابد . ويقول لديروندا : « لقد انتظرتك طوال هذه السنوات الخمس » ( ٣٢٩،٢ ) . ان الحادث نفسه ، وهو عفوي تماما ، تعبير عن حركة تاريخية كبرى هي الصهيونية : « وقد حدث ان الزول [ ديروندا ] المعبر

---

٢٨ – Felix Holt, ch. XXVII, quoted by Preyer, pp. 45-46.

عن توق موردیخاي قد ظهر لذهنه وقد تداكن امـام فيض الضوء في الخلفية الاثيرية » ( ٢ ، ٣٠٠ ) . ومع ان ثمة « فيضا من الضوء » في الخلفية الغربية ، فشكل ديروندا « يتداكن » امامه لانه ، « لذهن » موردیخاي لا ينتمي الى تلك الخلفية . وعندمايقرر ديروندا بعدئذ أن يكرس حياته للقضية الصهيونية يسترخي التـوتر الذي ابقـى موردیخاي حيا حتى الان ، وتفارقه روحه كنبي حقيقي ، أو كالنبي ايليا ، بعـد ان انجـز مهمته .

وفيما تشكل البيئة طبيعة ثانية مصطنعة فان موقف اليهود تجاهها يتبع خطين عمليين . فمن ناحية ، هناك هؤلاء الذين يسلمون انفسهم لقبول قدري بها فيخطون ( مثل آل كوهين ) . ومن ناحية أخرى هناك هؤلاء الذين يوحدون مصيرهم الشخصي بمجرى التاريخ العام في تأثير متبادل مع ما يحيط بهم (مثل موردیخاي وديروندا) . « وهكذا فان النمو الروحي او الانحطاط في الفرد قد يغدو عالما صغيرا من النجاحات المحدودة أو الفشـل المؤلم » (٢٩) .

## ٤

يحظى الجانب الاخلاقي في فلسفة جورج اليوت العامـة باهتمام مركـزي ، وبالنسبة لموضوع الصهيونية فان لخلاص اليهود الاخلاقي معبرين يتجليان فيموقفهم تجاه الذات والآخرين . تكتب المؤلفة : « طريقتي هـي ... أن أحث الطهـارات الانسانية ... عبر الشفقة والرعب ، وكذلك عبـر الاعجـاب والمسرة » (٣٠) . والشخصيات الصهيونية في **دانييل ديروندا** مشحونة بمسؤولية اخلاقية لا غنى عنها في أي انبعاث يهودي ومبثوثة في أوضاع ومشاهد متعددة بدلالة رمزية . المنفى هو أحد هذه الاوضاع ، ومن المفروغ منه كونه نتيجة لسوء تصرف اليهود . ان المؤلفة تتخذ هنا موقفا متطرفا في حكمها الاخلاقي على اليهود ، اذ تعتبر أن كـل مـن لا يتصرف كموردیخاي وديروندا ، كل من لا يكون صهيونيا ، منحطا وبلا اخلاق . وهو حكم ظالم بالتأكيد ، وخاصة اذا تذكرنا ان الاختيار الصهيوني ليس شغل اليهـود الشاغل ، لكنها تمضي في هذا الاتجاه ، وتخبرنا ان القمـار ايضا احـدى صفات هذه الحياة اليهودية ــ وغيرها ايضا . يقول ديروندا لفويندولين : « ( يوجد ما يكفي من تقلبات الحظ التي لا مرد لها والتي تجبرنا على ان نرى ان ربحنا هو خسارة احد ما ) » ( ٢ ، ٩٠ ) . ومن بين امثلة كثيرة على النتيجة الفاجعة اخلاقيا للقمار نذكـر المصير الذي آل اليه لابيدوث والد ميرا . فلكييحصل هذا الرجل على مالالمسيحيين يجعل من نفسه مهرجا ، يحتقر اليهود ويتقود لابنته . وجدير بالملاحظة هنا كيف أن المؤلفة تعاقب يهودها الخاطئين وتكافيء الصالحين . فالاميرة تقـع فريسة مـرض جسدي ــ نفسي عضال ، ولابيدوث يستجلب الـى لندن من فيينا لاظهـار لعنته الابدية . أما ديروندا وميرا ، اللذان لا يقامران أبدا ويكرسان نفسيهما لشعبهما ، يجزيان بالزواج منبعضهما بعضا ، ومن شعبهما ايضا بمعنىما . ميرا طفلة اخلاقية .

---

٢٩ – W. J. Harvey, «Idea and Image in the Novels of George Eliot,» p. 164.

٣٠ – Quoted by J. Holloway, **The Victorian Sage**, p. 127.

تقول السيدة ميريك : « ( يصعب على الانسان ان يتصور ان هذه المخلوقة تمتلك فكرة شريرة واحدة ) » ( ١ ، ٣١٢ ) .

اما المعابر الاخلاقية التي على الصهيونيين أن يختاروها لهم ولحياة شعبهم فهي ، بكلمات المؤلفة نفسها ، ( التعاطف ) ، ( الواجب ) و ( الحماسة ) . وكما يكتب السيد بريير فان «الصراع بين التعاطف والانانية يشكل محور الدرامات الاخلاقية [ التي تكتبها ] » (٣٧) . عندما يكشف ديروندا لآل كوهين نبأ عثوره على « قرابة » لموردیخاي ، يجري بينه وبين السيد كوهين الحوار التالي ، فيما العائلة تصغي مشاطرة ربها اهتمامه :

قرابة مع المال ، يا سيدي ؟ ) انبثق كوهين وهو يشعر بقوة استلهامية كان من المؤسف الغاؤها بالانتظار حتى معرفة الحقيقة .
( كلا ، ليس تماما ) ، قال ديروندا مبتسما . ( لكنها قرابة نفيسة ترغب في الانضمام اليه ـ أخت شابة طيبة وحلوة ، سوف تعتني براحته بكل وسيلة ) .
( متزوجة ، يا سيدي ؟ )
( لا ، ليست متزوجة ) .
( ولكن لها دخل ؟ ) ( ٣ ، ٤٣ ـ ٤٤ )

ليست حماسة السيد كوهين بالطبع الحماسة التي تدعو لها جورج اليوت . والحوار يقترح أن كثيرين من اليهود ، مثل كوهين ، يفتقرون الى الحماسة الاخلاقية لتسنم مسؤولية أخلاقية رفيعة ، وينساقون الى علاقات مالية صرف ( آل كوهين ، السيد رام ، الفتى اليهودي الذي يغش ديروندا في فرانكفورت ) . هناك مشاكل تتقاطع مع مبدأ التعاطف والحماسة والواجب الذي يمارسه ديروندا وموردیخاي . وفي هذه الحال يحتاج اليهود الى ( ايمان متشدد ) ، ( رؤيا مروعة ) أو الصهيونية ، كضرورة اخلاقية لا غنى عنها . ان الاستجابة العابرة اللامسؤولة للسلوك والدافع والارادة استجابة رخوة وينبغي تمتينها لتغدو احساسا بالواجب ووظيفة نبيلة . وبما أن « الروح الانسانية تتحرك في قنوات عديدة » ، فمن المؤكد أن اليهود ، اذا عوملوا بـ « شفقة ورعب » سيكونون مثل ميرا « قادرين على الانصياع لاي شيء له شكل الواجب » ( ٣ ، ١٧ ) .

ولعل هذا هو المضمون الاخلاقي لصهيونية جورج اليوت . الشعور بمشاعر الآخرين واضح في علاقة موردیخاي بآل كوهين ، لكنه لا يكفي . ان جسامة الانبعاث الاخلاقي المطلوب ـ وهو أساسا لا مادي ـ يمكن ان تعرف فقط من خلال فقدان المثل والشاعرية في « تذوق الحصول على النقود » ( ٢ ، ٣٦٤ ) عند السيد كوهين ، وتلك « النمطية البليدة » الفاقدة الروح في حضور « وجوه عديدة لا مبالية وسحنات مبتذلة » للصلاة في الكنيس بمدينة فرانكفورت . أما « الرؤيا المروعة » أو « الايمان المتشدد » فهو لدى موردیخاي ، أما « الوظيفة » النبوية فلدى ديروندا ، وأما « الواجب الملهم » فهو في بدء « عصر المسيح » لتأسيس « كيان يهودي » على أسس أخلاقي .

## ٥

يكتب السيد جون هولووي في **الحكيم الفيكتوري :**

ثمة نقد ذو دلالة ولكنه مغفل في هذه الرواية [ **دانييل ديروندا** ] وهو انها لا تفعل الا القليل لخلق رؤيا حقيقية لنظام الطبيعة يحضر معه نظاما أخلاقيا مرادفا ، ومع ذلك فهي مليئة بنماذج أدخلت بلا تنسيق في ميدان السلوك . (١٤٠)

اعتقد ان هذه العبارة اقل من عادلة بالنسبة لكلا المؤلفة والكتاب . ففي معالجتها للصهيونية وللشخصيات الصهيونية في **دانييل ديروندا** ، قدمت المؤلفة في الحقيقة ما يسميه الناقد « رؤيا حقيقية لنظام الطبيعة يحضر معه نظاما أخلاقيا مرادفا » وتتألف من القوى اللاشخصية للعلل والنتائج التي تعمل في الزمان والعرق والتقاليد والبيئة وتؤثر في مصير اليهود بطريقة يغدو فيها الواجب والحماس والتعاطف أمورا لا غنى عنها للخلاص والعودة الى الطبيعة . وزيادة على ذلك فقد قدم نظام الحياة الانسانية عبر علاقة تقوم في قرارتها على الافراد ثم الاسر ، فالامم او العروق ومن ثم الانسانية على اتساعها . ان التوتر الذي يثوي داخل نظاميّ الطبيعة والحياة اليهودية هو كيف يمكن استعادة استمرارية بينهما تقود الى حالة مثالية . وستظهر الصفحات التالية كيف ان القومية اليهودية تعادل الطبيعة ــ كما ترى جورج اليوت ــ في توحيدها للافراد والاسر .

لقد المحنا عدة مرات في هذا الفصل الى علاقة بعض الشخصيات ، وخاصة اليهودية ، بأممهم . ان يقظة ديروندا الكلية تشير الى اهتمام قومي عميق في رؤيا المؤلفة الاخلاقية . ويبدو انها في تكنيكها المتقدم ذي الثيمات * المتشابكة تشير الى ان الخلاص الفردي ليس كافيا ، بل انما هو مرتبط بحياة اوسع لمجتمع يتميز بخصائص قومية عرقية وبتراث وبيئة ، وان اكتشاف الذات مقترن بالضرورة بمشاعر أهلية وانهما معا مقترنان بالطبيعة. في الصفحة ٢٦ من **دانييل ديروندا** تكتب جورج اليوت :

اعتقد ان حياة الانسان يجب ان تكون متجذرة في بقعة ارض اهلية تحظى فيها بحب القربى الحنون المنتشر على وجه الارض جزاء لجهود الانسان التي يبذلها وللاصوات واللكنات التي تحوم فوقها ، ولاي شيء يعطي ذلك الوطن الاولي اختلافا مألوفا لا تخطئه العين بين اتساعات المعرفة المستقبلية .

وهذا ما يشير اليه دانييل كاريزي في فكرته عن الاتصال والانفصال التي يقصد بها تنظيم علاقة اليهود بالاممين والالحاح على الوعي القومي لدى اليهود . ومع ان هذا الوعي خافت وغير مفصح عن نفسه في ديروندا فانه يوضح علاقته بفويندولين. وهو كذلك في قلب صهيونية موردیخاي . انه يشكل الولاء للعرق والتراث كأساس لحياة أخلاقية ، ولفعل أخلاقي هو أسمى شكل من أشكال الواجب . وقد لا يكون ضروريا الدخول في تفاصيل كثيرة كيما نكشف عن اهتمام جورج اليوت العميق بـ « معركة سادوفا التي غيرت العالم » أو بشعب الهنود الغربيين . ان فيدالما في **الفجرية الاسبانية** تهجر كل شيء لاجل خلق أمة غجرية في افريقيا . أما الارضية العريضة لـ **فيليكس هولت** فهي أساسا قومية مع ان توجهها سياسي . وفي **ميدلارتش** تحذرنا المؤلفة : « بينما أقول الحقيقة عن المراجعين لا ينبغي لخيال القارىء

* Themes

ان يبتعد تماما عن الانشغال باللوردات » ( ٢ ، ١٠٣ ) . امـا موضوعة القومية فـي **دانييل ديروندا** فواضحة في ان الرواية ، كما يقول السيد كارول ،

تغدو كلا عضويا بالطريقة التي تتعقب فيها جورج اليوت تأثيرات هذين الشعبين [ الانكليـزي واليهودي ] ، اللذين يمثلان نصفي الرواية ، على ديروندا (٣١) .

وهي ايضا واضحة في جواب ديروندا عن سؤال امه الساخر عما اذا كان سيهجر كل ما هو انكليزي فيه : « هذا مستحيل . لا يمكن نزع تأثيرات تربيتي . لا يمكـن للتعاطفات المسيحية التي نشأت فيها ان تموت في نفسي » ( ٣ ، ١٧٧ ) . ان كون ديروندا يهوديا لا يلغي هذه التأثيرات المطبوعة في ذاته من قبـل امة اخرى هـي الانكليزية . في دراسته عن **دانييل ديروندا** يسأل السيد مارتن سؤالا يبـدو انـه مستحيل : « اين يقدم عالم ديروندا ذو التطلعات العريضة تحـديا خصبـا للعـالم [ الانكليزي ] الذي سيفارقه ؟ » ( ١٤٧ ) . ومع أن السيد مارتن يعتبـر الجـواب اشارة الى قصور المؤلفة في رسم شخصية ديروندا ، فان وضع ديروندا كـ « ناقد لا منتم » و « صهيونيته » ، و « بهوت شخصيته » تجعل هـذا الجواب واضحا : « انه [ عالم ديروندا ] لن يفعل ذلك ابدا » ( ١٤٧ — ٤٨ ) . وفي الحقيقة لم تقصد المؤلفة مطلقا أن يكون ديروندا ناقدا ، دع عنك متحديا ، للحياة الانكليزية . ان نقده للسياسة الانكليزية عابر تماما ولا علاقة له بموضوعة الرواية . واستنادا الـى فلسفة جورج اليوت فـان صهيونيته وافراده ليسا نتاجـا للحالة « اللاتاريخية » للحيـاة الانكليزية ، واما لانقطاع النمو الطبيعي الناجم عن انفصاله عن العرق اليهودي وروحه القومية . وهذا ما يؤكده وصف جورج اليوت للامة الانكليزية **في فيليكس هولت :**

تلك الثروة من العلم ، الشعر ، رفعة الفكر والشعور ، السلوك ، الذكريات العظيمـة وتفسير السجلات العظيمة ، التي ناولتها لنا العقول من جيل الى آخر (٣٢) .

و **دانييل ديروندا** تقوم على قناعة فيليكس هولت نفسها ، بالنسبة لـ «الامة» اليهودية . ان مقدرة غويندولين عن الاستيقاظ التاريخي تشير الـى ايمان جورج اليوت بأمتها ، سوى ان الاحوال الحاضرة تترك الكثير من الآمال غير ملبى . كذلك فان تقديم مشهد دولي عريض في الرواية يعزز الاحساس بانه « خارج ( القليل مـن الناس في زاوية ويسكس ) وهم يشكلون فعـلا مجتمعا ، يوجـد شيء شاسع ، لا تمكـن معرفته ، تعسفي ومنذر بالشر » (٣٣) . والمؤلفة تريد أن تستحث خيال شعبها على التفكير في قضايا أهم من قضاياهم المحلية. وبكشفها عن العقل الذي جعلته التطورات الاخيرة ضحية للغواية والانغمار في الذات ، تشير الى الامراض القومية التـي تدفع بالامم الى التصرف على حساب الآخرين . ان موت غراندكورت يعكس رغبة جـورج اليوت في أن ترى دمار العنصر الشرير في المجتمع الانكليزي ـ هذا العنصر البادي في حق الحكم والاستعمار وقهر الارادة الذي ينسبه الانكليز لانفسهم :

---

٣١ - D. R. Caroll, «The Unity of "Daniel Deronda",» **Essays in Criticism,** Vol. IX, No. 4, Oct. 1959, p. 372.

٣٢ - M. E. Speare, The Political Novel, p. 228.

٣٣ - Anne Sedgley, «"Daniel Deronda",» **Critical Review,** (Melbourne), No. 13, 1970, p. 12.

لو أن هذا الرجل ذا اليد البيضاء [ غراندكورت ] ... ارسل ليحكم مستعمرة صعبة لكسب شهرة بين معاصريه . فمن المؤكد ان لديه المقدرة ، وانه سيكون قد فهم انه من الامن القضاء على المالكين الحقيقيين بدلا من التودد لهم ، وانه لن يحجم عن اي شيء من هذا النوع . ( ٢ ، ٧٤ )

صحيح ان جورج اليوت في **دانييل ديروندا** اعنف نقدا لامراض امتها منها في رواياتها السابقة . على أنها لا تدير نقدها عبر ديروندا ، وليس اليهود نماذج مثالية يتعين على الانكليز الاقتداء بها : ان لديهم مشاكلهم الخاصة الجسيمة وربما كانت أسوأ من مشاكل الانكليز .

ان موضوعة القومية اوضح بالطبع في معالجة المؤلفة للشخصيات والمشاهد اليهودية . والسبب بسيط : فالانكليز هم ( أمة معمرة، ومكتملة البنيان ، كما تخبرنا في **ميدلمارتش** ) بينما اليهود ، كما تأمل ، امة في طور التكوين . وفي الحقيقة ، تؤمن المؤلفة بان اليهود يمتلكون الخصائص نفسها التي صنعت منهم امة فيما مضى ، سوى ان وضعهم الحالي قد انحط الى درجة لا يمكن معها لليهود ان يستعيدوا وحدتهم القومية بدون ايليا مثل موردیخاي ، وموسى مثل ديروندا .

مما تقدم من شرح لرؤيا جورج اليوت للطبيعة والحياة الاعرض ، يتضح أن مكونات القومية اليهودية هي العرق والدين والتقاليد . وهذه المكونات تشكل « نظاما للطبيعة » يصوغ مصير اليهود الانساني عبر قوى الوراثة والوجود القومي المستمر . ان الطابع العرقي واضح حتى في الوجوه والشعر والايدي والنفسية والعقلية وكل ما يشكل الشخصية اليهودية . تقول ميرا لآل ميريك : « ( لست ادعي شيئا . سوف لن أكون شيئا آخر أبدا ... دائما أشعر أنني يهودية ) » ( ٢ ، ٣٢١ ) . ويقول لها موردیخاي : « ( لقد كان حظنا هو حظ اسرائيل ) » ( ٢ ، ٤٠١ ) . كلا الاخ والاخت « تجسيد لتلك الروح التي دفعت الناس بعد ارث طويل من اعتناق الكاثوليكية الى أن يتركوا الثروة والمكان الرفيع ويجازفوا بحيواتهم هربا [ الى مكان حر ] كيما ينضموا الى شعبهم ويقولوا ( انا يهودي ) » ( ٢ ، ١٥٠ ) . فرغم اناس مثل لابيدوث والاميرة ورغم الشروط الانسانية المنحطة لآل كوهين ، فان روح اسرائيل ، كما تشرحها عقيدة القابالا بشكل خاص ، لن تموت ابدا . ويتضح ايمان دانييل كاريزي المتشدد بانبعاث اسرائيل في رغبته بان يكون له « حفيد يمتلك قلبا يهوديا حقيقيا » وان « ينشيء كل يهودي اسرته وكأنه يأمل أن يبعث فيها مخلص » ( ٣ ، ١٧٩ ) .

ويأتي ( المخلص ) ، ديروندا ، ولكن ليس قبل سياق مضن من « نقل غرسة الذات » من المنفى الى الوحدة مع العراق . اشرنا فيما سبق الى ذلك الجاذب الخفي نحو اليهود ، كقوة من قوى الطبيعة ، الذي يدفع ديروندا ليس الى الكنيسة وانما الى الكنيس ، الى موردیخاي ، الى آل كوهين ومن ثم الى الصهيونية . ان ذلك الحافز العرقي الغيبي ، المحجوب ولكن الحي ، الذي يدفعه الى التساؤل « عن قوة شعوره ، لقد بدا متجاوزا للمناسبة ـ شيئا يمكن ان يتخيله الانسان تدفق رباني في

الظلام ، قبل أن توجد أية رؤيا يمكن تفسيرها » ( ٢ ، ١٣٧ ) . وفيما بعد يصر موردیخاي أن لديروندا رسالة وان « ( الارادات الخاطئة غير المحبة للبشر قد ساعدت على تهيئتك [ ديروندا ] ، كما هيء موسى ، لتخدم شعبك بشكل أفضل ) » ( ٣ ، ٣١٣ ) . وهذا كله يلتقي بتعاطف ديروندا الطبيعي وتوقه الى قيادة مفعمة بالواجب . في البداية ينفر من طلبات موردیخاي : « أيمكن أن توجد ثمة مناشدة اكثر افتراضية ؟ » ( ٢ ، ٣٥٦ ) هكذا تسأل المؤلفة بالنيابة عنه . لكن « الهامات العالم » كلها جاءت بهذه الطريقة ، تؤكد هي . ومن ثم تندمج أشواق ديروندا لوظيفة واجبية بايمان موردیخاي المطلق به . ويبقى ان يتعرف ديروندا على بنوته الحقيقية، لانه لا يمكن لغير اليهودي أن يكون مسيحا . وعندما تكشف أمه عن الحقيقة له يقول :

( لا عجب اذا تقدمت هذه الوقائع وكشفت عن نفسها رغم الاخفاءات . ان النتائج التي هيأتها اجيال ستنتصر على تمحل يريد عوجها لارضاء الذات الانانية . كانت ارادتك قوية . لكن ثقة جدي التي قبلتها ولم ـ تحققيها ـ ما تسمينه نيرا ـ تعبير عن شيء اقوى ، ذي جذور اعمق وابعد انتشارا ، مدفوعة في اسس القداسة بالنسبة للناس جميعا ) . ( ٣ ، ١٨٠ )

بصور عامة ، يلخص هذا المقطع مفاهيم جورج اليوت عن الطبيعة والامة اليهودية . ان الشخصية القومية اليهودية على ما يبدو قوة القدر ، وفيها قداسة لا يمكن ان ينجح الناس في خرقها . انها « النتائج التي هيأتها أجيال » ولها « جذور أعمق وأبعد انتشارا » تجبر اناسا مثل الاميرة على الاقرار بقدسية الحياة اليهودية. وفي النهاية ، عندما يفضي ديروندا لفويندولين بسر مولده اليهودي وبرحلته الوشيكة الى الشرق للتعرف بشعبه هناك ، يقول لها :

( الفكرة التي تمتلكني هي استعادة وجود سياسي لشعبي ، جعلهم امة مرة اخرى ، اعطاؤهم مركزا قوميا ، مثلما للانكليز ، مع ان هؤلاء ايضا مبعثرون على وجه البسيطة . انها مهمة تتقدم الي كواجب ... وانا مصمم على تكريس حياتي لها . على الاقل ، قد أتمكن من ايقاظ حركة في العقول الاخرى ، مثلما أوقظت في عقلي ) . ( ٣ ، ٣٩٧ ـ ٩٨ )

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن جورج اليوت تعرف الصهيونية باليهودية . انها ترى في اليهودية ثقافة عرق محكوم عليها بالفناء اذا لم تتحدد في اطار وجود قومي، وفي الوضع الطبيعي لليهود وجودا تحتويه دولة ، وفي وجودهم الحالي في أوروبا كأمر غير طبيعي او كعنصر سلبي من عناصر الطبيعة . وواضح ان وظيفة ديروندا هي قيادة اليهود في خروج جديد من اوروبا . والملاحظ هو ان المؤلفة لم تفكرا ابدا في دعوة مواطنيها واليهود سواء بسواء للاندماج والتآلف ، وكأنها نفسها لم تقبل فكرة أن يكون اليهود مواطنين بريطانيين .

يلون مفهوم الاتصال والانفصال ايضا نظرية موردیخاي في الامة اليهودية (وهي مشروحة في الفصل الثاني والاربعين) : أمة تمتص أفكار الامم الاخرى وتعيدها الى العالم كثروة جديدة . « ( لكل أمة عملها الخاص ، وجزء من العالم ، تغنى به ويغنى بها ) » . ولكن يتعين على اليهود الحذر من أن يخلطوا بين الاتصال والاندماج . فالمندمج « ( شخصية ذات طموح ومنافسة وضيعين . انه غريب في روحه ، مهما كان في شكله ، انه يمتص دماء الجنس البشري ، انه ليس انسانا ) » . الاختلاط مع الاممين يعني « ( ثوب مواطنة جديدا ) » لا يستطيع ان « ( يحيك نفسه في اللحم

ويغير ترسبات ثمانية عشر قرنا ) » . هذه الترسبات جعلت من اسرائيل « ( كما قال يهودا هاليفي أولا ... قلب البشرية ، اذا عنينا بالقلب لب المحبة الذي يربط عرقا واسراته بحب مفعم بالواجب ) » . وهكذا « ( فان يهوذا جديدة متمركزة بين الشرق والغرب ) » ستكون « ( عهدا للصلح ) » . ان ما يقوله ليلي صديق موردیخاي في نادي ( اليد والراية ) من ان اليهود « ( كعرق يفتقرون الى التطور ) » « ( زائف ) » . « ( فليفحص تاريخهم ويعرف جيدا ) » . يقول موردیخاي : « ( اين يمكن ان توجد أمة مثل هذه يقال فيها ان الدين والقانون والحياة الاخلاقية قد امتزجت في جدول من الدم عابر بالقلب وصنعت نموا موحدا ؟ ) » ان السبب في ان اليهود مقبلون على « اندغام مع العروق » ، كما يعتقد باش ، هو أن « التشتت كان واسعا ، أن نير الاضطهاد كان عذابا ملتهبا وعبئا ، ان المنفى قد فرض عليهم بين شعوب متوحشة . » وستكون فوائد الانفصال أوضح عندما « يتخذ العرق اليهودي مرة أخرى شخصية قومية » . وسيبدأ العصر المسيحي عندما تنجح اسرائيل في « غرس راية قومية » .

أية راية قومية ؟ يسأل باش والآخرون . ان جواب موردیخاي يتضمن أول خطة صهيونية لاستعمار فلسطين ، يقول :

دع الاغنياء ، ملوك التجارة ، المتبحرين في كل معرفة ، الماهرين في كل صفة وفن ، المتكلمين ، المستشارين السياسيين ، الذين يجري في عروقهم الدم العبري ... يقولون سوف نرفع الراية ، سوف نتحد في عمل شاق ولكن مجيد مثل عمل موسى وعزرا ... لديهم الثروة الكافية لتخليص الارض من غزاهم الفاسدين الرعاع ، لديهم براعة السياسي في الاجتراح ، ولسان الخطيب للاقناع ... يوجد بيننا مستودع من الحكمة يكفي لتأسيس كيان يهودي ... جمهورية تكفل المساواة في الحماية ... عندئذ سيكون لعرقنا مركز عضوي ... وسيكون لليهودي المستفز دفاع في محكمة الامم كما للانكليزي او الاميركي المستفز ... صعوبات ؟ أعرف انه توجد صعوبات . ولكن لتتحرك روح الانجاز السامية في العظماء من شعبنا وسوف يبدأ العمل ( ٢ ، ٣٩١ ـ ٩٢ ) . ولتكن هناك هجرة عظمى ثانية ، اختيار عظيم آخر لاسرائيل كقومية ( ٢ ، ٣٩٣ ) .

على الصعيد السياسي العملي نستخلص من رؤيا موردیخاي البرنامج التالي : (١) التمويل من قبل الاغنياء اليهود ، (٢) الاعلام والدعاية ، (٣) الاتحاد في شكل منظمة سياسية ، (٤) استعمار فلسطين ، (٥) واقناع الغرب ان اسرائيل ستكون صلته الثقافية بالشرق . وهذا هو بالضبط ما سوف يصوغه دعاة الصهيونية في مؤتمرهم الاول عام ١٨٩٧ .

قد يكون من غير الضروري القول بان جورج اليوت لم تنظر الى هذا البرنامج من وجهة نظر سياسية . انه ينبع مباشرة من رؤياها للطبيعة ومن توتر محافظ سيطر عليها في أخريات حياتها . وسنرى فيما بعد كيف انها صارت تفكر في الماضي كمثال للحياة الانسانية . ان وجهة نظرها في كون العرق والدين والتقاليد اسسا للقومية اليهودية مستندة الى أن هذه الاسس كانت موجودة قبل ثلاثين قرنا عندما شكل اليهود دولة دامت ثمانين عاما . بعد ذلك ، تقول المؤلفة ، عاش اليهود حياة غير طبيعية منقطعين عن تاريخهم وفي تدهور مستمر . ومن الواضح انها تؤمن ببقاء

اليهود كعرق دونما تغير منذ ذلك الحين وانهم ، أو ان بوسعهم أن يكونوا مثلما كانوا من قبل اذا ما طبقت خطة موردیخاي .

## ٦

ومع ذلك فان شيئا ما قد جعل ديروندا وموردیخاي وميرا « عبئـا يهوديا » في **دانييل ديروندا** ، كما يقول كونستانتيوس لسان حال هنـري جيمس . وسواء أكان تقديم هذه الشخصيات الثلاث « باردا في قرارته » (٢٤) كما يقول كونستانتيوس او نتيجة « لضغط عاطفي متفاغم » (٢٥) كما يقول الدكتور ليفس ، فان سلسلة من النقاد البارزين قد اعتبرت هذا التقديم فاشلا ، ولنبدأ بهنري جيمس .

يقول كونستانتيوس : « بدلا من الشعور بالحياة نفسها ، تحاول [جورج اليوت] أن تشعر بوجهات نظر عن الحياة » ، وان المؤلفة في تصويرها لديروندا قد « تقصدت على ما يبدو أن تخلق انسانا لا يأتيه الباطل » (٢٦٠) . لكن الانسان يشعر « أنه قد نوشد من على أرضية اهتمام مفتعلة » (٢٦١) ، وأن لـدى اليهود « سمكا مختلفـا يقلونه » وان هذه « ليست الطريقة التي ينظرون بها الى انفسهم » (٢٥٥) .

وبالاضافة الى « روح دعابة معطوب » في مجموعة ديروندا ، يقول لزلي ستيفن انه كان بوسع ديروندا أن « يجسد أفكارها [ جورج اليوت ] بكمال أكثر لو أنه بدلا من تكريس نفسه لليهود صار نبيا قائدا فـي كنيسة الانسانية » (٢٦) . ولا يؤمـن ستيفن أن « بوسع الكاتب الذي يبدأ من تجريد أن يجسم بالدراسة الدؤوب أفكاره بحيث تفدو فـي مثـل الحيوية والحقيقية اللتـين تحرزهما بداية مـن الطرف المعاكس » ( ١٥٩ ) .

ويضيف الدكتور ليفس أن جورج اليوت « لم تكن محتاجة الى اعادة تشكيل اللاسامية أو نقيضها . فاليهود كانوا هناك في عالم الواقع المعاصر وقد طرحوا قضايا حقيقية فعالة وجارحة » (٨١) . كما تؤكد السيدة بينيت أنه « ما من قارىء حديث يمكن أن يقبل رسالة ديروندا بدون استفسارات على أساس انها خدمة قيمة للبشر » مع أن بالنسبة لجورج اليوت « فان خلق وطـن قومي لليهود في فلسطين بـدا أمرا لا سياسيا ولا مشاحة فيه » (٣٧) .

يمكننا أن نمضي في ذكر أمثلة أخرى من النقد الادبي ، لكن هذا فيما أظن يكفي

---

٢٤ – Henry James, «**Daniel Deronda**: A Conversation,» first appeared in **The Atlantic Monthly**, Dec. 1876, pp. 684-94, included in Prof. Haight's edition of **A Century of George Eliot Criticism** (Houghton Mifflin Co., 1965), and appended in Dr. Leavis's **The Great Tradition**, pp. 249-66) from which quotations here are taken.

٢٥ – F. R. Leavis, **The Great Tradition**, (the 1955 impression), p. 82.

٢٦ – Leslie Stephen, **George Eliot**, p. 200.

٢٧ – Joan Bennett, **George Eliot : Her Mind and Her Art** (Cambridge: at the University Press, 1954), p. 187.

للتدليل على ان جورج اليوت « تنطلق من المجرد الى المحسوس » (٣٨) وانها قد فشلت في هذا المنطلق بالنسبة لديروندا وموردیخاي وميرا . وسأضيف هنا ان ستيفن يشير الى عزلة المؤلف الاجتماعية في اخريات حياتها ، وان النقاد المعاصرين لها شعروا بعدم الرضى من جهامتها المتزايدة في **ميدلمارتش** و **دانييل ديروندا** ، وان ـ وهذا اهم ـ الاستاذ حيث يشير في **جورج اليوت ـ سيرة** الى محافظتها المتزايدة التي يعتقد انها قد بدات حوالي عام ١٨٦٥ . وهذا هام لكونه يكشف ولو جزئيا عن اهتمام جديد في حياتها وهو ان الاشياء تسوء على نحو لا علاج له ، كما هو واضح في روايتيها الاخيرتين المتميزتين بتشاؤمية لم تكن واضحة في اعمالها السابقة . وفي **دانييل ديروندا** يتقاطع « ايمانها بالامكانات الرائعة للطبيعة البشرية » مع خوف آخر من العالم قد اصبح لا شخصيا وجبريا الى ابعد الحدود . فبعد كل شيء لسنا متأكدين من ان غويندولين لن تكون دوروثي بروك اخرى مستسلمة او ان ديروندا سينجح في رسالته ( كثير من النقاد ، مثل د . فيليبسون ، ستيفن ، مودر ، د . روزنبرغ ، يؤمن انه لن ينجح ) . وهكذا فان ايمان جورج اليوت ، الذي لم يهجرها قط رغم اسفها من ان « الانسان فقط شرير » (٣٩) ، قد تضخم وازداد تجريدا ليعادل في خيالها ضغط الحقيقة المتزايد ، ضغط الوقائع التي خلقتها القوى اللاشخصية للحاضر على هذه الامكانات الرائعة . ان تكرر ورود شخصية مثالية ( روموﻻ ، فيليكس هولت ، فيدالما ، دوروثي بروك ودانييل ديروندا ) يشير الى ان ثبات هذا الايمان وتجاوزه للواقع قد اضعفا كتاباتها فنيا . وكما ازدادت الامور تخييبا ازداد هذا التوتر في نفسها قوة وازداد تصويرها للشخصيات النبيلة بعدا عن وقائع الحياة . وفي حالة ديروندا فان ثمة مصدرين للضغط يفعلان في نفسها . فمن جانب اول ، غدا الشعور بالاستحالة من العمق فيها بحيث انها لم تستطع ، مع انها ربما تكون قد ارادت ، أن تؤمن بنجاته من « النسيج المتشابك » فيما لو عرضته الى عالم الحقائق العملية كما فعلت مع غويندولين :

> مؤخرا ، في نزهاته المتوحدة ، كان ديروندا مشغولا بصورة رئيسية بتشككات تتناول مجرى حياته، ولكن هذه التشككات التي اخذت راحتها كانت معتادة على ارتباطات جارفة الاتساع بالحياة والتاريخ بحيث ان الصورة الجديدة للاسى اليائس فرجت نفسها بسهولة مع ما بدا له صفا قويا من الاسباب التي تدفعه الى الاحجام عن الدخول في نمطية العالم التي تجعل الناس يعتذرون عما فيه من اخطاء وينادون بآراء هي مجرد تجهيزات مهنية ـ تدفعه الى الاحجام عن سحب اي خيط مما نسجته خطة الاشياء المتشابكة بلا امل . ( ١ ، ٢٨١ ) .

هذه هي عبارة ـ مفتاح لفهم شخصية ديروندا . لقد كشفت له « نزهاته المتوحدة » عن « تشككات » تؤثر في « الحياة والتاريخ » بطريقة تجعله « يحجم » عن الدخول في التجارب الانسانية العادية . ويضاف الى ذلك «صف قومي من الاسباب» يمنعه من الاختيار واتخاذ المواقف في « خطة الاشياء المتشابكة بلا امل » . فالمؤلفة ـ ومثال غويندولين هي في ذهنها ـ ليست متأكدة من ان ديروندا سيخرج من هذه

---

٣٨ ـ Henry James, **Partial Portraits** (London : Macmillan & Co. Ltd., 1905), p. 51.

٣٩ ـ Cross, **George Eliot's Life**, p. 493 ; in a letter to Mrs. Cross the mother.

التجارب بلا دفعات على شخصيته ، دمغات لا تريد هي بالتأكيد ان تلطخه : انها مصممة على خلق انسان ناصع لا يأتيه الباطل .

ومن جانب آخر ، فان تعاطف المؤلفة مع اليهود قد « شبكها » بالاعتقاد بانها عندما تجدهم تكون قد عوضت لهم قليلا عن اضطهاد كبير . ومن اننا لا نستطيع أن نكون متأكدين تماما . فان التفسير الارجح لفشل المؤلفة في تشخيصها لليهود الثلاثة يكمن في ان تعاطفها مع اليهود قد شل حسها الجسيم بالنقد الذاتي فيما يتعلق بالادب . على الارجح انها فكرت بان المديح المتزايد للشخصيات الصهيونية سيثير تعاطفا متزايدا لدى القاريء تجاه اليهود مما جعلها ، على حد تعبير الدكتور ليفس ، ترهق موهبتها ( بتوهمات احلام اليقظة ) . ومن هنا يأتي شعور عدد من النقاد بانه من غير المحتمل أن ينجز ديروندا شيئا في فلسطين . ويتهمها الدكتور ليفس بعدم الاخلاص ، وحكمه أن « كاتبة بمثل هذا الذكاء لا يمكن ، على اي مستوى ، أن تكون مقتنعة بالالهام من غير أن تغض الطرف أو تتواطأ [ ضد الحقيقة ] » . (٨١) . وليس هذا الحكم عادلا تماما بالنسبة لايمان جورج اليوت واستقامتها . فبالاضافة الى التعاطف ، واضح انها قد اعتمدت بشكل غير معقول على فعالية الطاقة العرقية والدينية والتراثية .

فيما يلي سنحاول الاشارة الى حيث اخفقت جورج اليوت في ان تفعل وتخرج ديروندا وموردیخاي وميرا من اطار الفكرة الى الواقع المعاش .

في انطلاقها من المجرد الى المحسوس ، كما يكتب جيمز ، هناك امكانية الاقناع التي لا بد منها لاية شخصية ، وهي غير مريحة بالنسبة لخطة المؤلفة . انها واعية بمخاطر تقديم شخصية مثالية وقد حاولت أن تتفاداها دون ان تقلل من كمال تلك الشخصية . بعض الحيل التكنيكية اكتشفها جيمز وانطقها بولكيريا : « ديروندا يمسك بياقة سترته ، ميرا تصالب قدميها ، موردیخاي يتحدث كالتوراة » (٢٥٣) . كذلك ثمة غيرة ديروندا من اعجاب هانز ميريك بميرا ، ونفوره العابر من غويندولين الذي يشعر به مرتين في الرواية ، ثم لقاؤه بميرا قبل لقائه بغويندولين . لكن هذه الحيل تأتي بالنتيجة غير المرغوبة وهي اخراج ديروندا من شخصيته بدلا من اظهاره ككائن بشري عادي : لقد كرست عشرات الصفحات لوصفه قبل أن يحدث له اي شيء وذلك بغرض تصويره كـ « طفل ملائكي » و « لوحة تيتانية » زاهية و «الملاك جبرائيل» و « بوذا » و « الامير قمر الزمان » و « موسى او محمد » و « الكاهن الاعظم » ـ وباختصار ، كرجل فوق ـ بشري يعيش تبعا لمباديء ارفع من مستوى الحياة البشرية . وهكذا تفيض جورج اليوت على ديروندا بافضل الاوصاف الممكن ايجادها في اللغة ، معتقدة ان هذه هي الطريقة المثلى لتقديم شخصية مسيح قائد . لكن هذا التقديم جعل منه شخصية جامدة رغم تفوقها . وهو لا يختلف عن سيدونيا كثيرا في هذا المضمار ، فكلاهما عاجز عن الفعل . ولكن بينما يعلق سيدونيا في معضلة ماذا يفعل ، يسقط ديروندا أسيرا لمزاياه المتفوقة : « ان تفهمه الذي استيقظ فيه باكرا وتأمليته العميقة قد تطورا الى تعاطف متعدد الجوانب هدد بعرقلة اي مسار عملي مستديم » ( ٢ ، ١٣١ ) . كما أن ميله الى التلقي يسيطر باستمرار على ميله العملي

المفترض ، مما يظهر شخصية تحدث لها الاحداث ، بدون مشاكل ولا أخطاء ولا رغبات شخصية تعلم الانسان وظيفته الحقيقية التي ، ليس يتوق لها ، وانما يستأهلها ، وليس من الممكن أن نحصي عدد المرات التي « أحجم » فيها عن فعل أو موقف أو شعور ، أو أن نعرف لماذا « أخضعت » و « قمعت ذاتيا » « حميته » و «حماسته» . ( « لقد أحجم عن هذا المشروع » . « لقد أحجم عن الظهور بمظهر من يدعى سيطرة ... » « أحجم بنفور عن مرارة الخاسر » . « كان تميزه الطبيعي هو أن يحجم عن ... » « ازاء موضة الجهل والبلادة أحجم ديروندا . لكنه أحجم أيضا عن ...» وشيء ما « جعله يحجم عن الاعتراف برغبته » . «أحجم عن الكلام» ) (٤٠) . ان أي قائد يتحمل مسؤوليات صنع أمة لا يمكن أن يكون هكذا . فديروندا ليس فقط انطوائيا ، وانما هو اساسا شخصية نسوية . تكتب الآنسة روبنسون :

كان ينبغي لديروندا ان يكون امرأة ، كما هو الحال فعلا بالنسبة لنظراته في روايات جورج اليوت الاولى . فكطفل يظهر دانييل « مزيجا من جهل الطفل ومعرفة مفاجئة نراها غالبا في الفتيات الذكيات » ... ان له « طبيعة متوهجة متعلقة » ... و « تحركه عاطفية يمكن ان نسميها انثوية » . وعندما يلتقي بوالدته يشعر ان « الوانه تتغير كفتاة » ... « فجميع ما غاب عنها [ امه ] كامرأة كان حاضرا فيه » . وفيما بعد يشفق دانييل على امه « بأكثر من حدة الوجد عند امرأة » (٤١) .

ولقد نتج عن جهد المؤلفة المنقطع النظير لجعل ديروندا يبدو مذكرا أن التقينا بشخصية مبشر مستعد باستمرار لان يلقي موعظة على النساء . يقول السيد هيوغو لديروندا : « دائما تنظر الى النساء بحنان وتتحدث لهن بطريقة جزويتية » (٢ ، ١٢٦) . أما تجاه الرجال فهو انسحابي على نحو غريب . وزيادة على ذلك ، فان الوصف البراق الذي منحته له المؤلفة قد جعله ، ليس شخصية ، وانما كومة من المزايا المتناقضة :

وحدث ان حيوية انطباعاته نفسها ... قد اسهمت في خلق رجرجة واضحة في عواطفه . ان تفهمه وتأمليته اللذين استيقظا فيه باكرا قد تطورا الى تعاطف متعدد الجوانب هدد بعرقلة اي مسار عملي مستديم ... وان تعاطفه الجم المرن قد انتهى بالسقوط في تيار واحد مع التحليل المتأمل الذي يميل الى تعطيل التعاطف . قليلون هم الذين يستطيعون ابقاء انفسهم بعيدين عن الرذيلة ، ومع ذلك فقد كره الرذيلة قليلا فقط ... وبالتوازن الباطني نفسه كان ديمقراطيا بحميا في مشاعره تجاه الجمهور ، ومع ذلك ، وعبر محباته وخياله ، كان محافظا بشدة ، كان منهما في تفكراته بشأن الحكم والدين ، ومع ذلك كارها للانفصال عن الصيغ المعتمدة منذ عهد طويل ... وقد تشكك ديروندا في انه احب اكثر مما ينبغي قضايا العالم الخاسرة . ( ٢ ، ١٣١ - ١٣٢ ) .

ونعتقد ان من سيؤمنون بمعقولية شخصية كهذه قليلون جدا .

ثمة ثلاثة أسباب أخرى تفسر فشل المؤلفة في فعلنة الفكرة المجردة التي انبثق منها ديروندا . أولها هو أن صوت المؤلفة قد استخدم لصالحه الى درجة انتفت معها اية فرصة لفصله عن ضمير خالقته ووعيها الاخلاقي بحيث يتمكن من الاحتكاك بالواقع باستقلال ـ كما هو الحال مع غويندولين : « اعذروه : فعقله لم يكن قادرا على

٤٠ - **Daniel Deronda**, I, 253; I, 288; II, 132; II, 351; II, 352; II, 361; II, 403.

٤١ - Carol Robinson, «The Severe Angel: A Study of **Daniel Deronda**,» **English Literary History**, Vol. 31, Sep. 1964, p. 278.

الاندفاع العفوي نحو الافكار المهينة » ( ١ ، ٣٠٨ ) . عندما يبحث عن عزرا كوهين الذي يمكن أن يكون أخا ميرا ، تكتب جورج اليوت : « أعترف أنه رغب بشكل خاص في الا يكون عزرا كوهين دكانيا » ( ٢ ، ١٥٩ ) . ان تقديره الكبير هو بوضوح وراء هذه الرغبة ، لكن المؤلفة تشعر ان الفكرة هذه غير منصفة للدكانيين ، لذلك ( تعترف ) بها وكأنها ــ المؤلفة ــ من سيلام على تفكير ديروندا وخطيئته الفادحة هذه ! كذلك فالمؤلفة تقوم بالمرافعة التالية بالنيابة عن ديروندا : « أرجوكم اعذروا ديروندا لانه في هذه اللحظة شعر بتجدد عابر لنفوره من غويندولين » ( ٣ ، ٢١ ) . فبينما لا يوجد شيء لا انساني في الشعور بالنفور ، وخاصة أنه شعور عابر ، فان المؤلفة تعتقد ان هذا الشعور سيلطخ تعاطف ديروندا المطلق وشعوره بالاخوة الانسانية. وهكذا تحرص المؤلفة باستمرار على الا تضع ديروندا في اي وضع انساني من هذا النوع .

والسبب الثاني هو الخدعة التكنيكية التي تربطها جورج اليوت بمفهومها عن النسيج المتشابك والخيوط التي تكونه . فلكي تدعم المؤلفة فلسفتها لقوى الارث الكلية الجبرية ، ولتظهر معقولية اعتناق ديروندا للصهيونية عبر هذه القوى ، ولكي تثبت صحة رؤيا موردیخاي كجزء من طبيعة الاشياء ، تبقى سر نبوة ديروندا مجهولا حتى يتم اقتناعه الخاص بمسؤوليته تجاه اليهود ويبقى متوقفا فقط على كونه يهوديا . هذا التأجيل في كشف السر مقصود به اظهار التزام ديروندا كاختيار عقلاني ــ وجداني ناجم عن فعالية قوى العرق الكامنة فيه . وهكذا حجبه تكنيك المؤلفة عن صراع حقيقي كان يمكن أن يخلق منه كائنا بشريا . فلو انه نشأ عارفا بسر ولادته وترك ليختار بحسب المفهوم الاخلاقي للنسيج المتشابك ، فانه ، مثل موسى ، كان سيمضي بين الناس بصراع ملموس يجعل شخصيته واختياره أكثر إقناعا وواقعية ، كما حدث لغويندولين . ان امكانية وجود مثل هذا الصراع في ديروندا اذا ما عرف بأصله اليهودي موجودة في اعلانه لموردیخاي :

( لو ان هذا الكشف قدم لي قبل ان اعرفكما انتما الاثنين [ ميرا وموردیخاي ] فأعتقد ان عقلي كان سيتمرد عليه . وربما ظننت حالتذاك ــ لو امكنني الاختيار لما كنت يهوديا ) ( ٣ ، ٣١٤ ).

اذن فان ديروندا كان سيفضل الاندماج لو انه عرف بأصله اليهودي قبل لقائه بموردیخاي . ولكن موردیخاي مارس عليه ، فيما يبدو ، تأثيرا مسيرا ، يضاف اليه تأثير ميرا التي احبها . ان اختيار الصهيونية، كما رأينا في الفصلين الاول والثالث ، قد جاء كرد فعل على ظروف موضوعية وليس عبر النفوذ الغيبي للعرق والتراث . ان الاقتباس السابق يظهر ان المؤلفة قد جعلت بطلها يختار الصهيونية للاسباب الخطأ . قبدلا من تقديمه مهموما بصراع من النوع الذي خاضه دزرائيلي مثلا ، حصرته في مفاهيم مجردة عن الطبيعة والكمال الاخلاقي وقادته من يده حتى أوصلته الى مفهوم جديد عن القيادة لا يتناسب مع شخصيته كما بينا سابقا .

والسبب الثالث في فشل المؤلفة يعود الى أن ديروندا ، مسيرا باتجاه اكتشاف الحركة الصهيونية ، يلتقي باناس ثانويين ( آل ميريك ) وبتجريدين آخرين(موردیخاي وميرا ) . ان مهمة آل ميريك في الرواية تقتصر على اخبار ديروندا بروعة ميرا وعلى

اخبار ميرا بكمال ديروندا ، واخبار القاريء بان الاثنين قد خلقا لبعضهما بعضا . فقد راقبت الاوانس ميريك « وسجلن كل نظرة من صديق اخيهن ، الذي أعلن [ هانز ] انه [ ديروندا ] كان خلاصه ، انه انسان ليس كبقية الناس ، وباختصار ، تحفة . لقد تقبلن ديروندا كمثال الى درجة ان صغراهن شرعت فور ذهابه ... برسمه في صورة الإمير قمر الزمان » ( ١ ، ٢٧٥ ) . ثم يقلن لانفسهن ، فيما تصغي ميرا لهن انه « لا يحق لاية امراة ان ترغب في الزواج منه ... تصوري ان الخياط يرسل له فاتورة او ان لحذاءه قالبا كما هو الحال مع اخينا » (٤٢) . أما السيدة ميريك ، التي لا تكل عن وصف ميرا وذكر محاسنها ، فتقول لديروندا : « انها لؤلؤة وحسب . لقد ساعد الوحل على جلائها » . ( ١ ، ٣٣٤ ) .

تقول بولكيريا عن ميرا : « انها مادة مجلة حديثة » ( جيمز ، ٢٥٨ ) . وتقول عنها المؤلفة انها « الملكة بدور » . ويمكن وصفها ايضا بانها ببغاء تمتلك لغة لا حد لها تصوغ منها جملا تبدأ بـ « أنا » ثم تستمر لتصف كم رائعة هي امها واخوها واليهودية . وهذا بالطبع لم يخلق منها شخصية مقنعة . فمع انها تماثل ربيكا سكوت وايفا دزرائيلي ، الا انها اكثر تجريدا منهما بكثير : طفلة البراءة الطبيعية ، رمزلعصور من المعاناة والعزلة عن التاريخ والعالم . أما كونها « متعلقة باليهودية التي لا تعرف عنها شيئا » ( ١١١ ، ١٨٣ — ٨٤ ) ، كما تقول الاميرة لابنها ، فطريقة اخرى لتقديم تأثير اليهودية الغيبي على اليهود ، هذا التأثير الذي انتصر على القوى المدمرة للطبيعة باصالته وقوة احتماله . وميرا ايضا اميرة في المنفى تتحد في المآل مع شعبها ومع وعي بالتاريخ . والسبب في انها لا تشعر ، مثل غويندولين ، بأنها « مجهزة جيدا للسيادة على الحياة » ( ١ ، ٥٤ ) هو أن عرقها ، بعكس عرق غويندولين ، مشرد على ظهر الارض .

لكن هذا لا يجعل منها غويندولين ، لحما وروحا حيين . وباستثناء نجاتها من تأثير القوى المدمرة ، لا تفعل ولا تستطيع ان تفعل شيئا لاعادة ذاتها الى الطبيعة . وينبغي الا ننسى انها كانت على وشك الانتحار يأسا . ان صراع قوى الطبيعة هو الذي ينجز خلاصها وليس هي . ومثل ديروندا ، هي انسانة تحدث لها الاحداث ، وكان ممكنا لولا مساعيه الحميدة ان تستقر في قاع التيمز منسية الى الابد . هذا الانقاذ لها هو ، رمزيا ، لقاء بالمصادفة هيأته قوى خارجية تحرك كلا الشخصيتين كمتلقيين وليس كفاعلين . لا أحد منهما يناضل في عالم الاشياء ، وتلك نتيجة لايمان المؤلفة المتأخر بان الاخلاقية سابقة على التجربة . وقد يبدو هذا الايمان غريبا اذا ما تفحصنا لا ادرية جورج اليوت حيث تكون التجربة محكا للافكار والمباديء واليقينات . ولدينا هنا تفسيران : الاول هو احساس المؤلفة المتأخر باليأس ، الذي أشرنا اليه سابقا ، والذي قلب ايمانها بالمستقبل وجعل من خلاص غويندولين نصرا مرا . والثاني — وقد يكون نتيجة للاول — يجيء من تفسير المؤلفة للصهيونية كمضمون غيبي صوفي وليس كرد فعل على وقائع الحياة الكريهة . ان وجهة نظرها في أن الروح اليهودية

---

٤٢ — Quoted by Stephen, **George Eliot**, p. 187.

تقود خطى ديروندا نحو الصهيونية تغدو تعسفية وتوهمية اذا ما تذكرنا ان الاضطهاد، وليس الخصائص الغيبية لليهود ، كان القوة الاعظم التي ادت الى ظهور الصهيونية .

أما رؤيا موردیخاي فقد صارت الآن واقعا سياسيا مرا ، وهـذا مـا يجعل مناقشتها كموضوع ادبي محرجة. على اننا لن نبتعد عن الحقيقة اذا قلنا ان موردیخاي هو أيضا مثال . ان يكون للناس انبياء ليس أمرا مستحيلا تمـاما ، وخاصة بالنسبة لليهود الذين يبدو أنهم يحتاجون باستمرار اليهم . لكـن تقـديم موردیخاي كنبي تتجاوز ، ليس ( الصيغ الروائية ) كما يقول السيد برير ، وانما تجربة المؤلفة بالذات. ان مقارنة سريعة بين موردیخاي والامير ميشكين في « أبله » دوستويفسكي تظهـر القصور الفاضح للمؤلفة في هذا المضمار . لا حاجة بموردیخاي الـى التكلم بلغـة التوراة أو الوقوع في غيبوبات لكي يقنع يهود العصر الفيكتوري بالبحث عن وحدتهم القومية كيما يوقفوا مضايقات الاوروبيين لهم . ومن المؤكد ان عـددا مـن اليهود الاوروبيين والفيكتوريين كانوا يفكرون باستعمار فلسطين منـذ ثلاثة عقـود ، وان اربعينات التاسع عشر شهدت قيـام « اول منظمـة ( صهيونية ) [ فـي فلسطين ] وسميت جمعية مونتفيوري » (٤٢) .

ومثل ديروندا وميرا ، أبعد موردیخاي عن الصراعات الداخلية التي يمكـن أن تبرز خصائصه النبوية . وتاريخه الشخصي يبدأ في الرواية بعيد مباشرته رسالته الصهيونية . لكنه يترك اكمالها لسبب غريب هو حرصه على الاعتناء بامه . واذ يفشل في اقناع اي من اليهود الانكليز برسالته يغدو متعبدا طيلة السنوات الاثنتي عشرة الاخيرة من الثلاثين التي عاشها ، ويقتات بالرؤى والابتهالات . ان حديثه في نادي « اليد والراية » منقطع تماما عن تلال الوقائع التي يغمره بها أصدقاؤه ( الفلاسفة ) . ان ما يقدمه لشخصية تجريدية مثل ديروندا هو شخصية تجريدية اخرى .

كذلك فان تطوير هذه الشخصيات الثلاث مبني على سلسلة مـن المصادفات يتعين علينا ان نسلم بها دون نقاش كيما نؤمن بواقعية ما يقال . يجب ان نقبـل بأن ديروندا ، وليس اي انسان آخر ، قد كتب له أن ينقذ ميرا ( ٢ ، ١٤٠ ) . وعلينا ان نقبل بان الروح اليهودية قد قادت ديزروندا وكالونيموس الـى اللقاء فـي الكنيس ، وديروندا وموردیخاي الى الالتقاء عند الجسر على التيمز ، وان اسم عـزرا كوهين يفضي به الى اكتشاف موردیخاي كشقيق لميرا ، وان موردیخاي يكتشف فيه رجل رؤياه ، وان الاميرة التي تمحلت كي تخفي عـن ابنها سر أصله اليهـودي تستسلم لشعورها بالذنب المكون بالروح اليهودية . هذه في اللحظة المناسبة التي تتطلبها الرواية كيما يقبل ديروندا بمطالب موردیخاي .

يمكن القول ان المصادفات نتائج لعلل لا نعرفها ، لكن المشكلة هي اننا نعرف هذه العلل ، وهنـا يكمن النقد الرئيسي . فـاذا سلمنـا بتركيب حبكـة موردیخاي ـ

---

٤٢ – M. F. Modder, **The Jew in the Literature of England**, p. 245.

ديروندا ـ ميرا تعين علينا التسليم بمفهوم جورج اليوت عن التأثير الميتافيزيقي للارث والتراث . وكما يكتب الدكتور ليفس بحق فان

دين الوراثة والعرق ، كحل معمم لمشكلة [ ديروندا ] ، امر لن تصمد جورج اليوت امام اي تحد مباشر له . ( ٨٤ ـ ٨٥ ) .

ان سؤال هانز ميريك الهام لميرا : « وماذا يهم اذا كانت امراة كاملة يهودية أم غير يهودية ؟ » ( ٢ ، ٣٢٢ ) ، يرمى بلا مبالاة من قبل المؤلفة ولا يجاب عنه ابدا . وليس فقط ان ديروندا مسوق بقوة الروح اليهودية الميتافيزيقية وانما يكون في الكنيس « الوحيد في مشاعره ، وربما الوحيد بين هذا التجمع الذي عنت له الصلاة شيئا اكثر من نمطية بليدة » ( ٢ ، ١٣٧ ـ ٣٨ ) .

مطلوب منا أن نفهم ، بالطبع ، ان شعور ديروندا واحد من « الجذور العميقة التي لا تقتلع » (٤٤) لطبيعة الانسان . لكن القاريء يتساءل عما اذا كانت المؤلفة قد ابتلعت الكثير من اللامنطق أم لا . ان الارادة البشرية ، التي تشكل جزءا حاسما من فلسفتها ، قد تقلصت في حالة ديروندا الى تلق سلبي للكشوف العرقية . وتبدو محافظة جورج اليوت هنا في كون الاستعادة ، وليس الابداع والتجديد ، هي الحل الوحيد لمشاكل البشر . سوف ننفي جميع الحقائق والوقائع اذا نحن اصرينا على القول بان اليهود في الكنيس وآل كوهين واليهود الذين رفضوا رسالة موردیخاي مقطوعون عن الطبيعة وان خصائصهم العرقية عاطلة وانهم قد سقطوا الى قاع لا يمكن لغير نبي أن ينتشلهم منه وان حياة اليهود ليست مجموعة من التجارب الحية وانما خلاصة مؤثرات عرقية اكل الدهر عليها وشرب .

كان على المؤلفة أن تنتبه قليلا الى عبارة السيد كوهين الراضية : « لن اغير عملي بأي شيء في العالم . . . أحب عملي ، أحب شارعي ، وأحب دكاني » (١٧٣،٢).

ثمة أمثلة أخرى ، ثانوية لكنها مهمة تظهر كيف ان اللا ادرية عند جورج اليوت قد تخلت عن مكانها للغيبية فجعلت المؤلفة بذلك تتخلى عن وقائع لاجل حكم اخلاقي نظري ومجرد . في مشهد النادي ( الفصل ٤٢ ) ، الذي اهمله معظم النقاد ، يقدم كل من ( الفلاسفة ) وجهات نظر تتعلق بوجود اليهود في المجتمعات الاوروبية . باش اندماجي وفخور بيهوديته ، لكنه « لا أرى لماذا تعتبر نفاياتنا مقدسة اكثر من نفايات البراهمانية او البوذية » . اما بيوكان فيريد ادارة عجلات التطور على دروب تقدمية ، ويدعو جدعون « للتخلص من جميع الخرافات » قبل « الذوبان تدريجيا في المجتمعات التي نقيم بينها » ، ويؤمن ان « علاقة عرقنا بفلسطين . . . قد انحرفت بفعل الخرافة حتى افقدتنا اخلاقنا » . ولا يؤمن ميللر بما يقول موردیخاي عن « اشياء » الماضي العظيمة التي قام بها الشعب اليهودي على صعيد عالمي . » . . . لا شيء من هذه الافكار الهامة يعطى ما يستحقه من بحث وتحليل . وقد آثرت المؤلفة ايراده للتدليل

---

٤٤ - **The Mill on the Floss;** quoted by Thomas Pinny, «The Authority of the Past in George Eliot's Novels,» **Nineteenth Century Fiction,** Vol. 21, No. 2, Sep. 1966, p. 172.

على غربة النبي ( موردیخاي ) بين أهله وعلى تدهور هؤلاء الاهل بسبب ايمانهم بالاخوة الانسانية العالمية ودعوتهم للاندماج !

أمر آخر هو الجريمتين نصف المرتكبتين لغويندولين وميرا قد حوكمتا بطريقة مختلفة . فبينما تخترق غويندولين عذابات مروعة لتأخرها في محاولة انقاذ غراندكورت من الغرق ، تبرر محاولة ميرا الانتحار على الاساس التالي :

( ظننت انه [ الانتحار ] لم يكن [ عملا ] شريرا ، الموت والحياة امام الابدي شيء واحد . اعرف ان آباءنا ذبحوا اولادهم ثم انفسهم ليبقوا ارواحهم نقية ) . ( ١ ، ٢٨٨ ) .

اننا لا نتوقع من جورج اليوت ، مهما كانت الاسباب ، أن تعتبر الانتحار جريمة.

أما حالة الاميرة فقضية أكثر بروزا ، وقد جعلها كذلك جهد غير واع من المؤلفة. فالمؤلفة تحكم على الاميرة بالعذاب الروحي والجسدي بفعل عدم ولائها لعرقها وتقاليدها . لكن الاميرة تتقدم بدفاع بالغ القوة ومتقن التعبير ، بايمان لا يتزعزع ، ضد مطالب ابيها المقيدة وحتى المهووسة . انها واحدة من الامثلة القليلة عن شخصية قصصية تتمرد على حكمة مؤلفها الاخلاقية فتكسب باستمرار تعاطف القاريء ضد حكم المؤلف . وتغدو قضية الاميرة أكثر قابلية للمغفرة عندما تقارن بالقضية المماثلة لكاترين آروبوينت التي تبارك المؤلفة عصيانها لابويها .

ثمة نقطة اخيرة تتعلق بنقلة جورج اليوت من الواقعية الى الغيبية . فكما تشير السيدة بينيت : « ان حقوق العرب في فلسطين لم تدخل رأسها قط » (١٨٦) . ولو انها تفحصت حقائق الحياة لوجدت في اقطاع فلسطين للصهيونيين نوعا من المقامرة التي رفضتها على أساس أخلاقي .

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

# الفصل الخامس

## الصهيوني : رائدا ومستعمرا

### ١

على العكس من جورج اليوت في **دانييل ديروندا** ، يقدم اسرائيل زانغويل شخصيته الصهيونية في بيئة يهودية واقعية . ان يهود جورج اليوت مستمدون من وعيها الاخلاقي المطعم بالتعاطف والغيبية . ومع ان زانغويل لا يخفي مثالية رافايل ليون ، واحيانا يداعبها بخفة ، فهو يتدبر امر ابقاء ليون في اطار من الحياة الملموسة. فبينما ينفلت ديروندا نحو الشرق ليتعرف بشعبه هناك ــ وكأنهم فعلا موجودون في فلسطين ــ يدرك ليون منذ البداية ان مهمته الحقيقية تبدأ في شرقي وغربي لندن .

ان زانغويل يفهم شعبه بدقة ، ويستوعبهم كبشر ليسوا قديسين مثل ( رياه ) وديروندا ولا غيلان مثل ( فاغن ) و ( ملموت ) ، وانما اناس عاديون لهم فضائلهم ورذائلهم . وبدقة تصويرية يكشف لنا في **ابنـاء الغيتو** (١٨٩٢) الخلفية التي دفعت بليون الى الصهيونية. وعبر ذلك تظهر العادات والسلوك والتقاليد والروحانية والمادية والالق والقذارة في المجتمع اليهودي على نحو موضوعي يصعب معه تبين وجهة نظر المؤلف . فهو ، مرة اخرى ، لا يقود شخصيته كما تفعل جورج اليوت نحو هدف محدد سوى الرغبة باصلاح وضع اليهود ، وانما يوضح بجلاء تام أن الاضطهاد والمذابح قد عزلا اليهود في اوروبا داخل « بدايات غيتواتهم الخاصة » (١) . فهم حتى في مجتمع متسامح نسبيا كالمجتمع الانكليزي يعيشون في انفصال تام ، حيث يحافظون على « أحلامهم الشاعرية واطاعتهم الراسخة لشريعة ثقيلة ، وانضباطهم العائلي وأملهم الحي في مستقبل جميل على وجه هذه الارض » (٢) .

ينقسم الكتاب الى قسمين ، يصف الاول منهما « النهاية الشرقية » للندن حيث يعيش اليهود المملقون ، والثاني « النهاية الغربية » للندن حيث ينعم أغنياء اليهود بحياة انكليزية الطابع . ولا حاجة للقول بان الطابع العام لحياة ( النهاية الشرقية ) هو

---

١ – Israel Zangwill, **Children of the Ghetto : A Study of a Peculiar People** (1892 ; rpt. London : Macmillan and Co. Ltd., 1902), p. X.

٢ – **The Spectator,** LXXX, p. 44, quoted by Modder, **The Jew in the Literature of England,** p. 342.

الفقر المدقع . فأسرة آنسل مثلا تعيش اسبوعا كاملا على رغيف من الخبز ، والعاطلون عن العمل يتسولون لقمتهم فيشكلون صفا طويلا من « شنورر » أو الشحاذين . كذلك يتجمهر طالبو اعاشة الحساء والخبز أمام المؤسسة في شارع الازياء بمعدات متقلصة واجساد راعشة . اما بائع الثياب العتيقة ـ مثل سيمون في **هارنفتون** ـ فشخصية معروفة في الشوارع بمحياه الذابل ونسخته المهترئة من الشريعة المقدسة .

الطابع الاخر لهذه الحياة هو التشرذم الذي يعكس الاختلافات العميقة في الشخصية اليهودية بحسب كل قطر من اقطار اوروبا . واهم ملامح هذا التشرذم هو الانقسام التاريخي بين الاشكنازيم والسفارديم : الاولون من اوروبا الشرقية والوسطى، والآخرون من اوروبا الجنوبية. وبين الاشكنازيم انقسامات فرعية لا تحصى بسبب كثرة الاقطار التي جاءوا منها : ليتوانيا ، بولونيا ، روسيا ، اوكرانيا ، المانيا ، البلقان ... اما السفارديم فيفخرون بان « سوء لفظهم للسان المقدس هو وسيلتهم للعلو على المنوعات [ اليهودية ] الاجنبية » (١٣) . لكن المؤلف يظهر لنا رابطة من الاخوة تجمع اليهود رغم تشرذمهم : لقد علمهم العذاب ضرورة التضامن ولذلك فهم يطبقون تعاليم الشريعة باشراف الحاخامين تطبيقا يتلاءم في دقته مع التفاصيل التلمودية التي لا تحصى والتي تنظم دقائق حياتهم منذ لحظة الولادة حتى لحظة الموت . وباطاعتهم للشرعية وجدوا نوعا من السلوى والحماية النفسية تجاه حقائق الحياة المريرة . لكن هذا الطابع الديني الصارم قد خلق انقساما جديدا ، لا يقل عمقا عن الانقسامات السابقة ، بين القديم والجديد . فبعد أن انتقلوا الى بلاد منحتهم الحرية وحقوقا متساوية مع البريطانيين ، أدار الجيل الجديد ظهره لليهودية ونشدوا الاندماج مع الاممين . وفي الحقيقة فقد تحولت الشريعة الى شكلية متصلبة وطقوس جامدة بدءا بالطعام « الكوشر » ( الطهور ) وانتهاء بالتزاوج مع الاممين . التراث التلمودي الذي مجدته جورج اليوت يواجه الآن ثقافة غربية متحررة تهدد بزواله . وتزداد المشكلة تعقدا بفعل موجات من الهجرة قادمة من اوروبا الشرقية والوسطى بعيد المذابح المتتالية التي دبرت لليهود هناك . ومن الملحوظ هنا أن الهجرة هذه ، التي حدثت باعداد هائلة ، لم تتجه الى فلسطين وانما الى اوروبا الغربية ، مما يشير الى أن اليهود لم يكونوا يعتبرون الارض المقدسة وطنا قوميا لهم . وبشكل طبيعي ، فقد تمسك القادمون الجدد بتعاليم التوراة والتلمود حفاظا على شخصيتهم ، ورفضوا اي تبسيط لها . وهكذا فقدت حنه ، مثلا ، فرصتها الوحيدة للزواج ممن تحب ، بسبب التفسير الحرفي للشريعة يقدمه أبوها الحاخام شموئيل . وكذلك تكتب استير آنسل ، الانثى الرئيسية في الرواية ، قصة عن الوقائع المروعة لحياة الغيتو . أما ليفي ابن الحاخام شموئيل فيرفض التعرف الى ابيه الذي يراه بصحبة فتاة أممية والذي يعتبره مذ ذاك ابنا ميتا .

من نتائج هذا الصراع قيام تنافس كريه بين الكنيس الاصلاحي وكنيس كنسنغتون ، الاول في النهاية الغربية ، والثاني في النهاية الشرقية . لقد ادرك اليهود الانكليز الاغنياء ، بفعل الثقافة الغربية ، أن ثمة فوائد جمة في تعديل تقاليدهم المتشددة. أما القادمون الجدد فقد التصقوا بهذه التقاليد التصاقا مهووسا .

ويبدو هنا ان زانغويل يؤيد العصرنة ، غير يهود النهاية الغربية ليسوا في الحقيقة مخلصين للتجديد الا بسبب اخلاصهم لمصالحهم الخاصة .

ومن الطبيعي أن تقوم وسط هذا الوضع البشري المضطرب عقائد ودعوات لحل المشكلة اليهودية ، ومن بينها الصهيونية . وليس غريبا هنا أن تنشأ مثل هذه الدعوات بين البورجوازية اليهودية . ان لهؤلاء مصالح أضخم بكثير من مصالح متسولي اليهود وفقرائهم ، كما أن لديهم الوقت والمال ليستثمروها في مشاريع طويلة الاجل . وان رافايل ليون خريج جامعي وابن عائلة ثرية ، ولديه الامكانات التي تؤهله لابتكار خطط تنجز له مصالحه تحت ستار الاقتناع بانه انما يفعل ذلك لانقاذ اليهود . لكنه من جانب آخر لم يعش التجارب التي خاضتها استر آنسل والتي جعلت من اليهودية عبئا لا يطاق . انه يؤمن ان اليهودية الاساسية فلسفة شاملة ، قادرة على انقاذ اليهود ، وواسعة بما فيه الكفاية لتشمل الاشتراكية . واذ تسأله استر مدهوشة : « ماذا ! هل تجد الاشتراكية ايضا في اليهودية الارثوذكسية ؟ » يجيب هو بثقة : « سؤال غير ضروري » (٤٥١) . انه يشبه موردیخاي جورج اليوت ودزرائيلي في اعتقاده بأن

( الدين التليد الذي وحدنا حتى الآن يجب الا نخسره وهو على اعتاب تجاوزه الديانات التي انبثقت عنه مثلما تجاوز مصر وآشور وروما واليونان والمغاربة ... من يدري فقد يولد ثانية فينا اذا صبرنا فقط ؟ ان الاخوة العرقية قوة عاتية ، فلماذا نستعجل في تبديدها ؟ ) ( ٣٣٦ ـ ٣٧ ).

ثم يشرح لاستر أن حقائق اليهودية أبدية وراسخة في الطبيعة البشرية وتركيب الاشياء ، وان لاسرائيل رسالة خاصة وان الاسرائيليين شهود الله . ومثل دزرائيلي ، يؤمن ليون بان اليهود مطهرون لخدمة الله . « اننا علمنا العالم الدين كما علمته اليونان الجمال والعلم » ( ٣٤٢ ) ، وان « الله قد اختار عرقا واحدا ليكون رسله وتلاميذه ، شهداءه وحاملي حقيقته » ، (٣٤٣) ، وان الله يعلم بواسطة عرق عظيم وكذلك بواسطة رجل عظيم وان اسرائيل هي ذلك العرق المختار . وهكذا فان رسالة اسرائيل ، التي يجب أن تبقي اليهود عرقا منفصلا ، هي «نشر حقيقة التوراة حتى تمتليء بمعرفة الرب مثلما تغطي المياه البحر » (٣٣٦) . ويلاحظ ابن عمه سيدني غراهام ـ وهو اسم أممي استعاره لنفسه ـ أن اليهود لا ينشرون حقيقة الله ، فيرد ليون : « طبعا نحن ننشرها . المسيحية والمحمدية فرعان لليهودية » ( ٣٣٦ ) .

واضح هذا الوعي الديني المتعصب في كلمات ليون . وكما هو الحال لدى موردیخاي ، فان العرق والدين والتقاليد هي مكونات قومية ليون . ولكي يستمر ويتعمق تأثيرها ينبغي عدم التساهل في أي أمر من أمور الاندماج ، وخاصة التزاوج . لو أن لليهود وطنا لاختلف الامر ، وصار شيء من التساهل قبولا ، أما الآن فعليهم الاحتفاظ بـ « حدودهم البشرية » حتى تتحقق الرسالة . وتسأله استر : « ولكن انت بالتأكيد لا تريد العودة الى فلسطين ؟ » فيجيب هو : « أريد . لماذا لا تكون لنا بلادنا ؟ » (٣٤٩) .

بعكس جورج اليوت ، أيضا ، يسمح زانغويل لآراء غير صهيونية بالظهور

والشرح على نحو كاف . فبالاضافة الى استر المتمردة وسيدني غراهام الاندماجي ، هناك استريلتسكي الواعظ القوي في كنيس كنسنغتون وقاطن سابق في الغيتوات الروسية واللندنية ، الذي يدرك ان مركزه كحاخام قد جعل منه زلمة لحاخامية بائدة ، يخدر مستمعيه ونفسه بـ ( افيون الارثوذكسية ) . يقول استريلتسكي لليون ان الاحتفالية قد غدت كفن اليهودية لان اليهودية « خليط بدائي من كل شيء مع الدين في ثيوقراطية » وان « قوانين موسى موجودة في القانون المدني الذي تجاوزها » (٥١١) . ويمضي الى القول :

( في كل عصر طور رجالنا العظام وعدلوا اليهودية . لماذا لا تشذب [ اليهودية ] لتتوافق مع ثقافة العصر ؟ خاصة عندما يكون البديل الموت . اجل ، الموت ) ( ٥١١ ــ ١٢ ) .

وحجته هي أن على اليهود الاعتراف باكتسابهم قومية جديدة أو ، بعبارة ادق ، قوميات جديدة : « أنت انكليزي ، وأنا روسي » ، (٥١٤) وان « يهوديتكم أنتم الانكليز تثقل على روحي » ( ٥١٥ ) . يجب أن لا يكون لليهود وطن ، فهم ينتمون الى العالم . انهم فقط ابناء الشريعة مثلما الآخرون ابناء انكلترا وفرنسا وايطاليا ، وان خلاص اليهود ليس الوطن القومي في فلسطين :

( الا يمكن ان نحلم بأحلام اعظم من الاستقلال السياسي ؟... ان نكون فقط امة بين الامم ــ ليس ، رغم جورج اليوت ، مثالا مرضيا . العودة الى فلسطين ، او الحصول على مركز قومي ، حل سياسي ، لكنه ليس مثالا روحيا ) ( ٥١٧ ــ ١٨ ) .

اميركا ، وليس فلسطين ، هي المكان الصحيح التي يجب ان يتوجه اليه اليهود ليكونوا نواة أخوة الانسان .

لكن ليون يلح على وجوب امتلاك اليهود لوطن خاص به ، لأنه « لو تبع اليهود المستقبل الذي تحلم به ، فلن يشهد المستقبل يهودا ... جورج اليوت مصيبة . البشر هم بشر ، وليسوا مجرد روح . الوطن الام يمركز الشعب . وبدونه نكون غجر العالم » ( ٥١٨ ــ ١٩ ) . وهكذا يبدأ ليون تكريس نفسه عمليا للصهيونية بهدف واضح : نشر الوعي القومي بين اليهود بغية اعدادهم لخروج جديد الى فلسطين . انه « قانع بان أرفع يهوذا بوصة » ( ٥١٩ ) . وخلال مقالاته في الجريدة التي يرأس تحريرها يحاول تحويل الاهتمام بالطعام ( الكوشر ) والجبن الى أهتمام بالروحانية اليهودية . ويفصل بين القصص الخرافية ذات المغزى التعليمي وبين الحقائق المثبتة . وتؤثر مقالاته ، في المآل ، عليه فقط ، اذ يعدل من فهمه للارثوذكسية اليهودية بعد أن يكتشف غموض المعاني العظيمة وصعوبتها بالنسبة لليهود العاديين . لكن زانغويل لا يدخل في تفصيل التغير الذي أصاب ليون ، وبعكس جورج اليوت لا يحلل نفسية بطله .

وتزداد نشاطات ليون ، فيقوم بالقاء محاضرات هنا وهناك داعيا الى اختيار وطن قومي يقوم على اساس « تأميم الارض واشياء اخرى قليلة ستجعل العالم أكثر انسجاما مع قوانين موسى » (٤٥١) . ان آلية مجتمع المنافسة تسيء للمجتمع اليهودي ليس فقط من حيث انها ترهقهم بالمتطلبات المادية وانما من حيث تدميرها لروحانية وأخلاقية الدين اليهودي واجبار اليهود على أن يكونوا فردانيين . على أن

الاشارة الى نشاطات ليون الاضافية عابرة وليست كافية . فهنا ايضا لا يدخل المؤلف في تفاصيل عن اقتراحات ليون عن الاشتراكية الصهيونية سواء في النظرية او في التطبيق ، وكيف يمكن لها مقاومة التيار الاندماجي القوي .

لكن افتتاحيات ليون في الجريدة تثير نزاعا لا ينتهي الا بصرفه منها . ويكتب له مالكها من أن السبب يكمن في

مظاهر عديدة ... لانشقاقك المتزايد عن الافكار التي قامت الجريدة للدعوة لها . ومن الواضح انك تجد نفسك عاجزا عن التأكيد على الملامح التليدة لديننا ـ مسألة اللحم « الكوشر » الخ. بالقوة التي يتطلبها قراؤنا . ومما لا شك فيه انك تهدهد مثلا ليست عملية ولا في متناول الجماهير التي تخاطبها . ( ٥٢١ ) .

غير أن ليون يقنع في تحويل شخص واحد على الاقل الى الصهيونية : استر آنسل التي توافق على العودة الى انكلتره بعد سفرها المزمع الى الولايات المتحدة لتشاركه ، كما فعلت ميرا ، حياته ودعوته .

ان هدف زانغويل الرئيسي من كتابة **ابناء الغيتو** هو تقديم الحياة والافكار الرئيسية . ومن الواضح أنه لا يحاول طرح رؤيا أخلاقية معينة كما فعلت جورج اليوت في **دانييل ديروندا** . انه يدعم تجديد اليهودية وتحويلها الى قوة حيوية . اما الموضوع الاهم ، الهجرة الى اميركا او فلسطين ، فيتخذ في النهاية معنى رمزيا . فالهجرة الى اميركا تعني الاندماج ، وهذه هي دعوة استرلتسكي المندلسونية . والهجرة الى فلسطين ، كما يدعو ليون ، تعني دولةووطنا قوميا ، والآمر ذو الدلالة الهامة هو أن المهاجرين الى الولايات المتحدة يفوقون عددا بما لا يقاس المهاجرين الى فلسطين . وهذا يشير الى تفضيل جماهيري . غير أن تعاطف زانغويل يذهب الى ليون . ومن المتوقع أن يتابع ليون عمله كرائد للصهيونية ، رغم أن جهوده تتشتت وتتبعثر بفعل المصالح المتضاربة لمختلف طبقات اليهود . انه ينتمي الى طبقة المثقفين اليهود الذين يجدون في الاحلام العريضة تعويضا عن واقع لا يستطيعون التكيف معه. انه تحقيق آخر لتوق موردخايالى رجل وسيم غني متعلم يكرس نفسهللصهيونية.

لعل السبب الرئيسي في أن شخصيات **ابناء الغيتو** لم تتطور هو أن زانغويل كان في مقتبل العمرعندما كتب هذه الرواية . كذلك فان صهيونيته كانت التزاما قصير العمر . فبعد فترة قصيرة من زيارة هرتزل لانكلتره عام ١٨٩٦ ، واستقباله له ، شارك زانغويل في تأسيس المنظمة اليهودية الاقليمية وهي معادية للصهيونية « فانشق بمنظمته المناهضة هذه وبحث في توطين اليهود في اوغنده ، ما بين النهرين ، وقورينة باليونان ، واصغى الى دعوة الى المكسيك » (٢) . وبكلمة أخرى ، فقد تبنى موقف استرلتسكي ، ويؤكد ذلك انه لم يتطرق للصهيونية في مؤلفاته التالية .

يختلف الامر مع جوزف باراتز ، الذي أعلن قصة حياته في **قرية عند الاردن** (١٩٥٤) ليكتبها شخصآخر . فهذه السيرة تقدم صورة اكثر حيوية للصهيوني الرائد من الصورة التي رسمها زانغويل . ينتقل المشهد هنا الى فلسطين ، والشخصية

٢ – M. J. Landa, «Israel Zangwill, The Dreamer Awake,» **The Contemporary Review**, Vol. 130, July - Dec. 1926, p. 320.

الرئيسية التي هي باراتز نفسه تأخذ دور المستعمر ايضا . وتغطي القصة نيفا وستين عاما ، وتشترك مع **ابناء الغيتو** في تصوير بيئة مماثلة في بلد اوروبي آخر هو روسيا . ان كيشينيف في جنوب أوكرانيا ، مثل النهاية الشرقية ، مركز تجمع يهودي في حالة اقتصادية سيئة . اما اليهود الاغنياء ــ وهم طبعا قلة ــ فقد اندمجوا كاليهود الانكليز في المجتمع الروسي ،

وقد ارتقوا غالبا الى مراكز الصدارة كمحامين واطباء وتجار ومصرفيين ناجحين ــ صاروا « مندمجين » ، تروسنوا ، لقد فقدوا صلتهم بمجتمعاتهم (٤) .

وبقي اليهود الفقراء معزولين ومفتقرين الى التحرك الاجتماعي ، فيما سيطر على حياتهم الحاخامون بمناقشاتهم البيزنطية وامتيازاتهم التي لا تنازع . وقد اندلعت شرارة السخط بين يهود الطبقة المتوسطة الذين رفضوا الاستمرار في حياة العزلة هذه . والنتيجة هي ان « آلاف اليهود هاجروا بحثا عن البلدان المتحررة في اوروبا الغربية أو أميركا » ( ٤ ــ ٥ ) . وقد شارك الشباب في الحركات السياسية الروسية ، وخاصة منها البولشفيك ، للعمل على الاطاحة بالنظام القيصري ، كما تأثروا باعمال تولستوي والشاعرين العظيمين بوشكين وليرمنتوف .

وكما راينا في **دانييل ديروندا** ، فقد بدات الحركة الصهيونية في روسيا في اوائل ثمانينات التاسع عشر ، وجذبت خيال كثير من اليهود الى ابتكار حياة يهودية خاصة على ارض قومية مستقلة . وقد كان باراتز ، باعتباره « أكثر تقليدية من اليهود الغربيين » (٦) ، يفضل فلسطين على غيرها من البلدان المقترحة . وبعد الفشل المروع للثورة الروسية عام ١٩٠٥ وانهيار الآمال بحكومة دستورية ، قرر باراتز وهو في الخامسة عشر أن يهاجر الى فلسطين :

في الايام الاولى كانت فلسطين بالنسبة لنا ملجأ ، مع انه كثيرا ما كتب عن البلاد الجديدة والثقافة الجديدة اللتين ستبنيهما . اما الآن فقد رأينا انه لكي نبني بلادنا يجب ان نبني انفسنا اولا . ( ٨ ) .

ان اعادة بناء الذات واحدة من ثيمات جورج اليوت الرئيسية ، وهي ايضا هدف باراتز النهائي . فبالنسبة له ، ليست الهجرة نقلا للجسد من مكان الى مكان آخر وانما هي تغيير للشخصية وشروط الحياة . والفرق الاساسي بينه وبين ديروندا وليون هو الفرق بين التطبيق والنظرية . فديروندا يريد أن يتعرف بشعبه في الشرق ويرى ماذا بوسعه أن يفعل لاجلهم ، وليون يريد خلق وعي قومي صهيوني بين اليهود الغربيين . ولا يعني هذا ان ديروندا وليون ميئوس منهما عمليا ، مع ان شخصيتيهما مثاليتان ، فكلاهما يختط لنفسه نوعا من الممارسة ، لكن « خلق الوقائع » كما تقول لغة الصحافة ، أمر خاص بباراتز .

هذا التصميم على « خلق الوقائع » يفسر سخط باراتز على حياة اليهود المستوطنين في فلسطين قبل مجيئه . لقد اشترى روتشيلد واصحاب الملايين الآخرون من اليهود ارضا وحولوها الى واحات غريبة ، اهمها ريشون لتسيون :

---

٤ – Joseph Baratz, **A Village by the Jordan : The Story of Degania** (London: The Harvill Press, 1954), p. 4.

« من هؤلاء ؟ » .
« بيلوييم » .
« ومن يقوم بالعمل ؟ » .
« العرب » .
« وماذا يفعل اليهود ؟ » .
« مدراء ، مشرفون » .
لقد كانت صدمة كبيرة لنا . قلت لنفسي : « ليس هذا ما جئت لاجله » ، وقد رأيت ان الآخرين مخيبون ايضا . ( ١٣ ) .

« الآخرون » هم الحالوتزيم ـ الرواد ـ الذين جاءوا في ( العالياه ) الثانية (الصعود أو الهجرة) من روسيا ليبنوا وطنا . وبالنسبة لهم ، كل ما فعل المستوطنون مستهجن على اساس ان العمل اليهودي ، المقصود به خلق الانسان الجديد والامة الجديدة ، ليس مستخدما هنا وان البارون روتشيلد أضاع الملايين على مستعمرات لا شخصية يهودية لها . كذلك فان اليهود الارثوذكس يثيرون حساسية خاصة بتشككهم في كل شيء ، وخاصة الحالوتزيم ، وافكارهم التحررية وكذلك الشباب والبنات الذين يأكلون ويرقصون معا .

ان « الكفوتزا » وهي قرية جماعية صغيرة علامة فارقة في تاريخ الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، و ( دغانيا ) ( Degania ) هي أول محاولة ناجحة من هذا النوع وقد أقيمت على الطرف الجنوبي لبحيرة طبريا . اثنا عشر رائدا من بينهم باراتز ، متأثرون بالمثل الاشتراكية ، بدأوا العمل هناك . لكن الارض مخيبة للامل في نظر باراتز :

كانت مكانا موحشا ومن أسوأ مستنقعات الملاريا في البلاد . كان العرب كلهم مرضى ، وقد عانت النساء اكثر من غيرهن . وفي الليل كان البعوض يهجم والحمى ترتفع . ( ٢٤ ) .

ويقول باراتز ان البلاد كلها « قد كفت عن أن تكون أرض العسل واللبن » وذلك « لان الماعز قد التهم الاشجار جميعها » (٣٨) . « لقد وجدنا الارض قاحلة بعد قرون من الاهمال » (٦٣) ، و « كانت البلاد فقيرة بائسة ، ولم يفعل شيء لتحسين التجارة أو الزراعة » (٨٦) .

تضاف الى هذه الصعوبات صعوبة التكيف ، لانه رغم حماسة الرواد وايمانهم العميق ، فان مد جذور جديدة أمر يبعث على الخوف . وهذا الشعور طبيعي في المرحلة الاولى لحياة المهاجرين . فالبلدان التي جاء منها باراتز ورفاقه كانت على نحو ما اوطانا لهم ، مع انها لم تكن أوطانا رحيمة . ومن الطبيعي أن يلم بهم شعور بالحنين الى اماكن طفولتهم ، وخشية من الارض الجديدة التي يعتزمون اتخاذها وطنا . ان ما يجعل الرواد يلتصقون بالبلاد الجديدة بدلا من القديمة هو ايمانهم بان الحياة في أي مكان آخر مستحيلة . وهو ايمان يدعو الى الاستغراب اذا تذكرنا موقف اليهود المهاجرين الى اوروبا الغربية وأميركا . ثمة نفسية خاصة لهؤلاء ولا شك هو قائمة على الاوهم والايهام ، لكنهم مشبعون بأوهامهم الى حد الخوف من فشل هذه الاوهام. لذلك تغدو الكفوتزا بالنسبة لهم « وحدة لحياة جديدة عادلة منبعثة ، الوحدة الاساسية للبلاد الجديدة » التي هي « وحدة في الاسرة الانسانية المناضلة لاجل السلم والحرية والعدالة » ( ٧٧ ) . الفشل اذن غير وارد ، مع أن الخوف منه موجود ،

وكذلك فالشعور الدفين بالارتباط باوروبا تقابله رؤياهم للحياة الجديدة وتحاول تهديمه . وتأسس رابطة خاصة بينهم وبين الارض تعيد تشكيل عواطفهم تجاه حياتهم السابقة ، وهي مزيج من الارتباط والانفكاك ، وتقنعهم بانهم كانوا منفيين خلال الفي عام أصبحت الارض اثناءها قاحلة وفقد اليهود طبيعتهم : « ماذا حدث عندما كنا في المنفى ؟ » يسأل باراتز فيجيب : « لقد فقدت الارض خصوبتها وبدا اننا نحن ايضا أصبحنا قاحلي الروح مذ فارقناها » (٤٤) . ويستولد الايمان الجديد فهما جديدا لحياتهم السابقة مشابها تماما لفهم جورج اليوت : « لقد انقطعنا عن الطبيعة ، عن جذورنا ، وكل شيء تدمر بفعل حاجتنا للامن » (٤٥) . واذ يتذكر أوقات الاضطهاد والمذابح في روسيا ، ينتهي باراتز الى القول بانه لكي يشتري اليهود الامن فقد اغتربوا عن انفسهم . وقد رافق الازدهار المادي املاق روحي وجفاف للملكات الانسانية .

ليس ما يعنيه باراتز بـ « الطبيعة » واضحا دائما . فأحيانا تعني الكلمة اي أرض ، واحيانا البيئة الطبيعية ، وغالبا ما تعني فلسطين . على انه يكرر باستمرار فكرة أن المنفى قد أفقر ليس اليهود فقط وانما الارض ايضا . اذ يبدو ان اليهود فقط هم القادرون على الاعتناء والاغتناء بها . أن الحاحه على تصوير قحل الارض يذكرنا بوصف دزرائيلي لها الذي كتبه قبل مئة عام ، ولا بأس هنا من تكراره :

من بيت لحم الى الخليل ، ما تزال كنعان ارض العسل واللبن ، مع انها ليست في غنى وزهاء الامتداد الفلسطيني العظيم الى الشمال من المدينة المقدسة ، اما الجمال والوفرة فما يزالان موجودين في السامرة والجليل ( **تانكريد** ، ٢٣١ ) .

ربما كانت فلسطين الحقيقية أقل خصبا من أوكرانيا ، وهي بالتأكيد لا تعادل صورتها التوراتية في خيال باراتز . وتكون النتيجة ان صعوبات العمل عليها بالنسبة لهؤلاء المهاجرين البورجوازيين تبدو أكبر مما هي بكثير ، وانجازاتهم أكثر قيمة . على أن لدى الرواد اسبابا تجعلهم يشعرون بالفخر بما فعلوه . فهم متمدينون وغير متمرسين بالعمل في أرض مجهولة ومناخ مختلف . لقد بدأوا حياتهم الريادية في الحياة الجماعية حيث يعمل كل واحد لمصلحة الجماعة ولا يحمل نقودا ويقدم مثالا يحتذيه المهاجرون الآخرون . وبعد وقت قصير يشرعون في تطبيق برنامج للاكتفاء الذاتي قائم على جني المحاصيل والخضار ، وعلى زرع الاشجار والازهار ، وضخ الماء وبناء صهريج، ومحاربةالاوبئة ، وبناء البيوت ومركز للالبان ومأوى للدواب واسطبل. وقد تضاعف عدد الرواد المرة تلو المرة ، وامضوا عشرة اعوام قبل أن يفهموا الارض وحرفتهم الجديدة . ليس فقط أنهم يمارسون الزراعة للمرة الاولى ، بل انهم يزرعون وينمون انفسهم أيضا . وان مستقبلهم ومحباتهم وعلاقاتهم وتقاليدهم تولد من جديد .

وثمة مشاكل انسانية أخرى . « كنا ما نزال نعتقد ان النساء خلقن للطبخ والغسيل فقط » (٥٢) ، لكن المرأتين الوحيدتين في دغانيا تشعران بالتعاسة لان مثالهما عن العمل وممارسة حياة سوية لم يعط الفرصة للتجريب العملي . تقولان : « نحن أسوأ مما كانت عليه امهاتنا في مدنهن الصغيرة » (٥٣) . وتحل المشكلة تدريجيا بالسماح للمرأتين بالمشاركة في اعمال الرجال . والمشكلة الثانية هي هل ينجب الرواد أطفالا ام لا . وقد قال احدهم انه من المستحيل انجاب الاطفال في ظروف استثنائية كهذه لكن زوجة القائل انجبت فيما بعد ستة أطفال من بينهم موشي دايان . غير ان

الحجة كانت قوية . فالناس يموتون بالملاريا ، والبدو يهاجمونهم باستمرار لنهب الطعام والقطيع . اما السلام والحياة النظيفة فابعد ما يكون عن وضع الرواد . لكن باراتز وميريام العاشقين يقرران تحدي الصعوبات فيتزوجان وينجبان سبعة أطفال أصحاء ينشأون مع غيرهم من الاطفال في بيت جماعي منفصل .

وتغدو الحاجة الى مهاجرين جدد ملحة بعد اتساع دغانيا . وقد جلب هؤلاء من أوروبا بكل وسيلة ممكنة . « وقد عرف البريطانيون لكنهم لم يعرفوا بذلك ــ اغلقوا أعينهم » (١٣٢) . وترسو السفن الناقلة للمهاجرين في أمكنة صغيرة مخفية على طول الشاطيء حيث « أعطاهم الشباب أوراقهم لتكون لديهم جوازات سفر قانونية اذا ما أوقفوا » (١٣٧) . وبازدياد الهجرة تنشأ المنظمات السياسية منبئة بقرب قيام دولة المستقبل . فالكفوتزوت ( الكوميونات الصغيرة ) والكيبوتزيم ( الكوميونات الكبيرة ) تشكل اتحادات الكيبوتز التي تنظم شؤون اعضائها وتنتظم في الهستدروت ( اتحاد العمال ) وفي حزبي الماباي أو المابام .

ثم تأتي اللحظة الحاسمة في حياة مستعمري دغانيا يوم انتصروا على الجيش السوري عقب اعلان الاستقلال . لقد جاء السوريون بدباباتهم وسياراتهم المصفحة ومدفعيتهم وطائراتهم واندفعوا عبر أقسام دغانيا العزلاء . لكن صبيا من المستوطنين « قفز بقنابل مولوتوف وبدأ يرميها على الدبابة واحدة بعد الاخرى . وقتل الضابطان وانفجرت الدبابة ملتهبة كما التهبت الاشجار حولها . عندما رأى السوريون اللهب وعرفوا بموت ضابطيهما بدأوا بالانسحاب» (١٤٢) . هذه المعجزة ، كما يصفها حاخام طبريا ، خطوة في اتجاه صناعة الاسطورة . فالوصف الذي يقدمه باراتز للجيش السوري يجعل من الصعب أن نصدق هزيمة جيش حديث كهذا مزود باحدث الاسلحة ــ وهي هزيمة تمت بقنابل مولوتوف . ويفسر باراتز هذا الانتصار بنوعية الرجال الفريدة . وفي ذلك ينسى أهمية المساعدات الهائلة التي تقدمها المنظمات الصهيونية المختلفة . ويمضي بعد ذلك الى وصف واعادة زراعة الذات ، التي كتبت عنها جورج اليوت في **دانييل ديروندا** . ان الحاجة الى خلق اسطورة عميقة في نفوس الرواد المستعمرين ، وهي تستهدف أساسا الاقتناع بان اختيارهم الصهيوني كان صوابا . وهذا لا يعني انهم لم يكونوا يبذلون اي جهد . ان مراقبا محايدا مثل فكتور بولايثو يكتب في **بجانب الجليل ما يلي :**

> انه بسيط وحقيقي ان الفلاحين الذي يحرثون الارض يلتقطون مادة الهية من جهدهم : انها على ما يبدو تغير نسيجهم وتجعلهم مختلفين عن بقية الناس (٥) .

لكنهم يفخمون ما ينجزون على نحو غير قابل للتصديق .

وراء هذا الجو من الحقائق المدغومة بالتوهمات توجد شخصية آرون دافيد غوردون الاوكراني الذي كتب بالعبرية وكان تجريبيا طيلة حياته . يقول غوردون « اعطني عشرة رجال يائسين وسوف أغير العالم » ( ٨١ ــ ٨٢ ) . اليأس صفة حياة الشتات ، انه حالة الوصول الى نقطة اللاعودة في انقطاع علاقات اليهود مع العالم ،

٥ ــ H. Hector Bolitho, **Beside Galilee : A Diary in Palestine** (London : Cobden-Sanderson, 1933), p. 111.

ويؤمن غوردون أن هذا الشعور لدى اليهود قادر على اجتراح المعجزات . ويقول ان اليهود قد عاشوا في المنفى كمتسللين يملأون فراغ وجودهم باشباعات مصطنعة كالمال والملكية حتى غدا الاصطناع طبيعة ثانية لهم . ولكي يستعيدوا أصالتهم وابداعهم على الامة اليهودية « ان توجد شعبا يعمل على الارض ويقيم مع التربة والطبيعة علاقات حية : شعبا يعرف فرح الموسم الجيد وحزن المحصول الرديء ، وتغير الفصول . على هذا الاساس فقط يمكن لثقافة حقيقية أن تنهض » (٨٣) . ان دين العمل ، في مراحل تطبيقه الاولى من حياة الكفوتزا ، يجعل فلسفة غوردون قريبة جدا من الاشتراكية ، وان كانت اشتراكية غريبة في قيامها على استيطان بلاد الآخرين . وعلى أية حال فليس هذا هو التناقض الوحيد في الصهيونية . فاشتراكية غوردون ترتكز على الانسان كمصدر للخير والشر وليس على التمييز الطبقي ، والانسان صورة الله على الارض التي يتعين على اليهودي ان يحافظ عليها . مفاهيم غيبية غائمة واضحة التناقض .

وهكذا ينصرف المستعمرون الى تمجيد أعمالهم وذواتهم . فعلى العكس من اليهود الروس والانكليز ، من يهود دزرائيلي الاسبان الذين أنشأوا المدن وزرعوا الارض ، يشعر المستعمرون أنهم في الحقيقة يخلعون « ألفي عام من الشتات » (٨٣) ، و « الآن علينا أن نعطيها [ الارض ] قوتنا وسوف تعيد لنا ابداعنا » (٤٤) . العودة الى الارض تعني العودة الى الطبيعة والاستمرار التاريخي . ومثل جورج اليوت يؤمن باراتز بان النفي وليس الاضطهاد هو الذي عزل اليهود عن البشر وجفف طبيعيتهم . لذلك ينبغي أن يشاد جسر يصل الرواد بحياة العبريين القديمة .

. هناك ناحيتان هامتان لا يضعهما باراتز بتفصيل كاف ، هما علاقة المستعمرين بالبريطانيين والعرب . فخلال الحرب العالمية الاولى شكلت المنظمة الصهيونية العالمية « الفرقة اليهودية وفيلق البغال الصهيوني اللذين حاربا فيما بعد في غاليبولي » (٧٢) مع الجيش البريطاني . وخلال الانتداب البريطاني على فلسطين الذي بدأ عام ١٩٢٠ ، وبوعد بلفور بوطن قومي لليهود في البلاد ( ١٩١٧ ) ، شق عدد كبير من الصهيونيين طريقهم نحو الارض المقدسة . لقد جعل وعد بلفور المستعمرين « مجنونين تقريبا بالفرح » (٩٠) و « ظنوا ان الدولة اليهودية قد وجدت فعلا ــ لقد فهموا وعد بلفور على هذا النحو » (٩١) . وخلال الثلاثينات صدر الكتاب الابيض البريطاني محددا عدد المهاجرين المسموح لهم بدخول فلسطين فخلق هياجا بين الصهيونيين .

يذكر باراتز حقائق تاريخية قليلة فيما يتعلق بالعلاقات الصهيونية البريطانية ، ولا شيء عن الوضع الانساني لهذه العلاقات . أما المعلومات التي يعطيها عن علاقة المستعمرين بالعرب فهي أكثر تفصيلا ، وان تكن غير كافية . بصورة عامة كانت الاتصالات الطيبة قائمة بين الجانبين . فعندما رست السفينة التي تقل باراتز خارج ميناء يافا «جاء عرب بقمصان بيض طويلة في قوارب تجذيف صغيرة ليأخذونا» (١١) . وقد استخدم المستوطنون القدماء العمال والفلاحين العرب في مزارعهم ، و « كانت القرى العربية المجاورات للمستوطنات تعيش في وفاق مع المستعمرين . لقد سطوا قليلا ــ ليس لاسباب سياسية ــ بل لانهم شعب بدائي يلتقط ما يراه حوله » (١٧) .

اما الغرس الاول لشجيرات غابة هرتزل فقد قام به العرب . وقد بدأ مستعمرو دغانيا حياتهم في القرية العربية أم جمة التي اشتراها الصندوق القومي اليهودي من الاقطاعيين المقيمين في بيروت ، وبعد ذلك « عوض للعرب المقيمين فيها وصرفوا . اما الآخرون فعاشوا معنا في وفاق » (٤٩) . ورحب العرب الباقون بزيارات ميريام التي قامت لها لزوجة شيخ عربي كيما تتعلم حلب البقرات وتعتني بهن ، كذلك حضروا حفل زواج باراتز . وكان للمستعمرين علاقات طيبة مع عرب دمشق وبيروت. وكانت المشكلة الوحيدة هي البدو الذين كانوا يغيرون على المستعمرين أو يكمنون لهم فيقتلون ويقتلون . واوقف سفك الدم يتوسط الشيخ العربي بين الطرفين فيدعوهم الى بيته ويسالم بينهم .

لكن هذه العلاقة الودية لم تستمر . « ففي الثلاثينات بدات المشاكل . وكف العرب عن المجيء الى قريتنا » (٧٨) . لقد زرعت بذور الريبة عندما بدا العرب يرون في المستعمرين نازعي أرض خطرين ؛ ثم ثاروا عندما تبين لهم ان الغرض من مجيء هؤلاء المستوطنين هو اقامة دولة صهيونية ؛ وعرفوا بين اعطاء أرض واعطاء وطن .

يصمت باراتز صمتا مريبا ازاء هذا الموضوع . لكن هكتور بولايثو ، الذي زار البلاد عام ١٩٣٢ ، يسجل مذكرات مفيدة في كتابه المذكور سابقا . ففي فلسطين يجد نفسه « مضطرما بين المستوطنات الصهيونية ومتلاشيا في قرى العرب » (٦) . ان فضيلة الكتاب الرئيسية هي تسجيله الامين لوجهات النظر المختلفة ، بما فيها وجهات نظرته . والمؤلف لا يخفي اعجابه بالرواد ويقارنهم بسكان المدن من الصهيونيين الذين يعيشون حياة لا يقدرها . لقد شكل الرواد « نظاما جماعيا مسالما ، ملونا بمثل الصداقة والواجب البسيط للعيش معا بسلام » (٦٥) . كما ان

> الصهيوني الشاب في مزرعته تاج على رأس الصهيونية . انه المثالي ، الحالم بالاحلام . لكنه ايضا راغب في الحفر والعمل ، في البذر والفلاحة ، منذ الفجر حتى الغروب ، ليحقق حلمه وليستعيد صهيون لليهود . ( ١١٢ ) .

ان سكان المدن دعائيون مخيبون يرهقون الزائر بمحاجاتهم الجاهزة ولوائح الاحصاءات الطويلة عن التقدم الاقتصادي في فلسطين .

ويعتقد بولايثو ان ادعاء الصهيونيين بصلة القربى مع ( المستعمرين الشجعان ) في نيوزيلنده وافريقيا الجنوبية واستراليا ، ادعاء مبالغ فيه . فبالمقارنة مع سجل « الحياة الرائدة » في هذه الاماكن النائية « تبدو قصة الاستيطان اليهودي في فلسطين قصة سلام وسهولة » ( ١١٣ ــ ١٤ ) . ان غارات البدو البدائية على المستوطنات الصهيونية امر يسهل ايقافه بادوات الحرب المتقدمة التي يعرفها المستوطنون جيدا . والفرق الرئيسي بين الصهيونيين والمستعمرين الآخرين ، يقول بولايثو ، هو ان « الصهيونيين أداروا ظهورهم للرعب الاوروبي لينشدوا الامان . أما المستعمرون البريطانيون فقد أداروا ظهورهم للامان الانكليزي بحثا وراء الرعب » (١١٤) . والظاهرة الاكثر دراماتيكية هي بالطبع موقف الصهيونيين تجاه البريطانيين والعرب. في البداية ، ثمة امتنان للبريطانيين : فانكلتره كانت الاولى في موقفها المستنير تجاه اليهود ، وقد جعلت أحدهم ــ دزرائيلي ــ رئيس وزراء ، كما ان وعد بلفور قد حول

---

٦ – H. H. Bolitho, **Beside Galilee**, p. 11.

انظار اليهود في المانيا وبولونيا وروسيا الى بلاد التسامح والعدالة . أما الآن «فبريطانيا العظمى قد استعدت يهود العالم ضدها بمعاملتها للصهيونيين في فلسطين . لقد أعطيتم وعدا في اعلان بلفور ولم تحافظوا عليه » (٥٠) . وسبب الصدمة التي شعر بها الصهيونيون لدى صدور الكتاب الابيض هو شعور آخر بان العالم مدين لليهود لانهم تعذبوا في كل مكان . لكن سعيهم لاقامة وطن خاص بهم « يعميهم عن التقدير المعقول لجيرانهم » وبالتالي « يغدون انانيين بطريقة قاسية » (١٠٩) . انهم يتوجهون الى بريطانيا باتهامات مريرة ويطلبون العطاء والحماية ولكنهم « لا يفكرون في المشاكل الكثيرة التي روكمت علينا [ البريطانيين ] في السنوات القليلة الماضية » (١٠٩) . وعبثا يحاول بولايثو ان يسمع منهم بفضيلة أو معاملة حسنة في تاريخ الانتداب البريطاني على فلسطين .

الموقف نفسه نلاحظه أيضا تجاه العرب ، وان يكن أكثر حدة وكثافة ومتميزا بالاحتقار والتعالي . لقد رأينا ان باراتز يعتبرهم « بدائيين » ، لكن الصهيونيين الذين قابلهم بولايثو يكشفون عن ارتياب وكراهية تدعوان الى العجب . فهو يخبرنا عن طلب تقدم به العرب لمد انبوب ينقل الماء من كفوتزا في الجليل الى قرية عربية مجاورة لا ماء فيها :

لقد بدا لي ان العرب قوم صادقون ويثقون بالآخرين اذ قبلوا بأن تكون عندهم حنفية محدودة من انبوب ماء يهودي ... لكن اليهود لم يروا الامر على هذا النحو . « ان تعط العرب شيئا واحدا فسوف يطلبون المزيد » ، قالوا . ( ٥٣ ) .

وتلاحظ ممرضة من تل ابيب حالة بولايثو المتراخية النعسة فتنصحه : « يجب ان تخرج كل صباح وتطلق النار على عربي . سوف يحفزك ذلك » . وكانت عيناها من البرودة وتعبيرها من الجدية بحيث أيقنت أنها عنت ما قالت . وكوني قد صدمت لم يهمها البتة » . (١٢٤) ويرى بولايثو ان انكلتره قد فشلت في تبني وليدها الصهيوني ورعاية ابنها العربي . ويعتبر مستحيلا خلق اتفاق بين « العرب المحلولين المسترخين على ظهورهم » (٦٤) وبين « أناس جاءوا من شعتى اقطار العالم ويتكلمون نصف دستة من لغات مختلفة دون أن يكون لهم دين ، أو تقاليد مشتركة ، أو حكومة، او حياة اجتماعية » . (٩٠) ويقول احد العرب لبولايثو ان سياسة الصهيونيين العدوانية تتناقض مع طبيعة شعبه وتميزهم باستيعاب الاجانب العائشين بسلام معهم .. ويقول : « لم يضايق احد اليهود ، ولم نضغن لحائط مبكاهم وما عنى بالنسبة لهم . ولكن لدى انقضاء الحرب ، عندما صار اليهود صهيونيين ، صار الامر مختلفا » (٧٢) . ان فهم هذا العربي للصهيونية مثير للاهتمام :

( سيكون يوما حزينا بالنسبة لليهود اذا ما صار لهم وطن قومي ، لان رجولتهم صنعتها الشدة وعندما تنتهي الشدة يبدأ التدهور ) ( ٧٥ ) .

في هذا الوضع المتخبط المأساوي يقرأ المؤلف غيابا للعدل. فاليهود المتأوربون ، او الانكليز قد صاروا سكانا محليين ذوي سمة سامية باهتة ، لكن هؤلاء الذين لم يندمجوا يعتبرون العالم وسطا معاديا ولذلك شحت خصائصهم الانسانية . ان يشعروا بالعداء والحقد تجاه العرب الذين يرفضون اعطاءهم وطنا قوميا في فلسطين. بالنسبة للعربي « العداء ترف » نوع من «الكافيار» أما « مع اليهودي فهو تجارة ...

العداء خبز يومي » (١٢٥) . وليس لدى بولايثو اية فكرة عن كيفية حل الصراع بين الصهيوني والعربي . لكن لديه حلا اخلاقيا مستمدا من التراث اليهودي المسيحي . ولهذا يستذكر كلمات هيلل ، الحكيم اليهودي البابلي ، التي خاطب بها مرتدا جاء يسأله عما هي اليهودية :

( سأعلمك الشريعة كلها فيما انت واقف على قدم واحدة ) ، قال . « لا تفعل لاخيك الانسان ما هو كريه لنفسك : هذه هي الشريعة كلها . البقية تعليقات ) ( ١٧٠ ) .

هذه اللؤلؤة ــ كما يدعو بولايثو كلمات هيلل ــ قد سلمت الى يسوع ثم محمد ، لكن اتباع الاديان الثلاثة يمضون وقتهم في نسيان هذه الحقيقة المنزلة البسيطة .

وينهي المؤلف مذكراته بلقاء له مع يهودي ألماني يعيش في أوبر هسن رفض الانضمام الى « جيش الصهيونيين العظيم » في فلسطين لانه « اذا كان الناس كلهم يهودا هناك فلن يكون ثمة مسيحيون لاتعامل معهم » (١٨٣) .

## ٢

الكتاب الثلاثة الذين ناقشناهم في هذا الفصل يقدمون الشخصية الصهيونية في بحثها غير العابيء بالنتائج عن معنى وأمان لحياتها . لقد وصلت الى نتيجة نهائية مفادها ان حتى تلك الجسور ، التي ظنت جورج اليوت ان بقاءها ممكن بين الغرب واليهود ، قد تهدمت تماما وليس ثمة امكانية لبناء جسور جديدة . ومع ان الشخصيات التي يرسمها الكتاب الثلاثة تختلف في نشأتها ، فهي ممسوسة بحلم اقامة وطن قومي جديد ، ومن هنا يأتي الحاحها على كل شيء يهودي ، ماضيا كان أم حاضرا . ليون يرى في هجرة اليهود الضخمة الى الولايات المتحدة خطوة في الاتجاه الخطأ، ويدعو الى تطبيق الارثوذكسية اليهودية بتعديل طفيف. وليدعم رأيه ينبش التاريخ اليهودي ليستعيد منه الامجاد والقيم الدائمة . ويمضي في ذلك الى حد صنع أسطورة الشمول ويوسع اليهودية الى أبعد مما يمكن أن يقبله العقل سواء في اكتشاف الاشتراكية كمكون من مكوناتها أو الادعاء بانها تشمل الانسانية . ومع باراتز يتزايد التوكيد على الناحية القومية على حساب الناحية الدينية في اليهودية : شعور بالفخر العارم بهذا العرق العجيب دونما ادعاء بالعالمية أو الشمولية . بل انه يؤكد احيانا على الفروق في الفكر والتقاليد التي تميز اليهود عن جميع الناس بما فيهم البلاشفة الذين يعتقد الحالوتزيم انهم يحذون حذوهم . وهكذا تغدو اليهودية التي يتمسك بها يهود لندن وكيشينيف بقوة صيحة ضائعة بالنسبة للحياة الجديدة التي يبنيها المستعمرون في دغانيا . وبدلا من حب اليهودية ينشأ حب الارض عند باراتز ورفاقه ، حيث يتضخم حس قوي بالملكية مستمد من احتكاك يومي بالتراب والمناخ . « كلها ، كلها لليهود » ، (١٠٨) يقول يهيل وايزمان لبولايثو معترضا على رغبة الاخير التملقية في شراء قطعة من ارض فلسطين . ويزداد تبعا لذلك الجهد لصنع اسطورة مؤثرة من حياة الرواد ورؤيتهم للحياة . فالصهيوني ، اذ قام باختياره النهائي ، يميل الى اعتبار هذا الاختيار ( المعبر ) الوحيد الى انبعاث فريد بنوعيته وانجازاته . وبالنسبة له يغدو استعمار فلسطين ظاهرة لا مثيل لها في تاريخ العالم لانها قامت على أكتاف « الرجال اليائسين » الذين تحدث عنهم غوردون . اما المقارنة التي يجريها بولايثو بين الصهيوني

والمستعمرين الآخرين فتبدو غريبة وربما مستهجنة بالنسبة للصهيوني . ويشير بولايثو اكثر من مرة الى التملكية التي تعمي المستعمر عن تقدير وجود جيرانه وكذلك عن تقدير وجود المنظمة الصهيونية العالمية وراء انجازاته التي يعتقد انها هائلة .

بعد كل هذا يبقى ان نقول ان صورة المستعمر الصهيوني تظل ناقصة في اعمال هؤلاء الكتاب الثلاثة . فنحن نرى ليون جزئيا فقط ، وباراتز يمسح اكثر من نصف قرن بعدد قليل من الصفحات لا تكفي في الواقع لاعطاء صورة متكاملة عن حياة المستعمرين . اما بولايثو فيقدم شهادات أطراف متنازعة لا ترقى الى مستوى دراسة الشخصية .

لدينا الآن وصف للوضع كله ، متضمن حياة وشخصية الصهيونيين بكامل شدتهما ، في رواية آرثر كوستلر **لصوص في الليل** .

## ٣

كما هوالحال مع دزرائيلي، لا بد من شيء من الاحاطة بحياة السيد كوستلر لفهم رواياته . ففي معظم الحالات ، كان السيد كوستلر يكتب عن تجارب حياته او أفكاره . لقد عاش والده ، وهو ابن يهودي روسي ، وأمه ، وهي عصابية من فيينا ، حياة النفي في هنغاريا النمساوية ، وغالبا في بودابست ، حيث نشأ آرثر الشاب وتميز بكونه ( معجزة صغيرة ) . وقد اظهر الشاب ميلا مبكرا الى العلم وعلم النفس والسياسة . وقبل الحصول على الاجازة ، ترك الجامعة وغادر الى فلسطين فعاش هناك أعواما ثلاثة متحملا الجوع والتشرد والاعمال الخشنة . واثناء اقامته هذه تعرف بفلاديمير جابوتنسكي زعيم الحركة الارهابية الصهيونية واهداه رواية **لصوص في الليل**. وكان جابوتنسكي يدعو الى امتلاك الارض بالقوة لانها حق اليهود التاريخي . وقد مارس نوعا من السحر على كوستلر بروحه العنيفة . لكن السيد كوستلر لم يستطع الاستمرار في فلسطين . ومثل دزرائيلي طغت على مشاعره طبيعة القدس الجهمة ، لكنه يختلف عن دزرائيلي في انه شعر ازاء « الجمال الموحش المتعجرف » للمدينة « بمأساة دونما تطهر » (٧) . هذا الشعور الظاهري الغرابة من صهيوني تجاه القدس هو اشارة مبكرة وغير مباشرة لموقف المؤلف المتضارب المشاعر تجاه كونه يهوديا. لقد عمل كوستلر في كفوتزا هيفتزيبا بالتحطيب وسحب الماء ، ثم صدر قرار الكوميونة بانه لن يكون مستوطنا جيدا . وهكذا خبت صهيونيته أمام عقيدة جديدة هي الشيوعية ، وفي عام ١٩٣٢ انضم الى الحزب الشيوعي الالماني وسافر من ثم الى الاتحاد السوفييتي فأمضى هناك عاما كسائق جرار . وقرر مسؤولو الحزب ان صحافيته ستخدم القضية اكثر من ( جراريته ) ، وارسلوه الى اسبانيا لكتابة تقارير عن شناعات نظام فرانكو الفاشي . ويصف السيد آتكنز نقده الاجتماعي والسياسي لاسبانيا فرانكو بانه « دعائي كلية ولا يقدم مساهمة جدية في فهمنا لدين الفاشية » (٨) . وكان أثناء ذلك واعيا بالاختلافات المتزايدة بين الحزب ورؤيته

---

٧ – Arthur Koestler, **Arrow in the Blue**, quoted by V. S. Pritchett, «Books in General,» **The New Statesman and Nation**, Nov. 8, 1952, p. 550.

٨ – John Atkins, **Arthur Koestler** (London : Spearman Limited, 1956), p. 111.

للحياة ، لكن شعوره بالواجب وحاجته الى الانتماء دفعاه الى كتابة دعاية مستمرة وهو عارف تماما انه يشوه الحقائق ، كما اعترف فيما بعد للقنصل البريطاني في اشبيلية . وفي عام ١٩٣٩ طبع رواية **المصارعون** ، وفي ١٩٤٠ **ظلام في النهار** التي اظهرت قطيعته النهائية مع الشيوعية . وفي العام نفسه استقر في انكلتره بعد أن انقذه الانكليز من الموت مرتين ، وما يزال يعيش فيها حتى الآن .

ان حياة السيد كوستلر غريبة ومليئة بالضجيج . وبمعنى ما هو يهودي تائه حديث حتى عام اعتزاله للسياسة (١٩٥٥) وتكريسه بقية حياته لعلم النفس والعلم . فمنذ صباه نما لديه احساس بالغيبي والمطلق كثفته عقدة ذنب (٩) . وكما يكتب السيد بانتوك :

> في كلا حياته وكتاباته ، اللتين توحيان بترابط وثيق ، يقدم آرثر كوستلر تعبيرا مهما عن المثقف العالمي ــ بلا جذوره مخلوع ، انسان تقوم صلاته مع رفاقه على تبادل التجربات والافكار باستمرار ، على وعي ذاتي يجنح الى تعطيل العلاقة العاطفية (١٠) .

ان توتره الرئيسي ينبع من وعيه بانقطاع جذوره الذي يدفعه الى الفعل ويشحن خياله برؤى يوتوبية . فتجربته المجهضة كمستعمر في فلسطين ، وسنواته السبع المضنية في الحزب الشيوعي ، ومشاركة حامية في السياسة الاوروبية بين ١٩٣٠ و ١٩٥٥ ــ كل هذه خلفت في نفسه شعورا مرا بالانفصال مصطرعا مع نضاله لاجل الحماية وضد الغربة . في **سهم في المدى** ، يصف نفسه بانه يعاني من « داء المطلق » (١١) . وخلال هذه ( المطلقية ) يرى كوستلر الاشياء كثنائيات وعلى نحو دراماتيكي . فالحقائق تغدو فرضيات ، والاحوال مشاكل ، والفروق تعارضات ، يصنفها في مجموعات اما ــ أو . هناك وصول او رحيل ، يوغي وقوميسير ، ظلام ولكن في النهار ، اله ولكنه متهاو ، سهم وانما في المدى . ان « تراجع الحاج عن الثورة » (١٢) ، كما يقول برتشيت ، ينتهي بتحول مفاجيء الى الالتزام الصهيوني ، الذي هو على ما يبدو آخر محاولة للتمسك بمذهب سياسي قبل ان يكتب روايته **عمر الشوق** . ثم يصف انضمامه الى الحزب الشيوعي بانه خطيئة ذات اسباب صحيحة . وعبر تأرجحه بين ( اما ) و ( أو ) كان السيد كوستلر دائم الانشغال بقضية الغايات والوسائل في بناء المدن الفاضلة . ويعزو هجره للحزب الشيوعي الى تبرير الاخير الدائم للوسائل بالغايات ، وهو امر ــ يقول كوستلر ــ مدمر اخلاقيا . وفي عمل لاحق يتقدم بنظريته عن اليوغي الذي « يؤمن بان الغاية لا يمكن التنبؤ بها وان الوسائل هي الامر المهم عند النهاية فوق البنفسجية » للطيف البشري ، وعن القوميسير الذي « يؤمن بالتغير من الخارج عند النهاية تحت الحمراء » (١٣) . ان قادة الحزب الشيوعي

---

٩ – John Atkins, **Arthur Koestler**, pp. 90-94. See also J. Nedava, **Arthur Koestler** (London : Robert Anscombe & Co. Ltd., 1948), the first few pages.

١٠ – G. B. Bantock, «Arthur Koestler,» **Politics and Letters**, Summer 1948, p. 41.

١١ – V. S. Pritchett, «Absolutitis,» **The New Statesman and Nation**, August 18, 1956, p. 189.

١٢ – V. S. Pritchett, «Arthur Koestler,» **Horizon**, May 1947, p. 247.

١٣ – Arthur Koestler, **The Yogi and the Commissar** (London : Jonathan Cape, 1945), quoted by Anthony Burgess, «Koestler's Danube,» **Spectator**, Oct. 1, 1963, p. 418.

السوفييتي ، كما يقول كوستلر ، قوميسارون يضحون بكل القيم للوصول الى الغايات ويحولون بذلك اليوتوبيا الاشتراكية الموعودة الى جهنم .

يلون انشغال كوستلر بالغايات والوسائل ونظريته عن اليوغي والقوميسار رواياته الثلاث الاولى : **المصارعون** ، **ظلام في النهار** و **وصول ورحيل** ( ١٩٤٣ ) . ويسمي الكتب هذه ثلاثية « الموضوعة الرئيسية [ فيها ] هي أخلاق الثورة » (١٤) . فالجماهير التي تدعم سبارتكوس عاجزة عن الخلاص ومنساقة الى تمرد تشنجي وارضاء للشهوات . ويصاب سبارتكوس بالذعر لادراكه ضرورة كونه طاغية ، ثم يسقط . وفي **ظلام في النهار** نلتقي بروباشوف الذي نخرته من الداخل خياناته المتكررة لرفاقه الشرفاء اللامساويين فاستسلم لغلتكن ، القوميسار النياندرتال ، بارادة يائسة مما يعطي انطباعا بان المسيرة الثورية بحد ذاتها مفسدة . لقد ارغم زعماء الحزب، من ستالين الى غلتكن ، الشعب على تقديم تضحيات اغلى بكثير من اية يوتوبيا ممكنة ، وخلقوا شروطا لا يمكن بسببها لاية يوتوبيا ان توجد في **وصول ورحيل** ، يتخلى الايمان والعقل عن مكانهما لتعلق بيتر سلافك بالفعل لاجل الفعل ويغدو الالتزام توقا عصابيا للشهادة . وفي الثلاثية ككل يتركز اهتمام كوستلر بصورة رئيسية ، ليس على العلاقات بين الافراد ، وانما على المحاجات العقائدية التي تجعل قصصه منصات لنقل الافكار وشخصياته أصواتا لسيدهم . وبما انه متورط في هذه المسائل اكثر بكثير من شخصياته ، فهو يحاجج باستمرار مع شيء ما ضد شيء آخر ملحا على كل نقطة بحماس واصرار يميزانه وحده . ان القوة والشدة الواضحتين في هذه الروايات الثلاث تنبعان من توتر يخلقه انقطاع جذوره وطوباويته عبر أجيج الاطروحة والنقيضة المستمر حتى الصفحة الاخيرة . انه لا يصل البتة الى تركيب ، وانما ينتهي تحليله للاوضاع بنكوص اما الى الاطروحة او الى النقيضة ، الى حالة من اليأس والتسليم كما في صيحة المعركة التي يطلقها بيتر ( العقل لا يهم ) ، او في اعتراف روباشوف بصحة الاتهامات التي يوجهها الى القوميسار ــ نياندرتال غلتكن .

وفي هذا الجو من الخيبة ، المتزامن مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، تعود صهيونية كوستلر الى مركز الصدارة . لقد صالح نفسه حتى الآن مع ما يسميه جورج أورويل « التشاؤم القصير الامد » : فسحة زمن تعادل حياة الانسان تكون بالتأكيد خالية من اي امل ، والشيء الافضل هو « الابتعاد عن السياسة ، خلق واحة يبقى داخلها سليم العقل هو ونفر من أصدقائه ، والامل بان الاشياء ستتحسن على نحو ما خلال مئة عام » (١٥) . وهذه الوقفة هي نتيجة لحياته الحافلة أكثر منها نظرية فلسفية . ويلاحظ أورويل عام ١٩٤٥ ان كوستلر كان غالبا الى جانب الفعل ، وهي ملاحظة صحيحة :

وفي الحقيقة ، اذا افترضنا ان اليوغي والقوميسار هما نقطتا الميزان المتعاكستان ، فكوستلر ،

---

١٤ - Arthur Koestler, **Thieves in the Night: Chronicle of an Experiment,** the Danube Edition (1946; rpt. London: Hutchinson, 1965), p. 335.

١٥ - George Orwell, «Arthur Koestler,» **Critical Essays** (1946; rpt. London: Secker and Warburg, 1954), p. 162.

بطريقة ما ، اقرب الى نهاية القوميسار ، انه يؤمن بالفعل ، بالعنف عند الضرورة، بالحكومة، وبالتالي بالتقلبات والمساومات التي لا تنفصل عن الحكومة (١٦) .

هذا الحب للفعل ناجم عن انقطاع جذوره وطوباويته ، وهو هنا يتخذ مسارا جديدا . فلدى استيقاظ العالم بعد الحرب العالمية الثانية على ما عرف فيما بعد باسم مأساة فلسطين ، يغير كوستلر وقفته ونغمة تشاؤمه القصير الامد ليوظف أكثف مشاعره وأدق افكاره في التزام بطرف واحد في قضية يقول عنها السيد كلينغو بولس انها « مثال بشع للانتفاعية الدولية ، ولا يمكن أن تناقش باية عبارات أخلاقية » (١٧). فبعد ان خيبته ، كما يقول ، الشيوعية ، يستدير نحو « ـ ية » أخرى ، متصلة هذه المرة بصهيون ، آملا ان التزامه الصهيوني سيحقق احلامه الطوباوية او ، على الاقل ، يخفف من شعوره بالدين .

رواية **لصوص في الليل** ، كما يوحي العنوان الفرعي ، هي « تاريخ تجربة » ، ولعلها تتضمن الكثير من تجربة المؤلف في فلسطين أثناء عشرينات هذا القرن وتقاريره التي كتبها كصحفي عام ١٩٣٧ . ان شدتها وجرسها المضغوط ينبعان من حاجته الى ربط نفسه بقضية وليس من الوضع الانساني الفريد في فلسطين . وكما هو مألوف في رواياته السابقة ، فهو يقسم هذا الوضع الى قطبين : الصهيونيون يواجهون الارهابيين العرب والمرتدين الانكليز . كذلك يقسم الصهيونيين والعرب الى ارهابيين ومعتدلين ، بزيادة شخصية مركزية لا جذور لها على الجانب الاول وكثير من المنافقين على الجانب الثاني . ولقد أعطيت كل شخصية دورا محددا ومختلفا ، مما يضاعف التأثير الكلي للرواية في كشفها عن موضوعتها الرئيسية : تبرير الارهاب الصهيوني .

فعلى العكس تماما من **ظلام في النهار** ، يحاول كوستلر ان يدافع عن القول الشهير : « الغاية تبرر الواسطة » ، في حالة استعمار الصهيونيين لفلسطين ، ويمضي فيعلن ان تحقيق هذه الغاية لا يتم الا بالعنف . وهذا ما يصفه المؤلف في اختتامية روايته بأنه « أخلاق البقاء » .

ثمة تغير آخر في وقفة السيد كوستلر ، وهو ايمانه بالقومية . في **اليوغي والقوميسار** يعلن عن خيبة ضمنية في العبارات التالية :

> احد اقوى العوامل العاطفية هو الخوف من الاجنبي ، بدءا بصيغته التوتمية القبلية وانتهاء بالقومية الحديثة . هذا العامل مستقل الى حد بعيد عن المصلحة الشخصية ، وهكذا نرى العمال الاشتراكيين في وارسو يحملون السلاح ضد الجيش الروسي الثوري عام ١٩٢٠ ، وهكذا حمل عرب فلسطين السلاح ضد التسلل اليهودي الذي قدم لهم فوائد اقتصادية ضخمة. ( ١٣٩ ) .

وبعد عام من وصف كوستلر للحركة الصهيونية في فلسطين بانها « تسلل يهودي » ، ووصفه للقومية بانها « الخوف من الاجنبي » ، صدرت **لصوص في الليل** بطابع قومي لا يخطئه الفهم . فعلى النمط الذي احتذاه ديروندا وليون وباراتز ،

---

١٦ – S. Orwell and Ian Angus (ed.), «Catastrophic Gradualism,» **The Collected Essays, Journalism and Letters of George Orwell : In Front of Your Nose**, Vol. IV (London : Secker and Warburg, 1958), p. 17 (first published in **Commonwealth Review**, Nov. 1945.

١٧ – G.D. Klingopulos, «Arthur Koestler,» **Scrutiny**. Vol. XVI, No. 2, June 1949, p. 90.

ينطلق المستعمرون الرواد في برج عزرا بالجليل الى بناء كوميونة مشابهة لدغانيا سوف تسهم في تأسيس الوطن القومي اليهودي . سمعان يقرأ اشعيا في اليوم الاول : « وستفرح بهم البرية والمكان الموحش ، وستبتهج الصحراء » (١٣) . ثم يتلو ذلك ذكر لاسماء مشاهير اليهود القدماء كأبطال وقدوات وبتركيز واضح على شخصيتهم القومية وليس الدينية . الدين هنا فقد أهميته . ان تمجيد دزرائيلي لليهودية ، وللمسيحية كفرع لها ، وكذلك انشغال موردخاي بتعاليم موسى والمعلمين ، وتوكيد ليون على رسالة أسرائيل ، كل هذه غائبة عن **لصوص في الليل** : « نعم ، فكر جوزف ، سوف نعيد بناء الجليل ، سواء اهتم الله بذلك شخصيا أم لا » (١٢) . أما الحاخام غرينفلد فهو عاقد قران متجول مستنقع في عالمه التوراتي البالي . ويضرب جوزف ـ الشخصية الرئيسية ـ مثالا ليوضح ضرورة الارهاب ، فيستقيه من طريقة يعقوب في امتلاك الارض بالخدعة والاحتيال :

« جدنا الاعلى ، اسمه يعقوب ، حصل على بركة الرب ومعها الارض بالخبث والاعوجاج ، انها قصة مقرفة ، لقد خاتل عيسو العديم الغش ، ساعد نفسه فساعده الرب ايضا . ولو كان لديه وازع في اختيار طريقته ، لما حصدنا على الارض ـ ولكانت قد وقعت نصيبا لصيادي الصحارى المتجلبب بالفراء » . ( ١٥٢ ) .

فيعقوب هنا ليس نبيا وانما سيدا من سادة الانتفاعية . وبدلا من الدين ثمة تشديد لا ينتهي على فكرة العرق . ويشرح لنا جوزف في يومياته كيف يرى نفسه يهوديا ، مع العلم بانه نصف يهودي عن طريق الاب :

وعلى اية حال ، فبحسب قوانين الاحتمالات يجب ان يوجد بي جزء منحدر مباشرة منه [يشوع] . وداخل خصيتي توجد خلايا معقدة ولكنها راسخة قد وصلتني منه ونموذجها لم يتغير . ( ١٦٧ ) .

ومع ذلك فان دينا لا تفهم اختياره العرقي الذي حرمه من حياة أسعد « بين الآخرين » . « عرقيا ، نصفك فقط ينتمي الينا » ، (٧٥) تقول له ، فيشير ـ وكذلك المؤلف ـ بانتباج الى « المسيحيين * [ اليهود ] من يسوع الى ماركس وفرويد » (١٤٧) مركزا الاهتمام على أصلهم اليهودي وانتمائهم الى « هذا العرق الخارق الذكاء » (٣٠٩) . ويسأله روبين أين هو موقع « العرق المختار » في نظرية جوزف عن التطور . لكن ثمة صفة كريهة في كون الانسان يهوديا ، لذلك يستعير جوزف فكرة جابوتنسكي ليصف المستعمرين الصهيونيين بانهم « قد كفوا عن كونهم يهودا وصاروا فلاحين عبريين » (١٤٧) . كذلك فالمؤلف نادرا ما يستعمل كلمة « يهود » ، فهم « عبريون » بعد أن تحولوا الى شخصيتهم الجديدة القديمة .

لقد انبثق مفهوم جديد لقومية المستعمرين لم يكن معروفا لاي من دزرائيلي او ديروندا أو موردخاي . القومية الصهيونية هي بالاساس اشتراكية . هذا ما اكتشفه ليون ، ولكن كجزء من دين اليهودية . أما باراتز فيميز بحرص بين الاشتراكيتين الصهيونية والبلشفية على أسس قومية . وهكذا يتناقش مستعمرو برج عزرا ، وقد انقسموا كالعادة الى فريقين ، حول الاشتراكية الصهيونية بحمية . فموشيه يؤكد ان المستوطنات المئة التي بناها الرواد قد سمحت بممارسة الشيوعية الزراعية طيلة

---

* ـ جمع ( مسيح ) .

ثلاثين عاما ، وان على الروس في الحقيقة ان يرسلوا وفودا لتدرس الشيوعية الحقيقية في المكان الوحيد من العالم الذي طبقت فيه . وينشم ماكس ضد تبجح موشيه باعتباره « منفخة شوفينية تقليدية » (٩٥) . ويلتمس فيليكس ، ذو الاشواق الباقية الى « الوطن الاشتراكي الام » ، الاعذار لاشتراكية روسيا العرجاء على أساس انها قد فرضت على شعب متخلف ، « بينما بنيت كوميوناتنا من قبل نخبة من المتطوعين » (٩٤) . يشكل الفريقان معا أقلية بين المهاجرين اللااشتراكيين ، وكلاهما يحاول ترسيخ الاسطورة التي بدأها مستعمرو دغانيا . فالتاريخ اليهودي في التوراة معهم دائما ، ولكن ليس التوراة المقدس . وهم يستمدون من ذلك التاريخ القوة الروحية التي يحتاجون اليها لغزو فلسطين بالطريقة نفسها التي غزا بها العبريون كنعان . ولعل التوتر الذي يبدأ به الكتاب عائد الى شعور المؤلف باستثنائية الخيار الذي أقدم عليه هؤلاء . فالجملة الاولى تلطم وعي القاريء بتوقع قوي للموت : « ان أقتل هذا اليوم ، فلن يكون ذلك بسبب سقوطي من الشاحنة ، فكر جوزف» . وبعد أسطر قليلة يصف المؤلف جوزف بانه « قامة مصلوبة أفقيا على عربة موتى متقلقلة تحت النجوم » حيث الدب الاكبر أيضا « متمدد على ظهره بغرابة والمجرة متعنقدة في وشم عريض وضاء عبر نسيج السماء القاتم » . فالبداية واختيار الكلمات يشيران الى خطورة التجربة. وهنا أيضا نقع على تكنيك الثنائيات المتضادة : الصلب وعربة الموتى في رحلة مقصودة لاعادة بناء الحياة ، الدب الاكبر ( ويذكر بجوزف ) والمجرة (وتذكر بدرب المستعمرين) « وشم عريض وضاء عبر نسيج السماء القاتم » ( العالم المعادي لليهود ) . وباستثناء مشهد اغتيال دينا فهذا هو التصوير الوحيد لتوتر حقيقي في الرواية ، أما التصويرات الاخرى فتصنعها الحوارات بين الثنائيات المختلفة وكلها مطبوع بطابع المؤلف العقلي . الاوضاع الاخرى تقوم على المناظرة ، لان السيد كوستلر ليس مهتما بتقديم شرط انساني تبرز فيه العلاقات والافراد ، وانما بتقديم محاجة وجدال تعطى فيهما للشخصيات أدوار محددة . ومثالا على ذلك نذكر موضوعة هامة لكنها مهملة : «شيء للنسيان» ، ويعني به المؤلف تجارب الصهيونيين وذكرياتهم في أوروبا . فنادرا ما يعالج المؤلف « الاحداث » التي خلقت هذا « الشيء للنسيان » وجعلت هؤلاء صهيونيين ، مع أنها أفضل ما يحكى للمؤلف ان يبدأ به رواية عن الاختيار الصهيوني وعن ظهور القومية الصهيونية . لكنها يعالجها ليس كحائط مبكى شخصي يلهم تجربة الصهيونيين ولكن كوثيقة اتهام لاوروبا ودعم للصهيونية .

التوجه نفسه موجود في وصف الارض : الارض العربية اما صحراء واما مستنقع ، وارض المستعمرين اما جنائن واما حقول خضراء . لقد لاحظ كثير من النقاد الوصف المفصل للطبيعة في **لصوص في الليل** وهو وصف تخلو منه روايات المؤلف السابقة . وربما كان ثمة سببان لسابقة الاهتمام هذه . ففلسطين مرتبطة بذكريات عزيزة على المؤلف ، لكن وصفها ـ وهذا هو الاهم ـ يخدم غرضه في عقد مقارنة بين فلسطين العرب وفلسطين الصهيونيين ، وهي مقارنة قام بها باراتز من قبله ، وتضيف بعدا جديدا الى الاسطورة التي يحاول المستعمرون خلقها . ان فكرة استصلاح الارض حاضرة دائما في **لصوص في الليل** ، ويؤمن روبين ، مثل باراتز بان الارض « لم تعط محصولا منذ تركها أسلافنا » (٣٩) ، وان العرب قد أهملوها بحيث

ان الدرجات انهارت وتخربت وان المطر قد جرف التربة بعيدا . والفرق بين اسطورة باراتز واسطورة كوستلر هو أن الاول يحاول أن يقنع نفسه بها ، بينما يحاول الثاني دعم مناظرة ضد العرب وحقهم في ملكية فلسطين . فمناظرة كهذه يقنع صحفيا أمريكيا صلبا ــ ديك ماتيوز ــ بالتحول من لاساميته العنيفة الى صهيونية جامحة .

تربط الرواية ما بين ثلاثة اجيال من المستعمرين الصهيونيين ، جيل باراتز ، والجيل الذي يقدمه المؤلف ، والجيل المولود في فلسطين والمسمى « صابرا » . لقد صار مستعمرو دغانيا الآن أسطورة ، فقد كانوا أول من وضع النظريةموضع التطبيق وحارب الاوبئة والعربوالجفاف و «الامراض المصرية» ، وأسس الشبوعيةالزراعية. اما مستعمرو برج عزرا فأحسن حالا . لقد امضوا ــ وهم خريجو الجامعات ــ خمس سنوات يتدربون خلالها بحسب برنامج مدروس يحولهم الى فلاحين . وهكذا صار الرجال اقل ثرثرة واكثر رزانة وحكمة ، وصارت النساء أخشنمظهرا « واصلب اردافا واثداء » ، وصار الجميع اكثر خبرة بالزراعة والري وكاملي الانفصال عن أوروبا وحياة البورجوازية الصغيرة . وهم يعتبرون هذه السنوات الخمس مقدمة ( ليوم الاستيطان ) ، وها هو اليوم قد بدأ .

سوف يناقش الجيل الجديد ، الصابرا ، في الفصل القادم . على أن جوزف يلخص قبيل نهاية الرواية الاجيال الثلاثة في أمثولة كوستلرية تقليدية . فهو يقول لروبين ان مخلوق الطبيعة الكامل كان ذات يوم السمك السابح بسعادة في البحار السبعة . لكن قوة ما دفعت السمك فيما بعد الى الشاطيء وهكذا وجدت البرمائيات وتخبطت « على بطونها عبر المستنقعات والوحل » . لقد عانت من انحطاطها ، لكنها حاولت التعويض عنه . والعرب هم السمك الذي يرفض اي تطور ، أما الصهيونيون فهم البرمائيات التي تعاني من جراء تطورها وتستهدف الوصول الى صيغة أسمى للحياة . بالتالي ، فمن المحتم أن ينشأ صراع بين العرب الخاملين العقيمين الجامدين وبين الصهيونيين المبدعين : « فانظر اذن ، نحن تلك القوة التي تدفع السمك الى الشاطيء ، نحن سوط التطور العصبي » (٣٢٥) .

تلخص هذه الامثولة رؤية كوستلر للوضع الصهيوني في فلسطين. فبالنسبة له يؤثر العرب العيش خارج الزمن ، بكسل ولا مبالاة ، ويكرهون « سوط التطور العصبي » الذي يدفعهم الىالشاطيء . لهذا يميلالانكليز اليهم ويكرهونالصهيونيين. والمأساة هي أن محبات وكراهيات العرب والانكليز تعرقل قوة التطور الصهيونية وتجعل من الامر مسألة حياة او موت ، بقاء او فناء . ويقدم كوستلر القضية بعبارات بسيطة : ففي أوروبا يقود النازيون حملة افناء جماعي ضد اليهود ، بينما تظهر قصاصات الجرائد التي يقتطعها سمعان ان بقية الدول ترفض منحهم ملجأ . وفي فلسطين ــ المكان الوحيد الذي بقي لهم ــ يبذل الانكليز والعرب أقصى جهدهم للحيلولة دون هجرة اليهود اليها . ان موضوع الاخلاق والفضيلة غير وارد بالمرة في هذا المضمار ، أو في ما يسميه المؤلف « أخلاق البقاء » في « عصر الجليد » هذا .

شخصيات الرواية جميعها تقريبا تتصرف تبعا لفرضية « عصر الجليد » .

هناك بالطبع اليوغي والقوميسار . فمن ناحية ، معظم العرب يوغي بطبيعتهم ، وبعضهم صار قوميسارا . ومن ناحية أخرى ، معظم المستعمرين يوغي بفضل تطورهم السلمي ومنهاجهم الاشتراكي ، انهم لا يبالون بعصر الجليد ويعارضون ارهاب قوميسارية الصهيونية . أما الانكليز فقد انحازوا الى قوميسارية العرب بتحديدهم للهجرة وتسامحهم ازاء الارهاب العربي ، وهم في هذا يستلهمون انتفاعية عصر الجليد . ولدى نهاية ( اليوم الاول ) تتوضح للشخصيات ادوارها المحددة في المناظرة عن العنف وتنحرف الحبكة الى ما يسمى بـ ( الرواية ذات الفكرة ) . واختصارا للكلام يلخص المؤلف سيرة كل شخصية بجمل قليلة حاسمة ترتكز على « شيء للنسيان » ثم يبدأ دفاعه عن الارهاب . وهذا يريح السيد كوستلر نفسه بسهولة من عناء تقديم خلفيات مناسبة لصهيونييه ـ باستثناء دينا التي أعطيت صفحتين . وزيادة على ذلك ، يتأكد لنا ان دافع المؤلف لوصف طبيعة الارض كان سياسيا وليس فنيا عندما نتفحص وصفه لاجسام شخصياته . في العادة ، يستخدم المؤلفون الوصف الجسماني لترسيخ صور شخصياتهم في أذهان القراء وجعلها أقرب الى المحسوس منها الى المجرد . لكن **لصوص في الليل** تعاني نقصا خطيرا في هذا المجال بالنسبة لشخصياتها الرئيسية ، والتي هي صهيونية كلها . فما بين نيف وثلاثين صهيونيا ، تصف الرواية ثلاثة لا أهمية لهم وبشكل جزئي ( داشا ، ايلين ، الصبي الارهابي ) ، بينما يوصف العرب والانكليز بالقبح والتنفير على طول الخط ( وخاصة المختار وابنه عيسى ، ومساعد المفوض الرئيسي ) . وواضح ان قصد المؤلف ليس خلق شخصيات محسوسة وانما استعمال الوصف لغايات سياسية : تقديم العرب والانكليز في صورة حيوانية .

يشترك المستعمرون اليوغي في الصفة العامة لكونهم مقطوعين عن العالم خارج كوميونتهم . ان هدفهم الوحيد هو « اعادة بناء الجليل » انهم يقومون بعملهم ويتركون الباقي « للرؤوس الكبيرة » في القدس وتل أبيب . العمل في الارض أكثر فعالية بالنسبة لهم من المداخلات السياسية . وفيما بينهم يتشرذمون ويتشاجرون ، كما هو الحال في **ابناء الغيتو** ، حيث يؤدي خلاف صغير في وجهات النظر الى هذه التنظيمات السياسية المتعددة في الحركة العمالية الصهيونية . ان أعضاء الكوميونية اشتراكيون بدون استثناء ، وعليهم مسؤولية مزدوجة : بناء الاشتراكية والتفاهم مع العرب . الشطر الاول من هذه المسؤولية بعيد عن اهتمام المؤلف ـ على عكس ما يتوقعه القاريء . فبعد تسجيل اليوم الاول من العام الاول ، ينصرف جوزف الى الكتابة عن الصعوبات المالية والجدالات السياسية . ولا يوصف المستعمرون اثناء قيامهم بعملهم الا مرتين عابرتين : اثناء زيارة وفد عربي ، واثناء زيارة نيوتن مفوض المنطقة .

أما الشطر الثاني ـ التفاهم مع العرب ـ فيقوم على اساس ان اليهود فقراء ، وكذلك العرب ، وانه لمن مصلحة الشعبين ان يتحدا تحت الشعار اللينيني . روبين ، « اليسوعي الجماعي » ، يجد هذا الهدف مستعصيا على التحقيق في صورته المثلى ، لذلك ينصرف الى الفخر بان الرواد المستعمرين « قد حرروا الطفل من طغيان الآباء ، والآباء من طغيان الحاجة الاقتصادية » (١٦٣) ، انه يعتبر نفسه شخصا انتقاليا في مسار التحول القومي ، ويصفه المؤلف بانه

ليس لماحا ولا نبيها ، وهو يفتقر الى الغرور والطموح افتقارا كليا ، وقد اعتمدت قيادته على

غياب الصفات السلبية ، على نوع من الشخصية الحيادية التي لا يوجد فيها ما يهاجم والتي جعلته النموذج المثالي للحياة الجماعية . ( ٥٨ ) .

وعندما يشق باومان الهاغاناه وينضم الى جابوتنسكي ، يدين روبين العمل باعتباره مدمرا لاتحادات العمال وحزب العمل والحياة الجماعية . لكن الحركة الارهابية ـ كما يحاول كوستلر ان يصورها ـ مرفوضة من الجماعيين ، وبعيدة عن حياتهم . انهم يعملون بنشاط ، ولا وقت لديهم للسياسة ، الا بعض المناقشات أثناء استراحة المساء . وعندما يتناقشون يتكلمون عن جيرانهم العرب . ويبين ماكس ان عليهم كسب ود العرب ، فذلك واجب أكثر قدسية من الوصايا العشر وبديل حقيقي للارهاب . ويتحدث موشيه ، ليس فقط عن ضرورة خلق اتحادات عمالية عربية ، وانما عن امكانية الاستغناء التام عن الارهاب بمزيد من العمل في الارض واثبات الوجود عليها . وفي رايه يشكل المستعمرون « ثلث سكان البلاد واكثر من ثلثي اقتصادها » . والحل الوحيد هو « شراء فدان آخر وبقرة أخرى » (١٥٣) .

لا يمثل الصهيونيون غير الاشتراكيين بنسبة عددهم الحقيقية في الرواية . على أن « غليكستاين وشركاه » ، وهم الموظفون الصهيونيون في ادارة البلاد، يتبعون بدقة التعليمات التي تصدرها لهم وزارة الظل المتمسكة ـ كما يقول المؤلف ـ بسياسة معارضة الارهاب . لكن كبلان يتهم الادارة الانكليزية بتعمدها عرقلة تربية العرب وتعليمهم كيما تبقيهم جاهلين بمزايا الاستعمار الصهيوني لبلادهم . يقول لنيوتن :

( لا يمكنك ان تصل الى اتفاق مع قطيع محسوس من الاميين . اريد ان يدق في رؤوسهم شيء من الفهم ليكون لنا شريك نام عقليا يمكننا التعامل معه ) ( ١٣٢ ) .

ان عبارة كبلان المحتدمة تذكرنا بتعليق بولايثو على عمى الصهيوني تجاه مصالح غيره وموقف باراتز المتعجرف تجاه العرب ( يصفهم بـ البدائيين ) . غير ان الاستاذ شنكن من الجامعة العبرية صوت وحيد ومختلف :

( كنت دائما اعارض هذا الكلام الاستفزازي عن دولة عبرية ، الذي يزعج اصدقاءنا العرب . بالنسبة لي ، صهيون رمز ، دولة ! ما هي الدولة ؟ ضغينة انانية بالية ...
يريد مهووسونا الشباب ... اغلبية يهودية . ما هذا الكلام ؟ استفزاز . ما هي الارقام ؟ ما هي الكميات ؟ الروح هي التي تهم . يجب ان تأتي بروح صداقة وفهم الى اصدقائنا العرب ، اليهود يكرهون العنف . انها رسالتنا التاريخية ... ) ( ٢٠١ ) .

ولا ننس ان هذا اليوغي اليهودي مرسوم بشكل يدعو الى الاستهزاء . وبالنسبة للصهيونيين اليوغي ، فان هجوم العرب على مستوطناتهم « جزء مقبول من مخاطر البناء . انهم لا يفكرون بالانتقام ، وانما يركزون على جعل أنفسهم منيعين » (١٨) . ولا يخفى أن في هذا الحكم الكثير من حسن النية من جانب السيدة كالدر . ومع ذلك فان تعاطف المؤلف ليس مع الملائكة . فبينما يعلن روبين ان ارهابيي جابوتنسكي لم يبنوا مستوطنة واحدة ، يصف المؤلف أعمالهم بانها « اخلاق البقاء » . والتبرير موجود بشكل غير مباشر في مصرع نفتالي الذي أسكتته رصاصة عربية بعد ان ظل

---

١٨ – Jenni Calder, **Chronicles of Conscience. A Study of George Orwell and Arthur Koestler** (London : Secker & Warburg, 1968), p. 215.

يتكلم طيلة ساعات عن تحرير العرب وضمهم الى اتحادات العمال الصهيونية . ومنذ البداية يظهر باومان سخطا رزينا على معسكر « المسالمين » وآنذاك يقف جوزف ضد المعسكر الارهابي ( الفصل ١٦ ) ، لكن تعاطف المؤلف يذهب بوضوح الى باومان . فمثل الدكتور هرتزل ، كان باومان اشتراكيا ديمقراطيا (١٩) ، وقد اعتقد ان «القومية اليهودية في مثل فظاعة اية قومية أخرى ، وان العودةاضمحلال رومانتيكي» (٢٨٠) . ولكن عندما وقع له « حادث » ما اعاد التفكير في كل شيء وقرر انه لن يستطيع الانتظار حتى تغير الإشتراكية العالم . واذ اعتنق الصهيونية صار بوسعه ان يقول لوفد قرية عربية جاء يشرح حقه في الارض للمستعمرين : « ما هذا الهراء عن كون الارض ليست لنا ؟ » ويرفض اعتراض جوزف فيما بعد على عدم اصغائه لحجة العرب : « لا يسعنا ان نرى وجهة نظر الآخرين » (٤١) . وقبيل نهاية الرواية ، واثناء قيادته للعمل الارهابي في القدس ، يقول لجوزف :

( ان نرى جانبي الموضوع ترف لا نستطيع ممارسته . نحن نتحرك باتجاه عصر الجليد . علينا ان نبني اكواخ الاسكيمو الخاصة بنا ونضرم نيراننا القومية ، او نفنى ... ) . ( ٢٨٠ ) .

ومثل صهيوني بولايثو ، تتميز جمله القصيرة بنبرة حاسمة لا مجال فيها لاعادة النظر . ولقد أفرخ تدريبه الارهابي للصهيونيين الشباب رغبة مهووسة بالموت تمجدها الرواية . لكنه يختلف عن بيتر سلافك في **وصول ورحيل** ، في أن جيشه يعرف لماذا يحارب . ان لديهم اسبابا :

( انت مكيافيللي فظيع ) ، قال جوزف .

( انه منطق عصر الجليد ) ، قال باومان . ( علينا ان نستعمل العنف والخداع لننقذ الآخرين من العنف والخداع ) . ( ٢٨٣ ) .

ويصف سمعان الوضع بانه « لا علاقة له بالاخلاق . ان مفهوم الانتقام بال وسخيف . علينا ان نجابه الارهاب بالارهاب لاسباب منطقية بحتة » (٥٩) . هو ايضا لديه « شيء للنسيان » : قتل اخته في اوروبا . لكن ثمة اسبابا اخرى : فخلال فترة نقاهته في تل أبيب يرى جوزف مقتطفات من الصحف تخبر بالوضع المأساوي لليهود في المانيا النازية وبتحريم هجرتهم الى اية بقعة اخرى من بقاع العالم . والنتيجة هي الفناء . ويشرح كيف ان الحكومة البريطانية ، في محاولة منها لتهدئة العرب ، تخذل اليهود كما خذلت التشيكيين لتهدئة هتلر . لكن باومان يعتقد ان « كراهية [ سمعان ] الباردة المركزة » للانكليز لا تكفي ، اذ يجب القيام بفعل ما . ويبسط لجوزف نظريته في التعاون مع الانكليز على أسس المصالح المتبادلة . اذ يبدو ان الانكليز لا يدركون فائدة ما وافق عليه الملك فيصل الاول نفسه : دولة يهودية . فبحماقاتهم للجانب العربي يجلبون نهاية سيطرتهم على العراق وفلسطين ومصر ، لانه اذا اصبحت فلسطين دولة عربية فسيتعين عليهم الانسحاب امام مد القومية العربية ، واذا أصبحت دولة صهيونية فسينشطر الوطن العربي في قلبه ولن يتحد ثانية . ولتنفيذ هذا المشروع المفيد لكلا الطرفين ، على الصهيونيين اقناع الانكليز بالتعامل معهم وباسكات الارهابيين العرب باللغة الوحيدة التي يفهمها عصر الجليد .

---

١٩ ــ مثل احزاب براندت ، وويلسون وميتران .

دينا شخصية اقل عقلانية من باومان وسمعان لكنها أكثر حمية ويأسا في تصميمها على العنف . لقد اعتقلها النازيون ليبتزوا اباها ، واثناء سجنها حدث « الحادث » الذي جعلها تنوء « بذعر مكتوم » تحت لمسة رجل . يصفها جوزف بانها الشخص الوحيد في الكوميونة الذي « احتفظ بطهر الحقد » (١٥١) . ويجد هذا الحقد مخرجا في دعمها لباومان وسمعان اثناء النقاشات المسائية . عباراتها قصيرة ومباشرة ، تنفجر فجأة بمرارة سامة وهزء حارق يتناقضان مع جمالها ومأساتها وحب جوزف اليائس لها .

مع جوزف يتحول موضوع الارهاب الى عقلنة مضخمة . فهو ينظر له بمنظار العرق والضرورة التاريخية ، وعبر التناقضات الذاتية . ان جوزف شخصية معقدة. وان اعتباره ممثلا للمؤلف مبرر لاكثر من سبب . فالسيد كوستلر يميل في رواياته الى التعبير عن نفسه وآرائه عبر واحدة أو أكثر من شخصياته . نقد روباشوف لقادة الحزب ، مثلا ، وتحليله للمسيرة الثورية ، هما نقد وتحليل كوستلر ، وكذلك دافع بيتر اللاعقلاني الى الفعل في **وصول ورحيل** ، وحالة نيكيتين اليائسة في **عمر الشوق**. واستنادا الى سيرة المؤلف التي كتبها ج نيدافا ، والى مقالات نقدية متعددة تناولت الرواية ، يمكن القول ان جوزف هو كوستلر في آرائه وموقفه من اليهودية والصهيونية . ان اختيار جوزف الطوباوي للصهيونية يشبه الى حد صارخ اختيار المؤلف في عامه الحادي والعشرين :

> لم يعد [ جوزف ] يهرب من شيء ما ، وانما ركض وراء هدف . لقد كان لذلك غواية بلد قصي ، اذهال انبعاث رومانتيكي وجاذبية يوتوبيا اجتماعية ، كل هذه في واحد ـ ليكاد الامر ان يكون اروع من ان يصدق . ( ٧٩ ) .

« اروع من ان يصدق » عبارة رهيفة . انها تتضمن ، دونما تصريح ، جرثومة الشك التي تطورت الى سخط على الصهيونية شعر به كلا المؤلف والبطل . وفي نهاية المطاف يثبت الاثنان انهما منبتان وبلا جذور وعاشقان كبيران للفعل . ان انغمار جوزف في الارهاب ليس كما يظن تكريسا للصهيونية أمينا ، ولكنه نتيجة لنفسيته المعقدة ، وهو بهذا يشبه معظم الصهيونيين ممن يؤمنون بان العنف هو الوسيلة الوحيدة لفرض السلام على العرب . فعندما يتأكد في اليوم الاول من انه قتل عربيا « شعر فجأة بالدموع تنهمر من عينيه . أوه ، لقد كان جيدا ان ينال المرء الاستحسان» (٧٤) . أما انشقاق باومان فيشحنه بقلق كهربائي . ان الالتزام الصهيوني لا يشبعه، بل العنف .

والى ذلك ، فالمؤلف وبطله يتمتعان بمعرفة واسعة باللغات والعلوم والتحليل النفسي ، وحتى بالمعلومات نفسها عن نيوتن مفوض المنطقة . كلاهما شيوعيان سابقان، ويكتبان بالاسلوب نفسه ، ويستعملان الامثولات نفسها ، ويخبئان شعورا متضاربا تجاه اليهود والصهيونيين . وان احد الاسباب في كون ايقاع الرواية متناغما ـ مع ان يوميات جوزف تحتل نصفها ـ هو ان صوت المؤلف متماثل تماما مع صوت جوزف . وهما يظهران ايضا التأرجح نفسه بين اليوغي والقوميسار وينتهيان باختيار الفعل . وحياة جوزف الشخصية هي بالنتيجة حياة المؤلف ، فكل منهما نصف يهودي

ولديه حادث للنسيان : فبعض أقرباء كوستلر قتلوا لكونهم يهودا ، وجوزف أهين اهانة بالغة بسبب ختانه من قبل امراة انكليزية .

ان تركيزنا على عنصر السيرة الذاتية في شخصية جوزف مقصود لشرح السبب الذي جعل معظم النقاد يراه ناشزا بين الصهيونيين والعرب والبريطانيين . وفي الصفحات التالية سنحاول أن نشرح ان هذا العنصر يجعل منه نمطا خاصا من الصهيونيين يتميز بالوعي الذاتي وبادراك التناقضات الكامنة في صلب الصهيونية ومع ذلك يفتقر الى الشجاعة الاخلاقية الكافية لنبذ العنف . بالطبع ، ليس الموضوع سهلا على هذا الشكل . فالسيد كوستلر ، رغم عالميته ، لم ينس مسؤوليته تجاه اليهود . وفي **لصوص في الليل** يحاول ان يدفع دينه لليهودية والصهيونية ويبقي على انفصاله عنهما . لذلك يحاول دمج شخصيته الرئيسية بمجموعة برج عزرا عن طريق « الحادث » وحب جوزف لدينا . ان اذلالا جنسيا كالذي تلقاه البطل يكفي لدفعه الى موقف عرقي . انه لا منتم نموذجي تجد غربته تعبيرا عن نفسها في الفعل والعلاقات المتضادة من نوع حبه لليهودية وكرهه لليهود ( وهو شعور رأيناه لدى دزرائيلي ) . وفي كلا الحالتين نراه قانعا قناعة عميقة ، لكنها ليست مطلقة ، بان يعيش مع المستعمرين . فبرج عزرا يثبت في نفسه الحس بالانتماء الى جماعة تلتقي تجربتهم الريادية مع نزوعه الطوباوي . ويفصح حبه لدينا عن الانموذج نفسه من العلاقات . يعتقد السيد ادموند ويلسون بان هذا الحب « لا يكاد يكون حقيقيا ـ اذ يبدو ان المؤلف لا يأخذه مأخذ الجد » (١٩) . والحقيقة ان علاقة حب كهذه تعطى لطوباوي مثل جوزف حافزا للوصول الى المستحيل . والطوباويون يربطون انفسهم بعلاقات لها هذه الصفة . لكن محاولة المؤلف لدمجه في الدراما التي كتبها تفشل عندما تستبدل موضوعة الانبعاث بموضوعة الارهاب ، مما يجعل « الحادث » والحب يبدوان هامشيين في اختياره للعنف . والمهم في سياق هذا الاختيار ليس هاتين الموضوعتين الفرعيتين ، وانما نفسيته . فحسده لسمعان على قدرة الاخير على الحقد ، لا علاقة له ( بالحادث ) او بقضية الحب ، ولكنه يشير الى عجزه عن الشعور بالعواطف الحقيقية . جوزف يشعر بانه « مثل ممثل رخيص ، حتى ولو لم يكن ثمة جمهور حاضرا » (١٢) . والطوباويون من امثاله يكونون هكذا ، لانه كلما كبر الحلم كلما كبر عجزهم عن تحقيقه ، وهذابالنسبة لهم تبرير ممتاز للفشل. القضايا الكبرى تسحر جوزف ولكن مسؤولية حملها تتجاوز قدرته على الالتزام بها . ويزيده تعرقلا ذهنه الدائم العقلنة . انه مشدود بين حب الفعل الذي ينهي تناقضاته وهذه العقلنة العقيمة . ويبدو الفعل المهووس ـ كالارهاب ـ حلا معقولا لتخبطه ، فهو كصهيوني بشكل خاص لا يطيق ان يظل بلا جذور ، بالتالي يفدو العنف والقتل والتدمير مفاتيح حقيقية لاي سلام روحي يمكن ان يشعر به . يشير بعض النقاد الى ان موت دينا قد عجل بانجرافه نحو العنف . ولكن ينبغي التوكيد على كلمة ( عجل ) ، فهذا الموت لم

---

١٩ – Edmund Wilson, «Arthur Koestler in Palestine,» **The New Yorker**, Vol. 22, No. 40, Nov. 16, 1946, p. 110.

يفعل اكثر من ذلك ، كما خيل لبعض النقاد . فقبيل انضمامه الى باومان ، يكتب في يومياته :

لكن هذا كله لا علاقة له بدينا ، لم اعد اريد ان انتقم لها . ان اقرر الانضمام الى باومان ، فلن تكون هي السبب . دينا ، انت خارج هذا ، « بين يديك اضع روحي » . آه ، لو ان الامر سهل كما يبدو ... روحي ، نعم ـ لكن عقلي انكره عليك . ( ٢٥٩ ) .

انه قادر على وضع روحه بين يدي دينا ، ولكن ليس عقله ، لان عقله محجوز لشيء آخر . ان جوزف مزيج من اليوغي بكتابته المرآتية وطبع عقله ومن القوميسار بفعل طبيعته الساخطة . وهو يواجه معضلة الالتزام بالصهيونية بالاندفاع في العنف الذي يخفف من تعثره المتصاعد . اما تضارب ذهنه تجاه اليهود ـ الشبيه بتضارب ذهن دزرائيلي ـ فمرسوم بفنية جيدة . لقد اكتشف ان التسامح والاضطهاد معا قد خلقا من اليهود « عرقا من السفلة الابديين » (١١٩) ، محددين أو مكثفين بشكل جعلهم خليطا غريبا من الكبرياء والتزلف والتشرد المريض وجعلهم يفقدون هويتهم . وباختصار ، فجوزف لا يلوم الاميين على كراهيتهم لليهود ، وهو نفسه لا يستطيع أن يحبهم ، سواء أكانوا يهودا أم صهيونيين : « صرت اشتراكيا لاني كرهت الفقراء ، وصرت عبريا لاني كرهت اليد » (٢٠) (٢٦١) فقبحهم يصدمه باستمرار : « لم تكن المرة الاولى التي يلاحظه فيها ، لكن تقززه هذه الليلة كان قويا للغاية بسبب هذا الجمهور من الانوف الغليظة المعقوفة والشفاه الممتلئة والعيون الرطبة . وللحظات بدا له انه مطوق بثعابين عتيقة » (٥٧) . ويقول له روبين :

( انت غاطس في اليهودية لكنك لا تحب اليهود ، انت تحب فكرة الجنس البشري وليس الانسان الحقيقي . لقد عشت معنا مدة ست سنوات وما نزال بالنسبة لك مواضيع وليس اشخاصا ) . ( ١٦٣ ) .

ويؤكد المؤلف صحة تحليل روبين عندما يتفكر في التركيبة العاطفية لنفسية جوزف : « ربما لو كانت ايلين [ زوجته ] هي المستعصية ، ودينا اما للطفلة ، لانعكس شعوره أيضا » ( ٣٢٣ ) .

وازاء تركيب نفسي من هذا النوع يغدو عقل جوزف عديم الفعالية ، وحتى مشاولا . ان تبريره للعنف هو في الحقيقة محاولة للتخلص من صراعاته الداخلية ، لكنها لا تقنعه ولا تجعل اختياره أخلاقيا :

( لكني لا اريد ان اكون معقولا ) ، صرخت [ جوزف ] . ( لقد شبعت من المعقولية خلال الفي عام لم يكن الآخرون معقولين فيها ... لقد قرفت من معقوليتكم ) . ( ١٥١ ) .

وهناك سبب مهم آخر لرفضه أن يكون معقولا : المعضلة الاخلاقية لمطالبته بـ « كنعان التي لم تكن لنا حقا » . ففي الصفحة قبل الاخيرة يكتب :

نحن مريضون حبا بكنعان لم تكن لنا حقا ابدا . لهذا نحن نكون الاوائل دائما بين الجنس [ البشري ] في لهائنا وراء اليوتوبيات والتورات المسيحية » ، في عدونا وراء الفردوس المفقود.

---

٢٠ ـ اليد Yid الاسم المحلي ليهود المانيا وبولونيا وروسيا ، وهو من اصل الماني . والمؤلف يستعمله هنا ليشير الى اليهود الاوروبيين جميعهم .

٢١ ـ المسيحية : لا علاقة لها بالديانة المسيحية ، وانما بالمسيح كمطلق مخلص يأتي لانقاذ العالم . ومن الملاحظ ان كوستلر يعدد اسماء فرويد وماركس واينشتاين ، كمسيحيين يهود .

وليس هذا هو العنصر اللاصهيوني الوحيد في نفسية جوزف ، فآراؤه السابقة عن صهيون مثال آخر . ولكنه اذ يعي انه قد كشف نفسه ، يعود الى التشديد على ضرورة امتلاك اليهود لوطن قومي :

مهزومين ومرضوضين نستدير الى تلك النقطة من الفضاء التي بدأ منها الصيد . انها العودة من الهديان الى السواء وحدوده . ان بلادا ما هي الظل الذي ترميه امة ما ، وخلال الفي عام كنا امة بدون ظل ... ( ٢٣٣ ) .

فالازمة الاخلاقية في المطالبة بكنعان التي هي ، كما يشير الاسم ، وطن شعب آخر ، تتلاشى سريعا بسبب احتياج اليهود لظل قومي . هذه الازمة غائبة عن حياة وعقل رواد مثل باراتز ، هيلل وايزمان ، باومان وروبين . عندما يلح روبين وماكس على انصاف العرب والتعاون معهم ، يذكرهما جوزف بالطريقة التي لطش بها يعقوب حق الارث ويصرخ بماكس :

( انت تتكلم عن الارادة الطيبة والتفاهم ، لكنك تشق طريقك سواء ارادوا [ العرب ] ذلك ام لم يريدوه . هذا ما تفعله ايها المنافق اللعين ) . ( ١٥٢ ) .

والسؤال هو : كم من الصهيونيين يعترف بالواقع ؟ فيما بعد يشعر جوزف بالقرف من ذلك كله . ( اليهودية والعبرية والجهد المركوم كله لاعادة الحياة الى شيء مات منذ الفي عام ) ( ٢٤٣ ) .

لهذا يلتقط نظرية باومان عن عصر الجليد ، وبمعنى آخر : الانتفاعية تأتي قبل الاخلاق ، او الغايات تبرر الوسائل . ان قراره بالانضمام الى باومان يتضمن انتحارا اخلاقيا ، وهو ، كما يقول السيد كلينغوبولس ، ليس واقعا ( في اطار حكمة كلية ) ، وانما هروب في أفضل الحالات . ان الحاجة الماسة الى الفعل تظهر فيه على شكل حقيقة عضوية ، كالجوع او العطش : « اما ان قرحة معدية ستصيبني ، فكر هو ، واما ان انضم الى عصابة الرعب التابعة لباومان » . ويشعر برغبة في « العض » والا فسيفدو ، مثل العرق اليهودي كله ، « مقروحا بألعن معنى حرفي » (٢١٦) .

لكن جوزف لا يستطيع ان يهجر عقلنته ، واذ يفكر بالغارات العربية المتقطعة على المستعمرين يرى ضرورة الرد ، وبالنكوص البريطاني يرى ضرورة العقوبة . ويفدو الارهاب مبررا كما هي مبررة اية حرب . وفي المآل يتدبر امره بحيث يبقى مرتبطا ببرج عزرا وعاملا مع الارهابيين في الوقت نفسه ، فتريحه هذه الثنائية بانسجامها مع طبيعته المتضاربة . لكن رضى جوزف ظاهري فقط . ويصعب جدا ان تكون ثمة « سهولة » في هذا الحل ، كما تقول السيدة كالدر ، ما لم ينجح في ترك العقلنة ، وهي مهمة مستحيلة . ولعل هذا هو السبب في أن جوزف قد « ترك بخفة اكثر من بقية ابطال كوستلر » (٢٢) . وهذا صحيح بمعنى انه ما يزال غير منتم الى الرواية ، كما الصهيونيون غير منتمين الى الارض الا بالعنف . لكن ملاحظة السيدة كالدر غير صحيحة اذا كان المقصود بها قصورا في رسم الشخصية . لقد قدم المؤلف جوزف من خلال الاقاصي . فهو ناشز لا شفاء له ، دائما يجد نفسه في المكان الخطأ ، اينما كان هذا المكان . ومن المفارقة انه عندما يحلل الشخصية اليهودية لا يدرك انه

---

٢٢ – Jenni Calder, **Chronicles of Conscience**, p. 217.

يحلل نفسه في الحقيقة . فهو البحر الميت الذي يعتبره رمزا لليهود بملوحته المركزة وانعدام المخارج منه ( باستثناء العنف ) ، وقلوياته اللاذعة . انه تفاحة من سدوم ، لا منتم ناقم يجد أمنه ليس في أن يكون شيئا ما بل في أن ينعزل عن كل شيء . وفي أعماقه ما يزال اليهودي التائه الذي ينتمي الى كل مكان ولا مكان . وكصهيوني فهو تعبير عن فشل الصهيونية في خلق انبعاث اليهود . انه عاجز عن تحويل نفسه الى الانسان الجديد الذي كتبت عنه جورج اليوت وباراتز . وباختصار انه فضيحة صهيونية . فرغم انه يخرج العرب من أي تصنيف بشري ما يزال يعي وجهة نظرهم ويشعر في أعماقه ان اختياره الصهيوني ليس أخلاقيا ولا وسيلة ناجحة لحل المشكلة اليهودية . لكنه كشخصية لا يتطور الا قليلا . ان تقديم المؤلف له قائم على الكشف وليس على التطوير .

## ٤

ان تصوير الشخصيات العربية والانكليزية يجعل شهادتهم مرفوضة في صراع وجهات النظر الذي يهندسه المؤلف . ان القاريء الاوروبي او الاميركي ، وهو عادة جاهل بالصراع المأساوي في فلسطين ، سيستنتج ان الانكليزي مزيج حقير من اليوغي والقوميسار ، وان العربي مخلوق قبل تاريخي غير جدير بملكية أرضه ، وان الصهيوني فقط يستحق ان يكون سيد فلسطين .

فالعرب يعاملون بهزء وتسفيه يكفيان لاسقاطهما من حساب اي قاض يحكم في هذا الصراع . فلديهم تقليد عريق من شهادة الزور صار جزءا من نفسيتهم ، وتراث أعرق من القتل والجريمة صار طبيعة ثانية لهم ، وطريقة شيطانية في التزلف والغدر ، وتخلف بديني واسترخاء لا ينقصان . الرجال العرب هم ، بلا استثناء ، اما لوطيون او عاجزون جنسيا ، والنساء العربيات يشترين مثل البضاعة .

والعرب « ليسوا حتى عربا ، ولكن انسال الكنعانيين واليبوسيين والفلسطينيين والصليبيين والاتراك ، مع كمية لا بأس بها من الدم اليهودي » . وكأمة

فهم نفاية العصور الوسطى ، ليس لديهم مفهوم امة ولا حس بالانضباط . انهم مشاغبون ممتازون ومحاربون اردياء ، والا فما كان لاية من مستوطاتنا ان تبقى ... اذا عاملتهم بحزم يهداون ، واذا شجعتهم يجعلون من انفسهم ازعاجا جهنميا . ( ١٥٥ ) .

واذا ارتقى احدهم السلم الاجتماعي فهو اما وحش كالمختار او متسلق مثل طوباشي . انهم يوغي منبطحون او ارهابيون مزيفون مبتزون . وان العلامة الانسانية الوحيدة التي تبدو على المختار هي قراره بان « يشتري لعيسى [ ابنه ] زوجة طيبة مهما كانت التكاليف » ( ٣١ ــ ٣٢ ) . اما عيسى فله « عينان متلاصقتان حولاوان » و « وجه مجدور شاحب » (٢٥) . ويظهر طبعه الحيواني في ركلة يوجهها الى « كلب شارد » تتركه « مطروحا على ظهره والدم يقطر من فطمه » (١٣٥) . انه ينتظر اليوم السعيد الذي ستشنق فيه الحكومة أباه او يقتله الوطنيون العرب ليأخذ مكانه كمختار . واما طوباشي ضابط المنطقة فنهاز طموح جعله تعلمه في الجامعة الاميركية في بيروت يدرك الفائدة الكامنة في التعاون مع الانتداب البريطاني . وكامل افندي

منفاخ متبجح يبدأ ثرثرته دائما بـ « به ! » بلهاء ، ويفترض خطأ ان العرب قد استقبلوا اليهود كضيوف ليحموهم من الاضطهاد . ثمة عربيان فقط يحظيان برضى المؤلف ، لان الاول يعتقد ان الفلاح العربي مصنوع من « روث الحمار » ولان الثاني يقدم مثالا عن القصور الذاتي للقتال عند العرب .

اما الوطنيون العرب ، القوميسارون ، فمرتزقة ينشرون الرعب ولكنهم لا يحرزون نصرا واحدا . ويصف جوزف هجومهم على برج عزرا في اليوم الاول بانه « بلف وبهرجة ، ككل شيء يفعله هؤلاء العرب » (٧٥) .

الهجاء نفسه نصيب الانكليز ايضا ، لكنه أذكى واحكم . فهؤلاء يتقدمون من المحكمة وهم متهمون سلفا ببيع الصهيونيين وخيانة وعد بلفور . ليست السياسة ، يقول جوزف ، وانما مرض الحنين الى نهاية اسبوع دائمة ، الى فردوس مفقود ، ذلك الذي يجعلهم يحبون العرب ويكرهون اليهود . انهم يفضلون ازدواجية العرب على مباشرة الصهيونيين ، كذب العرب المقنع على جهد المستعمرين . ويستخدم المؤلف اثنين من شخصياته ــ جوزف وماثيوز ــ لشرح نفسية الانكليز . فالانكليزي كطفل « نحيل الاطراف ، حساس ، خيالي ، كبير الاهتمام بالشعر وكل ذلك » . وفي مراهقته يغدو

شخصا مختلفا تماما بتفاحة آدم المنبثقة وصوت متكسر ، بسبب السياق المؤلم من الهزء بحساسيته وترويض استجاباته بحيث يأتي الكبت قبل الحافز والافكار الثانية قبل الاولى .

وينتهي بـ

درع عازل لا يمكن اختراقه لانه ليس شيئا مرتدى بل هو تشرنق انسجة كانت حية وتحولت الى قساوة طبيعة . ( ٢٠٩ ) .

وبسوء التكيف هذا تهجى كل واحدة من الشخصيات الانكليزية بطريقة فريدة. فالآنسة كلارك تشهق دائما ، بسبب صغر عقلها واعجابها السخيف بمرؤوسها . والسيدة نيوتن مزدراة بسبب النقص الذي لا يغفر في تقديرها للمستعمرين وكراهيتها العرقية . اما السيد نيوتن فمحتقر لغير ما سبب واضح سوى ان الصهيوني كبلان يغلبه بالشطرنج . ومساعد المفوض الرئيسي ، الذي يستمد أهميته من مركزه وليس من شخصه ، يمتلك عينين لكل منهما لون مختلف وعادة غريبة في تعقيد الاشياء بلا لزوم بطريقة « ستصيب العالم بكارثة أفظع من تخريف المجانين » (٢١١) ، كما يقول ماثيوز .

كذلك يظهر السيد كوستلر تميزه عبر معالجته المتناقضة لمسألة الغايات والوسائل في **لصوص في الليل وظلام في النهار** . فغلتكن يمكن ان يحل محل باومان وسمعان بسهولة تامة . انهم معاصرو عصر الجليد ــ ثلاثينات هذا القرن ــ وحاملون بيوتوبيات ــ وان امثولة روبابشوف عن انسان نياندرتال متكررة على لسان جوزف الذي يتكلم عن الزواحف هذه المرة . وكما نعلم فالنياندرتال خطوة متقدمة في تطور الانسان ، وكذلك الزواحف بالنسبة للسمك . لكن النياندرتال ( غلتكن ) رمز للوحشية الفظة ، والزواحف ( الصهيونيين ) رمز « لسوط التطور العصبي » . انه من المشكوك

فيه أن يكون السيد كوستلر قد اعتنق الشيوعية صادقا . فالمؤمن الحقيقي لا يهجر دينه لان بعض المؤمنين يزيفونه او يسيئون تطبيقه . ان تـرك الشيوعية ليس امرا مفاجئا عند بعض المثقفين ، لكن استبدالها بنظرية تبرر الارهاب بالطريقة نفسها التي يبررها غلتكن ويشجبها المؤلف في **ظلام في النهار** ، ليس دليـلا مقنعا علـى اخلاقيـة نظيفة . فالاستعمار الصهيوني لفلسطين مدان . وباستثناء تفريخ الارهـاب ، فان « سوط التطور العصبي » لا ينجز شيئا . المستعمرون ما يزالون اوروبيين ، وولادة اليهودي الجديدة قد أجهضت . جوزف ، وبقية المستعمرين ، عاجزون عن مد جذور خصيبة فـي الارض .

أما كون الصهيونيين مقسمين الى يوغي وقوميسار بلا تعاطف حقيقي من جانب القاريء فيشير الى اهتمام المؤلف بالمناظرة وليس بالشخصيات . انه ملتزم بهندسة جدال ومصمم على كسبه « باية وسيلة » يراها « نافعة » ، كما يقول سمعان .

لعل السيد كوستلر في حاجة الى التزام ، لان الالتزام بالنسبة له ملجأ . لكنه لا يهتم بالشرط الانساني ولا يرجع شخصياته الى الانسانية . ان تعليـق السيـد ويتمان على مفهوم كوستلر عن الالتزام جدير بالتسجيل :

> في **عمر الشوق** ينشط عصابان او ثلاثة بحيث يشعر القاريء بشك محرج ، كثيرا ما توحي بـه الروايات الحديثة ، وهو ان الكاتب لم يدرك قطعا انه كان يفضح نفسه (٢٣) .

في **سهم في المدى** ، لا يترك المؤلف مجالا للتشكك في انـه « يفضح نفسه » . انه يريد ان يعرف نفسه ، وهو غير هياب في الاعلان عما يكتشفه هناك .

ان غرض المؤلف من كتابة **لصوص في الليل** ليس عقائديا ولا عقلانيا ، وانما هو الوفاء بالدين ومداواة احساس بالذنب والامل بانه سيجد في الصهيونية الملاذ الذي فقده في الشيوعية . ويبدو ان الامل قد شحنه بقوة واستمرارية تمتدان حتى نهاية الفصل الاول ، وبعد ذلك يسترخي كل شيء : رسم الشخصيـة ، مرض الشرط الانساني ، العمل الريادي وموضوعة الانبعاث . بعد ذلك يفدو جوزف صوت سيده، وتأتي قصة دينا لتذكر بمعسكرات الاعتقال النازية . كذلك يسترخي توتـر المؤلـف تحت ضغط الاحداث السياسية لينهض توتر السياسي المنحاز . يكتب السيد فايفل :

> لا يمكن للسيد كوستلر ان يكون قد وضع اللمسات النهائية لروايته ، وهي دراسة عن الصراع البريطاني اليهودي في فلسطين ، قبل نسف مقـر الادارة البريطاني في فنـدق الملك داوود ، بالقدس ـ وهو حادث بدأ موجة جديدة من تاريخ الشرق الاوسط اقبح واشأم من سابقاتها (٢٤).

ولان المؤلف ينقح باستمرار من تجربته يفشل في رؤية المستعمرين عن بعد . ويبدو ان الاحداث السياسية قد شحنته من جديد بالشدة اللازمة . وهـذا موقف شبيه بموقفه في **الميثاق الاسباني** . فهو كصحفي يعرف ماذا يقدم ويحذف ، ومتى يوجز ويسهب ، ومتى يضخم ويغمز . لكنه رغم ذكائه الوقاد ليس واثقا مـن نتيجة المناظرة ، وثمة امكانية خسران تدفعه الـى استعمال صنيعتين روائيتين ، الاولـى

---

٢٣ – J. G. Weightman, «A Child of the Century,» **Twentieth Century**, Vol. 153, Jan. 1953, p. 72.

٢٤ – T. R. Fyvol, «To the King David Hotel,» **Tribune**, Oct. 25, 1946, p. 14.

اسلوبية والثانية تكنيكية . وكما يقول السيد فايفل : « بدلا من مخاطبة الخيال ، يعمد كوستلر باسلوبه المباشر الى مهاجمة ذكاء القاريء بنفاد صبر مفضوح وبعبارات تكشف احيانا عن طبع صحفي » (٢٥) . والقاريء لا يعطى الفرصة ليفكر بنفسه في الموضوع ولا البديل لفرضيات المؤلف . وفوق هذا ، ففي حالة محاولة القاريء تفسيرا مستقلا لوجهة النظر العربية او البريطانية ، يعمد المؤلف الى ايقافه بصنيعة تكنيكية . عندما يواجه المختار أو طوباشي، مثلا ، باتهامات مشينة يحاولان تبريرها ، لسبب ما ، بدلا من نفيها . واذا حدث واعلنا عن رايهما ، يتقدم عقيد بريطاني سابق، صهيوني وساخط ، فيشرشحهما ويكشف كذبهما . عندما يوضح كامل افندي قبول العرب باليهود ورفضهم للصهيونيين ، يبرز ديك ماثيوز ، الحامي الراس الذي يعتقد ان كل ما انتجه العرب في الف السنة الاخيرة « كباريهات وبطاقات وسخة من طنجة الى طهران » (٢٠٨) ، ويحاضر على كامل افندي :

« لم يكن ثمة بيت هنا . كانت صحراء ومستنقع نتن وفلاحون مسفلسون . لقد كنتم كلاب الشرق الشاردة واليوم انتم اغنى قطر عربي . كان السكان يتناقصون خلال قرون لان نصف مواليدكم كان يموت من القذارة في المهد ، ومنذ جاء اليهود تضاعف عددكم ، انهم لم يسلبوكم بوصة واحدة من ارضكم . لكنهم سلبوا منكم الملاريا والتراخوما والاسرة المروضة والفقر ... » ( ٢٠٣ ) .

لكن كامل افندي الذي لا يلين لا يستسلم . انه يريد وطنه ، ليس المال ولا المشافي ولا الاسمدة ، ويرفض كعربي ان يدفع ثمن اضطهاد الاوروبيين لليهود . في هذه اللحظة الحرجة ، عندما يبدأ الوضع الحقيقي بالتبلور ، ينزل المؤلف الستارة ويوجه مجرى الاحداث الى موضوعة ناقصة اخرى : مساعد المفوض الرئيسي : يسمح للسيد غوردون ــ سميث بشرح سياسة بلاده بجرس مخنوق وتقديم محسوب . ولكن لحظة ان تفدو حجته قريبة الى الاقناع ، يذكر المؤلف قارئه ــ برمزية مقصودة ــ باللونين المختلفين لعيني مساعد المفوض ، ويرسل ماثيوز ليزعق بوجهه متهما اياه باسوأ التهم التي يحلو للاميركيين توجيهها الى الانكليز . وفي كلتا الحالتين لا يسمح للعرب ولا للبريطانيين باي نصيب من الانسانية .

بالنسبة للتوتر و « للمرافعة عن قضية ارهاب استرجاعية » (٢٦) فان « **لصوص في الليل** لا تتضمن صفحة بليدة . انها تحفة دعائية » (٢٧) . لكن « اخلاق البقاء » التي يدعو لها السيد كوستلر تفشل في خلق مناخ من الامانة ، وكما يقول السيد كلينفو بولس فان « خلقه لشخصيات فظيعة [ عربية وانكليزية ] مجرد اعتراف بالفشل في تقديم وضع انساني » (٩٢) .

الى جانب قصد السيد كوستلر غير البريء ، فهو يترك شخصياته تدلي ببيانات غير صحيحة . كبلان ، مثلا ، يشير الى ان اليهود يدفعون الضرائب كلها بينما لا

---

٢٥ ــ المصدر السابق ، ص ١٤ .

٢٦ ــ Ronald Hayman, «The Hero as Revolutionary : An Assessment of Arthur Koestler's Novels,» **London Magazine**, Dec. 1955, p. 59.

٢٧ ــ Raymond Mortimer, «Arthur Koestler,» **The Atlantic Monthly**, Nov. 1946, p. 135.

يدفع العرب شيئا ، وهذا خطأ (٢٨) . باومان وماثيوز يشيران الى قبول الملك فيصل الاول بتأسيس دولة يهودية في فلسطين ، وهذا ايضا غير صحيح (٢٩) . وغيرة صحيحة أيضا فكرة المحامي الصهيوني واينستاين عن أن فلسطين منحت لليهود كوطن قومي « باتفاق عالمي » (٣٠) . أما وعد بلفور التي يتمسك به الصهيونيون كوثيقة حقوقية ، فأقل ما يقال فيه هو ما كتبه السيد ريتشارد كروسمان العضو البارز في حزب العمال البريطاني : « عمل مضلل [ من اعمال ] الكرم الامبريالي ، محتوم عليه منذ البداية ان ينتهي الى الدمار والفاجعة » (٣١) . والحقيقة هي أن من لا يملك قد اعطى وعدا بملكية وطن لمن لا يستحق ولا ينتمي .

ومن ناحية اخرى فان عدد المهاجرين اليهود الى بلدان غير فلسطين يفوق بما لا يقاس عدد المهاجرين الصهيونيين ، وهذه حقيقة تدحض مقتطفات سمعان الصحفية. وزيادة على ذلك ، فان المؤلف يعطي انطباعا ، عبر باومان وآخرين ، بان حتى موتى العرب قد اخذت تواقيعهم على وثائق بيع الاراضي . انه لا يذكر ان مجموع ما اشتراه الصهيونيون من الارض حتى عام ١٩٤٤ يبلغ ٥ر٦ ٪ من مساحتها (٣٢) ، وان هذه المساحة المشتراة قد باعها اقطاعيون متغيبون معظمهم لم ير الارض . ان جوزف يدرك هذه الحقيقة ويتحدى بها سلمية روبين وماكس كما مر معنا . وفوق هذا فان التعرض الدائم لخراب الارض لا بد وان يفاجيء العرب الذين يعيشون على الارض منذ الازل . انه لمن المخيب للامل ان **لصوص في الليل** تترك المأساة الحقيقية للصهيونية وتنهمك في اعداد تقارير دعائية محمومة .

أما موقف البريطانيين من اليهود بصورة ومن الصهيونيين بصورة خاصة يتناقض مع ما تظهره الرواية . ان تعاطف البريطانيين مع اليهود امر معروف ولا حاجة للتوكيد عليه . فلم تعامل أمة أوروبية اليهود بمثل التسامح والعطف اللذين عاملتهم بهما بريطانيا . وفي الحقيقة فلولا بريطانيا لما قامت اسرائيل أصلا ولانتهت المشكلة منذ بدايتها .

كذلك ليس صحيحا ان معسكرات الاعتقال النازية قد أدت الى ظهور حركة الارهاب الصهيونية . فمؤسس هذه الحركة ، جابوتنسكي ، بدأ نشاطه قبل ان يقابله المؤلف في العشرينات من هذا القرن . ان تبسيط السيد كوستلر لمسألة الغايات والوسائل الى موضوع اضطهاد نازي يفرخ ارهابا صهيونيا ليس متوافقا مع تاريخ

---

٢٨ – See R. Mortimer, «Arthur Koestler,» p. 136.

٢٩ – See, John H. Davis, **The Evasive Peace : A Study of the Zionist - Arab Problem** (London : John Murray, 1968), p. 15 ; and George Antonius, **The Arab Awakening : The Story of the Arab National Movement** (1938 ; rpt. Hamish Hamilton, 1945), p. 439.

انظر النص الكامل للاتفاقية في **يقظة العرب** لجورج انطونيوس .

٣٠ – **Thieves in the Night**, p. 226. انظر في الفصل الاول ما كتب عن مذكرة تشرشل

٣١ – R. H. S. Crossman, «Palestine Regained : From Weizmann to Bevin and Ben Gurion,» **Encounter**, Vol. XV, No. 1, July 1960, p. 37.

٣٢ – See "Survey of Palestine", a report prepared on the Institution of Sub-Committee 2 of the Ad Hoc Committee on the Palestinian question, p. 376.

الصهيونية . ان عكس الفرضية هو الصحيح . فحتى لو لم تكن هناك نازية لاضطر الصهيونيون الى شن الحرب كي يستولوا على فلسطين .

ان وصف كوستلر للفقر العربي المروع بحقيقته وتفاصيله موجه لخلق نقيض التعاطف . وقد قاد هذا الوصف السيد آتكنز ، وعددا من القراء الجاهلين بالوضع الحقيقي ، الى الاعتقاد بان العرب « المنبطحين والمعادين » للحلفاء « سوف يعتبرون اللاعنف اليهودي وغير اليهودي جبنا ، وخاصة انهم مزودون بـ ( الله ) كمناسبة لعرض شوفينيتهم » (٢٠٢) . ان السيد آتكنز ، بعد ان ينذرنا مرارا بالا نتحيز ولا نصدر أحكاما في هذه المأساة المثلثة ، يرفض حق العرب في فلسطين بسهولة بالغة باحتقار دينهم واعتبار قوميتهم نوعا من الشوفينية ، ويقبل ادعاء الصهيونيين بهذا الحق بجاهزية بالغة على أساس انهم يريدون البقاء وان الارهاب الصهيوني « يتماثل مع المتضور الذي يسرق طعاما ــ واعتقد ان له [الصهيوني] الحق في ذلك » (٢٠٢). ونحن اذا قبلنا باخلاقية السيد آتكنز الغريبة ، فالسؤال هو : رغيف من يحق للمتضور ان يسرق ؟ أهو رغيف متضور آخر ، وهل يسرق الرغيف كله ؟ ( تتحدث الرواية عن امرأة عربية تسلق الاعشاب كيما تعطي لاطفالها الناحبين وهما بان طعاما يعد لهم ) . ويعطينا الجواب باومان الارهابي :

( ولد ، يا ولد ... اعطني خمس سنوات وسيكون لدينا نصف مليون آخر ، ومع هؤلاء الاغلبية، واذا كانت لنا الاغلبية فالبقية سهلة ) . ( ٣١٢ ) .

وليس صعبا تخيل معنى ( البقية ) ، انها الرغيف كله . ويعطي اثنان من المهاجرين ايضاحا رقميا :

( عندما نسقي الصحراء الجنوبية سنتمكن من جلب اربعة ملايين ) . ( سيبقى لدينا غيرهم اثنا عشر مليونا ) ، قال رجل . ( ٣٢١ ) .

## ٥

بين رافايل ليون وجوزف خمسة وأربعون عاما . ان صهيونية ليون ، مثل صهيونية ديروندا ، مؤسسة على الدين والعرق والتقاليد . ومنظوره للامة اليهودية محافظ واستعادي . وباستثناء فكرة توزيع الاراضي ، فان اشتراكيته غامضة ورومانتيكية . مع باراتز تحل الاشتراكية مع الدين ، ويطرد تطبيقه الاشتراكي الحاخامين من الكيبوتزات . يغدو الدين ثوبا عتيقا غير صالح للارتداء . أما في **لصوص في الليل** فالدين ملفى تماما ، والتركيز على العرق يزداد شدة . أما الصدام المحتم وقوعه منذ البداية بين العرب والصهيونيين فلم يكن مادة لمعالجة انسانية في اية من الروايات السابقة ، على العكس ، لقد قدّم بفصحنة سياسية ودعاوية منفرة .

# الفصل السادس

## الصهيوني : صابرا

### ١

اطلقت تسمية « صابرا » على الجيل الصهيوني المولود في فلسطين ، وهي تحوير طفيف لكلمة « تصبار » أو « تزابار » العبرية التي تعني ( صبار ) بالعربية . هذه التسمية المجازية تدل على ان الصابرا قاس من الخارج رقيق من الداخل . لقد كان على النسل الجديد من الصهيونيين ان يتابعوا الحياة التي ابتدأها اباؤهم ويحملوا مسؤولية اقامة وتدعيم اسرائيل . وهكذا فقد كان عليهم ان ينموا قشرة صلبة تمتنع على اغراءات الحياة الملذة وتتجاوز الظروف الاستثنائية ، وفي الوقت نفسه كان عليهم ايضا ان يبقوا رقة قلوبهم وتحسسهم للجمال حيين نشيطين ولكن تحت ضبط دقيق .

على ان ثمة سوء استخدام في تشبيه الجيل الصهيوني الجديد بالصبار. ان قشرة الثمرة ، وهي طرية ، مبقعة بمسام دقيقة مليئة باشواك صغيرة ولكن مؤذية . أما اللب المأكول فنصف مليء ببذور غير قابلة للهضم . أما الشجرة نفسها فتنمو عادة في الصحراء او البادية حيث يقتضي قانون الطبيعة ان تنمي جلدا ثخينا لكي تقاوم الطقس والعواصف الرملية . ولعل تشبيه الصهيوني المولود في فلسطين بالصابرا يعود الى هذه الخاصة الجغرافية . ففلسطين لم تثبت للصهيونيين انها أرض اللبن والعسل التي كانت تلهب خيال المستعمرين ، ومن ناحية سياسية كانت أكثر تخييبا لآمالهم . لقد كان على المستعمرين هؤلاء ان يحفروا وجودهم وسط شعب عربي . وهكذا تعين على الصابرا ان ينشأوا ، كالصبار ، في بيئة صعبة حيث الارض المهملة والسكان الاصليون المعادون يمثلان حقائق الحياة الصعبة بالنسبة لهم .

يتضمن هدف الصهيونيين في « النمو الطبيعي » انجاب نمط جديد من اليهود . لقد املوا ان هذا النمط الجديد سيعيش ليجسد قيم الصهيونية ويحقق حلم الوصول الى وطن قومي ويثبت ان اليهود لم يعودوا « ابناء الغيتو » . ويخبرنا باراتز كيف ان الاطفال كانوا موضوع اهتمام اولي بالنسبة للمستوطنين ، ويصف الاسلوب الشيوعي المتبع في تنشئتهم بحيث يتشاركون في المسكن نفسه والطعام نفسه والروح نفسها.

الا ان وصفه مقتصر على سنوات طفولتهم الباكرة ولا يصل الى مستوى دراسة في الشخصية . أما آرثر كوستلر فهو يقدم ، في روايته **لصوص في الليل** ، وصفا حيا للصابرا كمراهقين . ان جوزف ، بطل الرواية ، يشعر بالذعر من الجيل الجديد . فعبر « دعايتنا في المدارس » انشىء الصابرا ليحبوا الزراعة والحياة الجماعية . أما كونهم اشتراكيين فامر طبيعي ما دامت « نقابة المعلمين تتكفل بالا ينسل الى القطيع الهراطقة اليمينيون » ( ص ١٤٥ ) ويعدونهم بتفكيرهم وبالفوايات البورجوازية ، لقد توضحت الآن تجربة المستعمرين الهلامية وصارت مؤسسة . وهذا ما يثبته كون الصابرا مثابرين على متابعة نمط حياة صهيونية ثابتة . انهم « يعرفون كل شيء عن الاسمدة والسقاية ودورة المحاصيل ، يعرفون اسماء الطيور والنباتات والزهور ، ويعرفون كيف يطلقون النار فلا يخشون عربيا أو شيطانا » . ( ص ١٤٧ ) انهم يقدمون مثلا حيا للحلم الصهيوني : « هذا بالطبع ما تستهدفه فلسفتنا ودعايتنا . العودة الى الارض ، وعبر الارض الى التربة ، للبرء من الشدة العصبية للنفي والتشرد . وتصفية عقدة النقص العرقية [ كونهم يهودا ] كيما ينجب عرق من الفلاحين صحي سوي مرتبط بالارض . هؤلاء الطرزانات العبرانيون هم ما راهنا عليه » . ( ص ١٤٧ ) لكن جوزف ، الذي هو كوستلر نفسه تقريبا ، ليس راضيا تماما بالجيل الجديد من « الطرزانات العبرانيين » ، « العلة ليست في المرء نفسه ، وانما في النوعية الانسانية للجيل الجديد » ، كما يكتب في مذكراته . انه حزين لرؤية

تلك الفتيات المنتبجات المنتفخات بملامحهن الخشنة واعجازهن الكبيرة وصدورهن الثقيلة ، [ فهن ] فائقات النمو جسديا ، متخلفات عقليا ، جد ناضجات وغير ناضجات في الوقت نفسه. [ وهو جد حزين بسبب ] هؤلاء الفتية الخام ، صافني الاقفية ، المزغبين ، البلداء والثقيلين بضحكهم العدواني واصواتهم المنفرة ، بلا تقاليد او آداب سلوك او شكل او اسلوب ...

كذلك يأسف جوزف لمعرفة الصابرا الهزيلة بالادب العالمي والتاريخ واللغات الاوروبية . ويجري مقارنة طريفة بينهم وبين آبائهم :

كان آباؤهم اكثر عرق عالية على وجه الارض ـ اما هم فأقليميون وشوفينيون . كان آباؤهم حزم اعصاب حساسة واجسادا متلكئة ـ اما اعصابهم فحبال سياط واجسادهم اجساد قطيع من الطرزانات العبريين يجوب تلال الجليل . كان آباؤهم منشدين قانتين مشبوحين ومليئين توابل ـ اما هم فبلا طعم ، بلا بهار غير مختمرين وقساة ( ص ١٤٦ ) .

ويصدر جوزف حكمه النهائي على الصابرا ، « هؤلاء الطرزانات الشابة خطوة الى الوراء وسوف تمضي سلسلة من الاجيال قبل ان نلتحق » بركب الامم . ( ص ١٤٨ ) .

يبدو ان جوزف يكره في الصابرا ما يحبه مجموعة من الكتاب الاميركيين : شوفينيتهم ، قلة أدبهم ، ملامحهم الفظة ، انعدام الذوق فيهم ، عدوانيتهم ونفسيتهم التي بلا رادع . ان صابرا جيمس ميتشنر يفخرون بجهلهم لاوروبا والعالم ، لكنهم فصيحون في الحديث عن « تاريخهم القومي » المروي في التوراة ، ويعرفون كل شيء عن الزراعة والاسمدة والبقر والقتال . أما في **الخروج** ، رواية ليوى يوريس ، فان حزن جوزف يبدو بلا أساس ، لان صابرا السيد يوريس يتكلمون ويكتبون انكليزية قحة وقادرون على التعبير عن انفسهم بلغتين أخريين . وعلى اية حال ، فهؤلاء الكتاب

لا يتضايقون ، كما هو الامر مع كوستلر ، من كلمة « يهودي » ولا يحاولون استبدالها بكلمة « عبري » . وفي الحقيقة يدعي صابرا الكتاب الاميركيين بانهم يتحدثون باسم اليهود قاطبة .

ان كون هؤلاء الكتاب اميركيين يعكس اتجاها خاصا لرؤية اليهود عبر منظور امريكي . وكما يكتب السيد سول ليبتزن ، « فقد اتخم القراء الاميركيون بقصص المثقفين اليهود الموهوبين .. كان القراء جوعى لصور عن اليهود الابطال من مثل يهود غيتو وارسو .. أو الصابرا الاسرائيليين الذين كانت خوارق اعمالهم تملأ اعمدة الصحف اليومية في النصف الثاني من عام ١٩٥٦ » . ( **اليهودي في الادب الاميركي**، ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ ) **واني** ترسم هذه الصورة المرغوبة لليهودي عامة وللصابرا خاصة، فان هؤلاء الكتاب يمتنعون كلية عن انتقاد شخصياتهم انتقادا جديا . ذلك لان الصابرا يمثلون الصهيونية وهم تبريرها . ان يفشلوا تفشل الصهيونية والعكس بالعكس . وهكذا فيجب ان ينجحوا ، باعتبار ان هؤلاء الكتاب واثقون من قيمة وعدالة الصهيونية ، انهم يدركون الحصار المفروض عليهم لدعم اسرائيل ويقباونه ، ومن ثم يجسدون في الصابرا قيم التفرد والتفوق . فشخصية الصابرا رائعة ومتميزة لانها عدوانية وترفض تعدد وجهات النظر حول القضايا الانسانية . وهي دائما مصيبة ، ناجحة ، شجاعة ، عارفة ، مباشرة ، وحاضرة حيث يحتاجها الآخرون .

تنحدر هذه الشخصية في معظم الحالات من أسرة أشكينازية هاجر ربها عن روسيا ، واحيانا من بولونيا أو المانيا . ان تميزها يصدم الوعي بدون مقدمات ، وهي تقدم صورة مناقضة ليهودي الغيتو العاجز الذليل في **نجمة في الريح** ( او **كوكب الهوا** ) يلاحظ ما لقوا :

انني أستقبل انطباعا بان التحديقة فخورة ، والملامح قوية وحتى مرحة ، وان السيماء كلها من نوع يقرن عادة بالنوع الآري ..

ثمة خصوصية أثناء العمل ، شفافية ناجمة عن الشجاعة والعمل الشاق ، الكبرياء وعصير البرتقال والادراك بان [ هذا ] الانسان مسلح لاول مرة منذ قرون ( ص ١٧٢ )

ويكتب ميكي ( دافيد ) ماركوس في **ارم ظلا عملاقا** لزوجته ما يلي :

ما زال علي ان ارى في اي مكان من العالم مجموعة ملهمة مثل اطفال فلسطين [ الصهيونيين ] ــ اعني « اطفال » من الثالثة وحتى الثالثة والعشرين . اية روح ــ اية طاقة ــ غير مفسودين ، تواقون للتعلم ، دمثون ، جديون ، متفهمون ، يعيشون اوضاع حياتهم، مقدامون بمعنى حقيقي، متواضعون . انهم نوع جديد من اليهود فيزيائيا وعقليا . اجل ، ان نوعا جديدا من اليهود يولد . ( ص ٣٢ ) .

اما الفتيات الصابرا فتحتقرن المساحيق باعتبارها الهية نساء لا هدف لهن ، ويؤمن بان ارتداء تنورات قصيرة جدا عمل عقائدي . انهن يرفضن حلاقة شعر الابط او اطالة شعورهن ، اما انشغالهن الوحيد فهو القيام بتدريبات متقدمة في معالجة المدفع والرشاش .

وتأتي الحرب كمحك يبرز فيه الصابرا تفوقهم عبر تعامل مضن مع الواقع . فالصهيونيون الشباب يواجهون دائما عدوا يفوقهم عددا بنسبة عشرة الى واحد ، وفيما يندفع عدوهم للقضاء عليهم باسلحة حديثة تتضمن الدبابات والطائرات يتدبرون انتزاع النصر ببارودة ( ستن ) هزيلة مصنوعة محليا . ان شجاعتهم التي ترقى الى مستوى فوق بشري تبدو في استجابتهم لتحديات تاريخية . انها نوع من الروحانية لا يمكن تفسيره ولكن لا يمكن انكاره ايضا . ففي رواية **ترقب الصباح** ، لتوماس سرغيو ، وفي رواية **الينبوع** لمتشنر ، ينتقل الصابرا من معركة الى اخرى وهم ينشدون اغاني البالماخ ويتلون احداثا تاريخية من العهد القديم ، بينما تحاصر فلسطين باجمعها خمسة جيوش عربية . اما آرييه ، في **نجمة في الريح** ، فينجح بمعونة قبضة من رجال البالماخ ومتطوعي الكيبوتزات في ايقاف تقدم لواء عراقي وسرقة مدفع احدى الدبابات وتدمير الاخرى ، مجبرين العراقيين على التقهقر ومن ثم الهزيمة . وفي **الخروج** يظهر آري بن كنعان كأخيل بدون عقب قابل للايذاء . ويخبرنا المؤلفون ان كل ما حدث مستمد من خلفية تاريخية حقيقية . فيوريس ومتشنر يبلغان قراءهما ان الحوادث المعاصرة في روايتيهما مبنية على وقائع موثقة . يكتب يوريس في اول صفحة من روايته : معظم الحوادث في « الخروج » موضوع تاريخي وسجل عام معروف ، و « المسافة التي قطعت لجمع المواد لاجل « الخروج » تقارب خمسين الف ميل ، اما يردات اشرطة التسجيل التي استعملت وعدد الافلام والمقابلات والشرائح وكتب البحث فتصل الى رقم مماثل في تأثيره . » اما متشنر فيعدد بعضا من الوثائق ولكنه ، عبر الرواية كلها يذكر ارقاما واعدادا واحصاءات تؤهله للادعاء بمثل ما ادعى به يوريس ، على ان الاثر الكلي للجو الملحمي والمادة الوثائقية في الروايتين يترك انطباعا مضطربا بالنسبة لصدق تقديم الشخصيات . فحيث يعتمد الكاتبان بصورة رئيسية عن تقديم الحوادث التاريخية كأساس لخلق يقين يرى القارىء ، تكون تسعة اعشار الخلفية التاريخية مناقضة للحقيقة ، والنتيجة هي ان اقتناعنا بشخصية الصابرا في الروايتين يفدو مهزوزا تماما ، ويعطينا كالينين في **الينبوع** مثالا صارخا على هذا ، بالوصف المروع الذي يقدمه عن فساد الجيش المصري عام ١٩٤٨ ، وهو الجيش الاكثر خطورة في مواجهة اسرائيل ، قبل ان تصل حسابات أيزيدور غوتزمان وزوجته الصابرا ايلانا الى ان مقابل كل صهيوني يوجد ٤٠،١ من المحاربين العرب .

وبالاضافة الى هذا العي ثمة عي آخر اكثر اهمية . ان شخصيات الصابرا المرسومة حول حوادث تاريخية ممتنعة على العواطف البشرية ، انها لا تعرف الخوف او الضعف او النوم او الشعور بانها اخطأت في اي من اعمالها . من المفروض بالطبع انهم شجعان واقوياء وواثقون . لكن تقديم هذه المزايا عبر آلية من الاستجابات الميكانيكية يخلق نقصا كبيرا في رسم الشخصية ، انه يبعد العرض المناسب لتحركات النفس الداخلية ، دع عنك الصراعات الداخلية ، التي تعطي للشخصية انسانيتها . وهو كذلك يحذف التعبير عن التطورات التي ادت الى هذه الاستجابات في شخصية الصابرا ، على الرغم من وفرة التفاصيل السيروية ( البيوغرافية ) ، بدلا من كل

هذا ، تقدم **الينبوع** و **الخروج** و **نجمة في الريح** شخصيات ايلانا وآري بن كنعان وآريه على انها شخصيات لا تلين في مطلق تحكمها بما يمكن اعتباره أوضاعا مستحيلة. وهكذا يفشل جو الحوادث الخارقة في خلق توتر حقيقي . فليس ثمة توقع للهزيمة ، لان الصابرا منتصرون دائما ، وتبدو جسامة قوة عدوهم ، التي يرتكز عليها الكتاب ، امرا متخيلا أو مقصودا للدعاية ، وتبدو قيمة صراعهم أقل بكثير من الانطباعات التي تخلفها مبالغات الكتاب في امتداحهم .

ان نظرة الكتاب الاربعة الى مقدرة الصابرا القتالية أكثر انتفاخا وتبجحا . فهذه المقدرة موروثة مباشرة من غيديون وديبوراه وليست رد فعل على وعي الغيتو أو نتيجة للتدريب العنيف :

لم يكن هذا جيشا من الفانين .

**هؤلاء** هم العبريون القدماء ! وهذه وجوه دان وروبين وجودا [ يهوذا ] وافرايم . هؤلاء هم الشمشونات والديبورات اليوآبات والشاولات (١) .

انهم جيش اسرائيل ، وما من قوة على الارض تستطيع ايقافهم لان قوة الله كانت فيهم . ( الخروج ، ص ٣٥٨ ) .

ان تكريس الصابرا أنفسهم للقضية ، ورغبتهم العارمة في الموت دفاعا عن الارض امر يعود أصله الى العهد القديم ، على ما يبدو . أما في **الينبوع** ، فيسيطر على تسعة عشر الف عربي « ١٥ مرة اكثر من الجنود الصهيونيين الذين يحاربونهم » ذعر مريد غيبي فرضه الصابرا عليهم بحيث أجبرهم على الفرار من منطقة الجليل ، وليس تدمير قراهم وحرقهم بالنار . مرة واحدة فقط يقترب احد الكتاب من الشرط الانساني لحياة الصابرا ، وذلك عندما يسأل جوزف فكتور « وهو غير جوزف السيد كوستلر » أسئلة هامة :

كان واجبهم [ الصابرا ] ان يقتلوا . ماذا سيحدث لهم ؟ هل يمكن لشاب او فتاة ان يواجه الموت وان يقتل كائنات بشرية بدون ان يتأثر ؟ هل سيكبرون بدون قلوب ، بذلك الاسى الذي يحل محل القلوب ؟

لكن المؤلف يدرك بسرعة انه سمح لبطله باكثر مما ينبغي من التأمل ، فيمضي الى الدعاية الكريهة :

ولكن حتى عندما تساءل « فكتور » وتعجب ، فكر بالوجوه التي رآها حوله طيلة اليوم ـ النظرات الصريحة المفعمة بالروح المعنوية ، التعبير الرقيق على وجوه النساء ، الوجوه السامية المخلصة للرجال . وتذكر انه لم يكن لديهم حقد على العدو ، بل الحب لارضهم وللرفقة البشرية انضموا لها بفخر ورغما عن العالم كله ( **نجمة في الريح** ص ٢٢٠ ) .

ان الخوف الذي يساور جوزف فكتور بشأن تأثير « واجب القتل » على الصابرا قد استسخف بسهولة ، « لم يكن لديهم حقد على العدو » . من الصعب حقا الاعتقاد بان هذه هي الحالة الحقيقية ، ليس فقط لان جوزف فكتور قد أمضى اسبوعا فقط في فلسطين ومن غير المحتمل ان يكون قد تعرف حقا على الصابرا ، ولكن لان عملية القتل ـ سواء مورست بحب أو بحقد ـ لا بد تاركة اثرا سلبيا لا يمحى على نفسية

---

١ ـ جمع شمشون ، ديبوراه ، يوآب قائد جيش الملك داوود ، وشاول .

مقترفيها . ان الامثلة التي يسألها جوزف فيكتور تشكل في الحقيقة قطب الرحى في حياة الصابرا ، ويتوقف فهمنا لشخصيتهم على الاجوبة المعطاة ، وهي أجوبة لا يمكن ان تكون مجهولة . ان اسئلة من هذا النوع لم تثر لسوء الحظ من قبل اي كاتب آخر . فالصابرا يبدون وكأنهم يمتلكون مناعة ضد تأثير حادث الموت على الضمير الانساني .

ان نغمة الاطناب في تقديم شخصية الصابرا توجد أيضا في الحياة العاطفية . لقد بالغ الكتاب الاربعة في اعطاء صورة درامية عن ممارسة الصابرا للحب والزواج يجعلها تبدو بسيطة وصارخة في الوقت نفسه . ولعل الاقتباس التالي لحوار بين فتاة صابرا وصحفي غربي يوضح ذلك :

« الا ترغبين في رجل ابدا ؟ » .

« ان كنت تعني هل لدي عشيق » قالت الفتاة ببساطة ، « فالجواب نعم . انه مع بيغال يادين في الجنوب » .

« عشيق ؟ » صرخ كاستلر بنبرة صوت مصعوقة . « في سنك هذا ؟ » .

وجاء دور ديبوراه في ان تكون محتارة. «ولكنك» احتجت، « لقد سألتني، منذ لحظة فقط...» ( **نجمة في الريح** ، ص ٢١٩ ) .

ان ايمان روبين الفخور ، في « لصوص في الظلام » ، بان الرواد قد حرروا بمنهجهم الجديد في الحياة ، ابناءهم من العقد الجنسية يجد تعبيرا له في بيان الواقع الذي ادلت به ديبوراه في هذا الاقتباس . ويبقى علينا أن نخمن ما اذا كانت فكرة روبين عن التحرر تعني ، بالنسبة لديبوراه ، حرية اتخاذ عشيق أم حرية انتقاء شريك للحياة . ان براءتها الظاهرية ، المقترحة في عبارة « دورها في أن تكون محتارة » ، محسوبة كيما تحول دون استنتاج محتمل يقوم به القارىء بان حياتها مع عشيق وهي في السادسة عشرة ربما قادت الى انحلال جنسي أكثر خطرا من عقدة نفسية . ان قصد المؤلف ليس فقط ان يصدم الصحفي كاستلر بل والقارىء معه ، ليس رسم هذا الجانب من حياة الفتاة بل بهر القارىء وتسليته وهزه .

هذه المعالجة لتجربة الحب عند الصابرا واضحة ايضا في **الينبوع** ، في اول لقاء لايلانا ــ ستة عشر عاما ــ وغوتزمان ــ مهاجر الماني ــ يقرر الاثنان الزواج . وفي لقائهما الثاني تقود ايلانا غوتزمان الى غرفتها وتنام معه ، دونما اعتبار لاحتجاج والدها المحرج . ويشعر الوالد بضرورة تزويجها ــ باعتبار ان غوتزمان يهودي ــ ويفعل ذلك بنفسه ، أما جوردانا وديفيد في **الخروج** فينسحبان خلسة من قاعة الرقص الى قلعة شرقية قديمة ليمارسا الحب ، وتتحول طبيعة المشهد الى افتعال عندما يصر ليون يوريس على تضمين وصفه المفضل جدا للاستجابات الفيزيولوجية باقتباسات من نشيد الانشاد ، لقد اغفل المؤلف ايحاءات المشهد المفصحة عن شخصية العاشقين لاجل تقديمهما بالصورة نفسها التي تمثل عاشقي النشيد الخالد ، وبدلا من ان يكون الشعر ــ كما هو في النشيد ــ الناجم عن الشعور متساميا بتذوق الحبيب لجسد الحبيب الى مرتبة النشوة النبيلة ، حطم المؤلف مشهدا كان يمكن ان يكون مماثلا عندما قدمه كسلسلة من الاستجابات الفيزيولوجية . لقد أخفق يوريس حتى

في ابراز حس بالاستثنائي والخاص ، ان الانطباع الذي تتركه الحالات الثلاث السابقة في ذهن القارىء هو انه واقف بين حيوانات تحتاج فعلا ، كما علق جوزف السيد كوستلر ، الى سلسلة من الاجيال لتفدو بشرية . ان عواطف هؤلاء محض استجابات لحاجات جسدية ، والطريقة التي يحب فيها اثنان بعضهما البعض أكثر وظيفية من ان تسمح بظهور احساس بالتواجد والرفقة .

تبرير ذلك ، كما يشير هؤلاء الكتاب ، هو ان الصابرا قد انشئوا على ازدراء العاطفة واعتبارها عرضا من اعراض الضعف لا يليق بجيل كرس نفسه لقضية . انهم يتحدثون بخشونة ويتصرفون بصلابة وعدوانية . في **الخروج** ، تمضي خمس سنوات قبل ان يتمكن آري بن كنعان من ان يقول لكيتي فريمونت انه يحتاج اليها اكثر مما يحتاج لاي شيء آخر ، ثم سرعان ما ينذرها بالا تتوقع سماع ذلك ثانية : « انا لست مثل بقية الرجال ... قد تمضي سنوات ... وقد يمضي العمر كله قبل أن أتمكن ثانية من القول بان حاجتي لك تأتي اولا ، قبل الاشياء الاخرى جميعها ... » ( ص ٥٩٩ ) لعل هذه هي الحالة الحقيقية لدى الصابرا ، على انها لم تستقص ، كوضع بشري ، سواء في رسم الشخصية او في ضوء المثل الاجتماعية ، وانما رسمت بعجالة لتثير شعورا بالتفرد والخروج على نواميس البشرية . والنتيجة هي ظهور بطل فيلم رائج يصفق المشاهدون لغرابته وقلة ذوقه .

ثمة جانب هام آخر من جوانب شخصية الصابرا هو علاقتها بيهود العهد القديم . الصهيونية هي الحركة السياسية التي اخذت على عاتقها مهمة تجميع اليهود في فلسطين بناء على الادعاء بان هذه البلاد هي وطنهم التاريخي . ان سؤالا مثل : ما العلاقة الموجودة بين يهود القرن العشرين والقبائل العبرية الاثنتي عشرة ، يحظى بجواب قائم على فرضية النقاء العرقي غير البعيدة عن عرقية النازية . لقد كتب جيمس متشنر الفا وثلاثين صفحة ليثبت ــ مع اشياء أخرى ــ ان الطبقة الحاكمة بين اليهود كانت منذ القدم وما تزال مؤلفة من الناس البيض ، عيون زرق أو خضر ، وشعور شقراء أو حمراء . وهكذا فان الصابرا في الروايات الاربع ، وهم قادة أفذاذ ، رجال ونساء بيض ، او ان لهم على الاقل ملامح آرية ، كما علق مالثوا في **نجمة في الريح** . ويبدو بالنسبة لصهيوني عنصري ان اليهود الاشكنازيم ، وهم من البيض في معظم الحالات ، يطرحون مشكلة صعبة ، باعتبار ان اليهودي السامي هو غالبا اسمر . ويورط يوريس نفسه في « الخروج » في تناقض أبلق عندما يخبرنا وهو يقص تاريخ آري بن كنعان ان بعض اليهود البابليين في القرن الثاني للميلاد نجحوا في تحويل عدد هائل من القوقازيين الى اليهودية وان جوسي رابنسكي ينحدر من هؤلاء القوقازيين، في الوقت الذي يتبجح آري ــ ابن رابنسكي ــ باجداده شاول ويشوع وغيرهما . ان سرد تاريخ عائلة رابنسكي مقصود للتركيز على حق اليهود التاريخي في فلسطين وعلى علاقتهم بالعبريين القدماء . وما ان تعلن هذه العلاقة ــ ولا يهم مقدار الكذب في اعلانها ــ يترك الصابرا لكي يتحدثوا عن حياة اليهود التوراتية كوقائع موثقة . وبالنسبة للصابرا ، كل حجر على أرض فلسطين ، كل واد او قمة جبل تشهد على قصة في حياة العبرانيين . اما الغزو الحالي لفلسطين فيقارب بتفاصيله كلها مع

غزو يشوع وشاول وداوود . وفي هذا انتقال اكيد وكامل من الاتجاهات التكوينية الاولى للصهيونية . في البداية كانت الصهيونية حركة معادية لليهودية خلقتها اللاسامية. اما مع الصابرا الذين يرسمهم هؤلاء الكتاب الاربعة فقد اسست الصهيونية علاقة لا تفصم مع شعب العهد القديم . في « الينبوع » ، تقول ايلانا : « نحن يهود ومهمتنا ان نعيد غزو فلسطين » . ( ص ٨٩٦ ) أما سلوكها ، فالمؤلف واثق من انه يشبه سلوك اسلافها :

وخبطت الطعام على الطاولة كما ولا بد ان اسلافها خبطوه على الالواح الخشبية في خيامهم قبل اربعة آلاف عام في هذه البقعة بالذات . ( ص ٨٩٣ ) .

ويدرس العهد القديم بحرفيته على انه التاريخ القومي لليهود ، وبالنسبة للصابرا فهو حقيقي فعلا . انهم يستذكرون المعارك ومشاهدها ويحللون خطأ الملك شاول القاتل في ابقائه جنده مرابطين في جلبوع بدلا من التحرك الى شونيم .

ان استغراق الصابرا في اعتبار العهد القديم تاريخا لليهود امر مفهوم . انه يزودهم بحس الانتماء الى شعب قديم يعرفون حياتهم بحياته . وسيكون من الخطأ تفسير هذه الظاهرة تفسيرا اساسيا وحسب . فالايمان بهذه الرابطة راسخ وهو يرسخ فيهم شوفينيتهم وعرقيتهم . يقول ديفيد بن آمي في **الخروج** : « لقد اوقف يشوع الشمس عند اللطرون . لعلنا نحن نستطيع ان نوقف الليل [ في المكان نفسه ] ، » ( ص ٥٤١ ) وفي مناسبة اخرى يقول لآري : «علي الا اكف عن الاعتقاد بانني الآن اتابع فصلا جديدا في قصة بدأت منذ اربعة آلاف سنة . » ( ص ٢٥ ) ويمضي ليقص التاريخ القديم للعبريين ويقول انه كما حارب باركوخبا الامبراطورية الرومانية في فلسطين فالصابرا يحاربون على البقعة ذاتها الامبراطورية البريطانية . ويلتقط آري الخيط فيسرد بتفصيل شديد تاريخ المذابح التي أوقعها الرومان في اليهود .

على الصعيد النفسي يبدو هذا الايمان اكثر تعقيدا . هناك حقيقة وهي انه لكي يصحح خطأ وقع بحق اليهود في اوروبا ، اقترف خطأ وقع بحق العرب وهم خارج أوروبا . هذه الحقيقة ينفيها الصهيونيون بعصبية مؤكدين حقهم في الاستئثار بفلسطين لهم وحدهم . معظم هذه التوكيدات يأتي من الصهيونيين الاشكنازيم ، بما فيهم الصابرا بالطبع . وهذا ما يوضحه نسيم بغدادي ، الصابرا السفاردي ، الذي هاجر أبواه من العراق. بغدادي« يبدو خارج المكان على نحو ملحوظ » (**الينبوع** ٩٠٠) بين مجموعة صهيونيين اشكنازيم يخططون لاحتلال بلدة صفد العربية . ان وضعه الناشز ناجم ليس فقط عن اختلاف في الملامح وتركيب العظام ، وانما عن « عدم اكتراثه الواضح بالتاريخ » ( ٩٠٢ ) الذي كان غوتزمان وايلانا يسردان وقائعه . ليس بغدادي مضطرا الى الاكتراث بالتاريخ ، ان التاريخ فيه ، سياق لم ينقطع سلامه مذ عاش والعرب في هذه المنطقة . فحيثما يتحرك يجد نفسه في وطنه . الذكريات فضول زائد بالنسبة له . انه و ميم ميم ــ صهيوني اشكنازي ــ يقدمان مباينة واضحة : « قد لا تفكر في ذلك الآن ، ولكن هذه الدولة تحتاج الى السفارديم ــ لكي تبني جسورا مع العرب عندما تنتهي الحرب » . ويجيبه ميم ميم : « اقتل عددا كافيا من العرب الآن واقلق على الدولة فيما بعد » . ( ص ٩٥٤ ) .

يقترن مع ايمان الصابرا الراسخ بالتوراة كتاريخ ، حبهم العارم للارض المشابه لحب الرواد لها . ويقدم الكتاب الاربعة الانطباع نفسه بوجود نوع من الروحانية في علاقة الصابرا بفلسطين . كيتي فريمونت ، الممرضة الاميركية في **الخروج** متحيرة من عجزها عن تفسير هذه الروحانية . ويقول لها اري ان اليهود فقط قادرون على فهمها لانها جزء متمم لحياتهم .. وفي **الينبوع** يخبرنا متشنر بان « الصابرا [ ايلانا ] عشقت الجليل على انها التراب الذي انبثق منه شعبها عبر أجيال لا تحصى » . ( ص ٨٨٣ ) ان حب الارض لديها هوس ، فهي نسيج حي تتوقف حياته وصحته على معاملة الايدي التي تمسه . الايدي الاجنبية هدمته وحولته الى مستنقعات موبوءة بالملاريا والى تلال جرداء . ان واجب اليهود ــ تقول لزوجها ــ استعادته واخصابه : « ألست تؤمن بان الاله قد أختارنا لرعاية هذه الارض ؟ » ( ص ٨٩٩ ) تسأل زوجها وهي مذعورة من تلكؤه . ومرة أخرى يقرن المؤلف شخصية ايلانا بالعبريين القدماء :

كان واضحا له [ زوجها ] ان ايلانا قد جعلت الله يتقمص الارض غير مفرقة بين الاثنين . لا بد وان هذا بالضبط كان ايمان الناس [ اليهود ] قبل خمسة آلاف عام عندما بدأت المسيرة الطويلة نحو التوحيد ( ص ٨٩٩ ) .

ومرة اخرى يصل المؤلف ما بين هوس ايلانا وما يعتقده من ان التوحيد عند اليهود نجم عن دين ألوهية الكون ( Pantheism ) او الحلول :

« الله هو الارض ، لذلك علينا ان نعبد هذه التلة » [ قال العبريون ] واكتشفوا للتو ان الله وارضه يحتاجان الى وكيل للتأمل فاخترعوا الكهنة ، والكهنة صاروا حاخامين والحاخامون اشترعوا كل ما تكرهه ايلانا . ( ص ٨٩٩ ) .

ويدعي المؤلف ان العبريين لم يعبدوا الاصنام كما فعل جيرانهم ، لان فكرة الله ــ الارض كانت أوسع من أن تمثل بتماثيل لا دلالة لها . لقد اعتبروا الارض محسوسا واحدا شاسعا منعما بالحضور الخفي لله ، ومن هذه الوحدة انبثق التوحيد ومفهوم الشعب المختار ، ولقد انحدرت روح الله ــ الارض الى ايلانا عبر أقنية عرقية . انها تنفجر باكية كلما شاهدت العاقبة المدمرة للوجود الاجنبي في ( ارض اسرائيل ) في « الخروج » و « نجمة في الريح » ، يشفى الاطفال المرضى بالقوة الغيبية لدواء واحد هو ذكر الكلمتين السحريتين : أرض اسرائيل . اما دَيفيد بن آمي فيحب اورشليم كعشيقة غريبة . انها تفمره وتخيفه وتؤرقه . وتشبعه بالفرح والالهام . وكذلك فان آري يروي لكيتي القصة تلو القصة خلال أربعة ايام عن معارك لا تحصى حوربت فوق كل شبر من الارض .

يلح الكتاب الاربعة دائما على اهمية الارض والتوراة كيما يؤكدوا لقارئهم الاستمرارية التاريخية للصلات العرقية والروحية بين الصابرا والعبريين . لكن ثمة غيابا لتوكيد مماثل على الدين . لقد أظهرت الشخصية الصهيونية منذ باراتز ابتعادا متزايدا عن اليهودية . وفي **لصوص في الليل** لكوستلر حذف الدين نهائيا . اما بالنسبة للصابرا فالموقف منه هو الرفض المتقصد ، ويعود الى عاملين عامين . الاول هو ان اليهودية كما فسرها وقننها الحاخامون قد أصبحت عبئا لا يطاق وجعلت من نماذج الحياة في الغيتو شريعة ، وفي هذه الحال يشعر الرواد والصابرا بان الدين قد

غدا رمزا للعبودية . ثانيا ، ان العقلية الاوربية المسؤولة عن تربية الصابرا هي اما ليبرالية بوضوح في القضايا الدينية او في معظم الحالات متأثرة بالمثل الشيوعية التي تعتبر مبدئيا ان الدين افيون الجماهير . ومن الطبيعي ، بعد هذا ان يقف الصابرا علانية ضد الدين . ان حبهم الجياش للتوراة هو بالدقة شعور قومي ، اما تجاه المؤسسات الدينية فموقفهم هو الشك العميق . وعلى هذا فثمة تمييز حاد بين التوراة ككتاب لتاريخ اليهود وبينه ككتاب مقدس . قد يبدو ثمة تناقض في هذا القول ، وحقا فان لبعض الكتاب وجهة نظر مخالفة ، فيما يبقى آخرون صامتين . روبرت ناثان مثلا ، يذكر ان الصابرا قد انشئوا « ليكونوا اقوياء واصحاء ، ليمتدحوا الله ويحترموا انفسهم وبعضهم البعض » . ( ص ٢٠٢ ) أما يوريس فلا يشغله هذا الموضوع اطلاقا . وبصورة عامة تظهر شخصيات الصابرا غير محتفلة بدينها . على أن هذا التقديم غير صادق ، ولعل السبب يكمن اما في جهل المؤلفين بالصابرا او في عزوفهم عن ان يصدموا اليهود الاميركيين الذين يتوقعون ان يكون الاسرائيليون في مثل تقوى اشعيا . التقويم الحقيقي هو الذي نراه في « الينبوع » لمتشنر ، حيث اقتلع الايمان بالعنصر البشري في التوراة العنصر الالهي والعقيدة الدينية . ايلانا تصف الدين واعمال الحاخامين بانها « حرتقات ميكي ماوس » (ص ٨٩٤) لقد نشأت بين اناس يناقشون الكتاب على انه « الخلفية التاريخية لشعبها » . ( ص ٨٩٥ ) ويعطينا المؤلف بيانا واضحا عن هذا الوضع :

كانوا [ الصابرا ] مجموعة شباب اشداء رائعين مثيرين ، ومع انهم طلقوا دينهم الرسمي فقد وجدوا بديلا عنه مماثلا في عنته : لقد كرسوا انفسهم لخلق دولة يهودية ينبغي ان تدعى اسرائيل وان تؤسس على العدل الاجتماعي . ( ص ٨٩٧ ) .

أما أن الرب كان يمضي أمام الجنود ويسلم عدوهم لهم فيعني ببساطة ان العبريين قاموا بالقتال بانفسهم دونما مساعدة الهية . ان الحروب التي خاضها العبريون لغزو كنعان هي أحداث تاريخية وليست انجازات ربانية . وعلى نحو مماثل، فـ « لا الله ولا موسى ولا الحاخامون » كما تؤمن ايلانا ، سوف يحققون حلم الدولة اليهودية في فلسطين بل القتال فقط ، حتى آري بن كنعان ، وقد سمح له مرة بالتجديف ، يأسف من أن « هؤلاء الشيوخ هنا . . . لا يدركون تماما ان المسيح الوحيد الذي يمكن ان ينقذهم هو حربة مثبتة الى فوهة بندقية » . ( ص ٥٦ ) الا ان موقف ايلانا يتعرض للهجوم الشرس من قبل اليهود الارثوذكس ، وبخاصة من الحاخامين الذين يؤمنون بان ظهور المسيح ، بمفهوم ديني صرف ، هو فقط ما سينقذ اسرائيل . ونتيجة لذلك ، يرفضون محاربة العرب حتى في حالة الدفاع عن النفس. « انها ارادة الله ، فاسرائيل يجب ان تعاقب على خطاياها » . ( ص ٩٢٩ ) يقول الحاخام اتزيك لايلانا بلغة اليديش ، في الماضي ، يقول : استعمل الله الآشوريين والبابليين ليعاقب اليهود ، والآن يستعمل العرب . في جميع الاحوال ، يجب الا يحارب العرب خلال عيد عاشوراء ، وتصرخ فيه ايلانا : « سوف نحصل على الدولة ، وبعدئذ نقلق بشأن الله وعاشوراء . » ( ص ٩٣١ ) ثم تضرب الحاخام اتزيك على وجهه وتخبره انه « احمق عجوز » وتلطم رأس زوجته فتسقط لمتها على الارض كاشفة عن رأسها المحلوق « بجميع ثآليله وعروقه . » ( ص ٩٣٢ ) .

ان تصرف ايلانا ليس سيكوباتيا فقط . ولكي نفهمه يجب ان نفهم تأثير حياة الغيتو الاوروبية على النفسية الصهيونية . لقد سلبت حياة الغيتو من اليهود انسانيتهم وابعدتهم عن السواء . وهكذا فان تصميم باراتز على اعادة خلق الذات اليهودية والارض قد دق كالمسمار في عقول الصابرا حتى غدا جنونا ، انهم يحتقرون اليديش واللادينو ـ لغتا اليهود في المانيا واسبانيا ـ كرموز للضعة ، وتشعر ايلانا بخجل مماثل من لم الشعر التي تضعها اليهوديات بعد حلق شعورهن كي يتجنبن اغتصاب السادة الاميين (غير اليهود) لهم . موقف اليهود الارثوذكس المستسلم هذا ، نتيجة للاذلال الذي أوقعه بهم الاوروبيون في وسط وشرق أوروبا . اي ان اهم مصدر للثورات عند ايلانا هو بلا شك التصانيف الضخمة للقوانين والتعاليم التي اشتقها وفرعها الحاخامون عبر قرون طويلة من قراءة التوراة . وتشعر ايلانا ان الحاخاميين قد أضفوا بهذا شرعية ودستورية على العبودية باسم العقاب الالهي . كل قانون يذكره الحاخامون ترفضه هي كوصمة من وصمات حياة الغيتو اللاانسانية .

لقد افرخت نفسية الغيتو في الصابرا معارضة عنيفة لممارسات حياة اليهود الاوروبية . لذلك يرفض الصابرا الذهاب الى الكنيس ويحتقرون من يفعل ذلك . مكان عبادتهم هو الارض ، والكنيس لا يوجد في الكيبوتزات . كذلك فهم لن يتزوجوا بحسب تقاليد اليهودية ويرفضون بركة الحاخامات يوم الزفاف . عندما يتحاب فتى وفتاة يقرران العيش معا كأزواج ، على الرغم من أن هذا القرار سيؤدي الى بطلان زواجهم واعتبار أولادهم بناديق بحسب القانون الاسرائيلي .

## ٢

من بين الكتاب الاربعة الذين يناقشهم هذا الفصل ، يظهر الصابرا كشخصية رئيسية في رواية **الخروج** فقط ، وهي لليون يوريس . يقول مراجع المانتشستر غارديان ان **الخروج** « قطعة تلصيقية ( كولاج ) محتدمة » ولكنها « غير موجودة في المآل كرواية » ( ١٩٥٩/٧/١٧ ص ٤ ) ويلاحظ السيد جون كمشه بدقة ان يوريس قد « ادخل الجنس والنجاح والجيمس بوندية في الصهيونية . » ( ميدل ايست ريفيو ، ٦٢/٤/٢٧ ، ٢٢ ) . ويعيد كمشه الى الاذهان ملاحظة ليبتزن بشأن جوع القراء الاميركيين لقراءة شيء عن خوارق اعمال اليهود : « لقد أعطى [ يوريس ] جماهير اليهود بجميع المستويات الاقتصادية ، الصورة التي كانوا يتوقون لها . لقد اظهر لهم ان اليهودي الجديد قادر على احتذاء النموذج الاممي ومتابعته . بل لقد فعل اكثر من ذلك : لقد جابه القراء غير اليهود بصورة اليهودي الجديد وقد أعجبوا بها خارج انكلتره . » ( ص ٢٢ ) اما تعليق السيد كولمان على الرواية فمضيء :

ان ما يدمر ثقة الانسان اذ يتكشف السرد عن احداث ما بعد الحرب هو التقليدية المروعة التي قدمت بها الشخصيات الرئيسية : الاميركيان الطيبان الصلبان مارك وكيتي ، المقدم البريطاني اللئيم وشبيه الاله آري بن كنعان . انها بساطة الابيض والاسود نفسها التي قابلناها في «الاميركي البشع » . لقد اهدر السيد يوريس على نحو لا يصدق مادته البطولية بتجوف تضميناته . وما دام قانون القذف وجائزة القصص ما هما عليه ، فاننا سنلتقي بمزيد من هذه الوثائقيات الفارغة قبل ان تنحسر الترهات ونرى ان مثل هذا الكتاب قد يكون ذا فائدة اجتماعية بالجدل الذي يخلقه وبتطويل مدى ذاكراتنا القصير . ولكن علينا ان نميز ان الوسائل التي يستعملها

[ هذا الكتاب ] هي في المآل الموت لجميع مزايا الذكاء والحكمة والاحسان التي تجعل الادب نفسه اكثر من « خروج » من الحياة ( سبكتيتر ، ١٩٥٩/٧/٩ ، ٤٤ ) .

يتناول الكتاب كل علامة فارقة في تاريخ اليهود منذ ثمانين عاما قبل نشره ، واحيانا يوغل في الماضي الى بدايات العصر المسيحي ، وتستند الى هذه الخلفية الشاسعة المفصلة شخصية آري بن كنعان لتكون وقودا يضاف الى آلة المغامرات المذهلة التي يقودها المؤلف . وهو دور يقوم به آري جيدا في موزاييك التقارير الصحفية والمقتطعات من كتب التاريخ التي صنف منها السيد يوريس رواية .

ولد آري في كيبوتز ثم نشأ في موشاف ـ تعاونية تقوم على اساس الملكية الفردية ـ حيث علم محبة الارض والزراعة . في السابعة عشرة غدا عضوا كاملا من جيل الصابرا « بشواربهم الضخمة والطابع العدواني » في شخصيتهم . (ص ٣٥٥) طوله ستة اقدام ، شجاع كأسد « آري تعني أسد » ، ومتحدث بنصف دزينة من اللغات . وتظهر عليه خصائص مشابهة لتلك التي اوردها كوستلر في **لصوص في الليل** ؛ حتى ان يوريس يستعمل عبارة كوستلر التمثيلية نفسها : طرزانات عبرانية. ( ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ) ان كوستلر متضايق من هذا الجيل الجديد ، أما يوريس ، وبسبب الخصائص نفسها ، فهو يرفعه الى المحل الاعلى ، وهو يقدم شخصية آري عبر المبالغات اللفظية « اري حقيقي جدا . انه نتاج اجهاض تاريخي » ، (ص ١٩٤) أو كراعي بقر في الروايات الاميركية ،

انتزع اري بار اسرائيل من كرسيه موقعا رقعة الشطرنج على الارض .
واثبت الشرقي [ السفاردي ] القميء من ياقته ثم هزه كأنه كيس لا وزن له ، « سوف تأخذني الى بن موشه والا فسأخلع رقبتك » . ( ص ٤٢٢ ) .

ان تفوق اري الاشكنازي على « الشرقي القميء » ليس كل ما يميزه ، ان لدى السيد يوريس تذوقا عجيبا للشاذ والشكس في الطبيعة البشرية . فهو يريدنا أن نعجب بآري باعتباره « ابرد كائن بشري » ، متحركا « وفيه شيء موتي » ، وباعتباره دائما « نفسه الباردة الخالية من التعبير » ، « وحشا ميكانيكيا » ، « آلة » و «محركا قديرا جريئا» ، « حيوانا ميكانيكيا » ، و « قائدا لوحوش النقب » أما حوار آري مع مارك الصحفي الاميركي فنموذجي :

[ مارك ] « هذا حسن . لم اعلم انك تشعر بالاسف لاجل احد » .
[ آري ] « اشعر بالاسف لانها تركت انفعالاتها تسيطر عليها » .
« نسيت ، انت لا تعرف شيئا عن الانفعالات الانسانية » .
« انت عصبي ، يا مارك » .
« ماذا تريد ؟ لقد قاست كيتي اكثر مما يحق لانسان واحد ان يقاسي » .
« قاست ؟ » قال آري . « اني لاتساءل ما اذا كانت كيتي فريمونت تعرف معنى الكلمة » .
« عليك اللعنة يا بن كنعان ، عليك اللعنة . ما الذي يجعلك تعتقد ان اليهود يملكون حقوق المقاساة ؟ » .
« لحسن الحظ انت لا تقبض كي تحبني وانا لا استطيع ان اكون اقل اهتماما » .
« وكيف تستطيع ؟ انت ترى ، انا احب الناس ذوي الضعف البشري » .
« ليس لدي هؤلاء في ساعات العمل » . ( ص ١٦٢ ) .

المقصود من هذه المحادثة ان تجعلنا نعجب بآري وننتقد برودته باستلطاف ، وان نتعاطف مع كيتي وننتقد ضعفها . ولكننا لا نفعل أيا من العملين لان تقديم مشاعرهما من التفاهة والابتذال بحيث لا نهتم بهما الا اهتماما طفيفا ، أما الحزم المنفر المتعمد في الجملة الاخيرة من الاقتباس السابق فدليل كاف على فقدان العمق والتعاطف . ذلك لان ساعات العمل عند آري لا تنتهي ، فهو منذ الثالثة عشرة ينتقل من تنفيذ مهمة الى تنفيذ اخرى ، ومهماته كلها مصيرية . لقد أجبرته الظروف على العمل ، والا لكان قد بقي مزارعا في مزرعة والده . انه يظهر أكثر مما يتوقعه الاموميون من يهودي ازاء التحديات التاريخية ، وفي الحقيقة ، فانه بسبب كونه يهوديا يظهر مثل هذه المزايا الخارقة . وهذا ناجم عن هوس آري الغريب . وهو ان العالم كله معاد لليهود او مستغل لهم . وهو يحذر دافيد بن آمي من دموع التماسيح والخدمة اللفظية من لدن الاموميين . « سوف نخان ويغدر بنا كما هو الحال دائما ، ليس لدينا اصدقاء سوى شعبنا ، تذكر ذلك . » ( ص ٢٤ ) ويمكن للانسان ان يفهم ــ دون ان يبرر أو يقبل ــ اعتبار معاناة غير اليهود تافهة بالنسبة لمعاناة اليهود . لكنّ المؤلف يضيع الصلة النفسية بين الشرط والاستجابة ويعتمد كلية على تضخيم الحقيقة . فالظروف التي ولدت صفات آري ومواقفه قد اغفلت بسبب رغبة المؤلف في تقديمه كبطل معصوم ، ان عدوانية آري وانعدام ثقته المطلق بجميع « الفوييم » ( الاموميين ) موضوعات روائية اكثر دلالة من عصمته ، خاصة عندما ترسم على خلفية من حياة الفيتو والمثل الصهيونية الرجعية . ان قصد المؤلف ، مرة أخرى ، ليس تجسيد تجربة انسانية ، بل الصدم والابهار .

البطل المعصوم هو ما تقدمه رواية « الخروج » عبر كليشيهات لا تنتهي ، فآري يتقيد بشعار « العين بالعين والسن بالسن » وهو « مستيقظ في المجد » ويطير « بأجنحة كالصقور » ، انه « يمضي مباشرة الى الموضوع » ولديه « عين عملية » تستوعب وضعا بلحظة ، ولديه « شخصية كالبرج بارزة » و « بالغ الذكاء » ومتميز « بخاصية القيادة » فيه . في الخامسة عشرة يغدو مقاتلا بارزا في الهاغاناه ، وفي العشرين يغدو قائدا من قادة الهاغاناه ينظف منطقة الجليل من « الارهابيين » العرب ويلاحقهم داخل سوريا ولبنان ، وفي الخامسة والعشرين ، وخلال الحرب العالمية الثانية يهرب أعدادا غفيرة من اليهود الالمان من مقره في برلين وذلك باقناع كبار المسؤولين النازيين ان من مصلحة المانيا تهريب اليهود الى فلسطين ، ويعود ليحارب جيش فيشي القريب من دمشق والمزود بالمدفعية والدبابات ويقتل اربعمئة جندي ، وفي قبرص ، يقود متخفيا بزي ضابط بريطاني عملية جريئة يخطف على اثرها مئتين واثنين من الاطفال اليهود الى فلسطين دون أن تستطيع المخابرات البريطانية اكتشافه او ايقاف سفينته بعد انكشاف أمرها . ولكي يهرب بالسفينة يهدد البريطانيين بنسفها بالديناميت اذا اوقفوها ، ثم يصوم مع الاطفال مدة ست وثمانين ساعة صياما تاما ، مجبرا البريطانيين بذلك على ترك السفينة وشأنها بعد ان هب الرأي العام العالمي لنجدته . واخيرا « يطهر » منطقة الجليل نهائيا من سكانها العرب .

عبر هذه القصص الخرافية ترسم شخصية آري بتقريرية ومسرحية كمغامر

متخبط ولكنه ناجح دائما . ويبدو ان المؤلف قد انساق مع هذا التشخيص المبتذل لآري فراح يركز على ساعات الصوم بجعل ارتكامها عناوين لاربعة عشر فقرة .

ومرة اخرى يواجهنا المثلث البشري المكون من الصهيونيين والبريطانيين والعرب . وبالاضافة الى خاطرة المؤلف بان آري والصابرا يحاربون الامبراطورية البريطانية ، فان آري مسلح بسؤال مذهل جوابه ، دون شك ، « لا » بحروف كبيرة : « الديهم [ البريطانيون ] حق في البقاء هناك [ فلسطين ] أكثر ممن نجوا من هتلر ؟» ( ص ١٧٨ ) ويتبع ذلك بالقاء اقتباس طويل من « حزقيال » . وهكذا يتحول الصراع الاساسي على فلسطين من صراع بين العرب والصهيونيين الى صراع بين البريطانيين والصهيونيين . ان المؤلف يفشل في ان يرى ، او يختار الا يرى ، الصراع بين العرب والصهيونيين . وهو ايضا يفشل في أن يرى ، أو يختار الا يرى، انه ليس للصهيونيين ولا للبريطانيين اي حق في فلسطين . وفي كلا الحالين ، وعبر البيانات والتوكيدات المجانية ، يتغافل عن الاساسي ويركز على الهامشي قاصما الموضوعات الرئيسية او ملغيا لها الغاء تاما . فآري لا يتساءل عما اذا كان له الحق في طرد الفلسطينيين من وطنهم . ان علينا ان نفهم ان فظائع النازية تبرر له ذلك . وهو يحاجج بانه ليس ثمة مكان يذهب اليه اليهود ، ويستشيط غضبا من هؤلاء العرب «الحوبة» الذين يرفضون دفع ثمن جرائم ارتكبها غيرهم . ان يصير الى مستعمر بشع نموذجي يفرض مصالحه كحقوق الهية ويسعد بالاطفال العرب الذين يقدمون له اخواتهم ليتمتع بهن : « لعلك ترضى بأختي ؟ انها عذراء . » ( ص ٣٣٤ ) ولكن عندما يرفض « شقيقه » العربي طه، وقد احس بقرب اخلاء شعبه من الجليل ان يتعاون معه — وكذلك يرفض ان يحاربه — فان آري يفقد اعصابه غضبا . انه يتهم طه بالخيانة والعقوق . ويبدو ان طه قد اخذ اخوة آري مأخذ الجد ، اذ يطلب يد جوردانا شقيقته كعربون لهذه الاخوة . عندئذ ترسله قبضة آري متدحرجا على الارض . وفيما بعد يقتل طه وتحرق قريته بأوامر من آري . بالنسبة لآري ، فقد لقي طه جزاءه . و « تمضي قصة الخروج » كما يقول الاعلان المثبت في نهاية الرواية . لا عجب في أن « واحدا من كبار الممثلين الاسرائيليين » قال « انه أجبر نفسه على قراءتها ، وانها كتاب مبتذل لكنه جيد بالنسبة لليهود الاميركيين » . ( جون كمشه ، ص ٢٢ ) .

## ٣

ملاحظة أخيرة على الروايات الاربع التي نوقشت في هذا الفصل. ان شخصيتي شايلوك واليهودي التائه ، وكذلك ساكن الغيتو ، تحوم كالاشباح في خلفية تصوير الشخصيات . ويبدو ان هؤلاء الكتاب يصارعون احساسا بالعار لان هذه الشخصيات لا تتوافق مع معصومية الصابرا والشخصيات الصهيونية الاخرى . وجهدهم ليس أن يدرسوا الشخصيات هذه وتأثيرها على نفسية الصابرا ولكن ان يقدموا شخصيات مناقضة لها وتفوقها جسامة ووزنا ليزيلوا الفكرة العامة غير المريحة عن اليهود . لكن مخلوقاتهم كانت سطحية برغم أسطوريتها وخالية من الانسانية .

# الفصل السابع

## الصهيوني : اسرائيليا

### ١

بين تقديم يائيل دايان للشخصية الصهيونية وتقديم الكتاب غير الاسرائيليين لها ، فرق كبير . ومع أن رواياتها الاربع تعالج الانماط الصهيونية نفسها ، فليس ثمة ارضية مشتركة يمكن على اساسها ان نجملها مع هؤلاء الكتاب . فكما رأينا من قبل صورت شخصية الصابرا وكأنها معصومة وذات قدرة تتجاوز المدى البشري ، ومندفعة الى تشييد حياة نموذجية . ان صهيونيي السيدة دايان مفتقرون الى هذا النوع من التفوق ، وفي معظم الحالات يفاجئون القارىء بكونهم مرضى ، أخلاقيا ونفسيا ، وذوي ضمير مضطرب الى حد الاستعصاء على الشفاء . والمزايا الصهيونية نفسها التي هلل لها الكتاب اللااسرائيليون ، تبدو هنا وكأنها آفات صنعتها رغبة في الموت تتحكم بالشخصية اليهودية .

والفرق هو أساسا في الخلفية والقصد . فالمؤلفة صابرا ، وكذلك ابوها . لكنها تصف البيئة التي نشأت فيها وصفا مختلفا عما شاهدناه من قبل . ان معرفتها بالمجتمع الصهيوني معرفة مباشرة وحميمية ، على عكس ما يظهره الكتاب السابقون . ولا يبدو في رواياتها الاهتمام الذي يبديه الآخرون بالدعاية او باثارة تعاطف الناس مع اسرائيل . انها واثقة من شعبها ومن قدرته ليس فقط على الدفاع عن نفسه وانما على تحقيق النصر ايضا ، وهذا ما يجعل الرؤية المأساوية في رواياتها ابلغ أثرا ونقدها لبني جنسها أكثر قابلية للتصديق . لكن الرؤية والنقد لا يصدران عن مشاعر معادية لوضع سياسي او حالة راهنة ، وانما عن ادراك متفاوت العمق لمصير اليهود الانساني . انهما قاتمان ، يكادان ان يخلوا من روح الدعابة التي تخفف من وقع المأساة ، وينهضان على ارضية من الموت الروحي أو الجسدي . وليس مفاجئا ان رواياتها تسبر غور الشخصية الاسرائيلية على نمو تراجعي . فالروايتان الاوليان تحفلان بشخصيات الصابرا قبل وبعد قيام اسرائيل ، وتعالج الثالثة علاقة فتاة صابرا مع مهاجر أوروبي ، اما الرابعة فتكاد تقتصر على المهاجرين اليهود . ان المؤلفة منصرفة عن التاريخ السياسي للصهيونية الى تسجيل كشوفاتها عن الاسرائيليين .

وحقيقة انها ترصد الضمير البشري وليس التاريخ واضحة في روايتها الاولى **وجه جديد في المرآة** ( ١٩٥٩ ) ، التي تعالج الدائرة الضيقة لحياة مراهقة تكتشف نفسها.

كتبت يائيل دايان **وجه جديد في المرآة** وهي في التاسعة عشرة من عمرها ، وهذا يفسر عنصر السيرة الذاتية الواضح في قصة آرييل رون الفتاة الاسرائيلية ذات الثمانية عشر عاما التي تؤدي خدمة العلم . غير ان التشابه بين المؤلفة والبطلة لا يعنينا كثيرا هنا ، فالاثنتان اسرائيليتان ، والتجارب المرصودة في الرواية تنتمي الى الطبقة العليا من السلم الاجتماعي الاسرائيلي . ان مشاكل آرييل واكتشافاتها تنطبق على كثير من الحالات في المجتمعات المتمدينة . وعلى هذا الاساس تكون آرييل تعبيرا عن آخر التطورات التي وصل اليها جيل الصابرا ، والتي تتمثل في أن فكرة الدفاع عن اسرائيل قد أعطت مكانها لرغبة في التنعم بحياة بورجوازية .

تعرض القصة جانبين من حياة آرييل ، العسكري والفردي . كمجندة ، وفيما بعد كضابط ، هي نموذج لغيرها مقترب من الكمال : فترتيبها هو الاول في الدورة ، وهي آمرة مثالية لوحدة من المجندات ، ونقيبة ممتازة على الحدود . وهي تتدبر أمرها بحيث تنجح في اعمالها نجاحا باهرا . انها ترسم خطا على ورقة تمثلها ، فتقسمها الى نصفين : « النصف الاول هو نقيبة المستقبل آرييل . ان اسهل طريق الى النجاح بالنسبة لهذه الانسانة هو ان تلعب لعبة جديدة ؛ ان تكون اجتماعية ومحبة وعطوفة . ان تتطوع للقيام بالاعمال ، لا تتذمر ، تتعاون بتواضع ، ومن المستحسن ان تتخذ أصدقاء ، ولكن على السطح فقط » . (١) ويبدو واضحا ان اندفاع آرييل وحماسها في الخدمة العسكرية يستهدفان البروز والتفوق . ولتحقيق اغراضها تلجأ الى أساليب خداعية وادعائية . وبما ان كل فتاة في وحدتها « بزال » ، « فقد صممت على أن اكون بزالا ذكيا » (٢١) . وتتقبل ضياع شخصيتها في الجيش لان في ذلك فائدة لها : « لقد جعلني أشعر باهمية أكبر ، اذ عندما أجبرت على أن أكون مثل الآخرين جميعهم غدوت أكثر وعيا بتفوقي » ( ١١ — ١٢ ) .

ان خدمة آرييل العسكرية موضوعة ثانوية في الرواية . ونجاحها فيها لا يؤثر على علاقاتها الاخرى الاكثر دلالة والبالغة التشابك والتي تتركز في القدس وتل ابيب ، وعلى هذا فقد وضعت الآنسة ميوريل سبارك اكثر مما ينبغي في مراجعتها للرواية ، اذ أشارت الى « الاستعمال الفعال لرمز البندقية . » (٢) ولا تقول لنا الآنسة سبارك ما هو رمز البندقية . وفي الحقيقة يرد ذكر البندقية في الصفحات الثماني عشرة الاولى فقط . ففي مرتين يشار اليها كغرض من جملة اغراض تسقط آرييل عليها افكارها . وفي مرة اخرى ، تحتفظ آرييل ببندقية زميلتها الى جانبها لاجل رعاية أفضل : « وهكذا أضيفت الى مجموعة أغراضي بندقية طويلة السبطانة ، استقرت الى جانب بندقيتي » (٩) . وفي مرة رابعة تقول آرييل لنا « وانكمشت يدي

---

١ — Yaël Dayan, **New Face in the Mirror** (London: Weidenfeld and Nicolson, 1959), p. 43.

٢ — Muriel Spark, «New Novels,» **The Observer**, July 5, 1959, p. 11.

اذ لمست المعدن البارد [ للبندقية ] » ( ٨ ) . واخيرا ، تكتب آرييل بالنيابة عن رفيقتها راشيل رسالة تخبر فيها والدي راشيل ان ابنتهم « تحب بندقيتها » (١٨) . وفي هذه المرات جميعها تضخم البطلة اهتمامها بالبندقية لانها تريد لكل شيء يمت لها بصلة ان يكون بارزا ومليئا بالدلالات والمعاني . ولكن ليس ثمة حالة تقمص لاي من المعاني التي يمكن ان تقدمها البندقية . ان التأثير التي تود آرييل ان تمارسه على الناس لا تحققه الاسلحة وانما شيء آخر .

فآرييل ليست النوع المقاتل ، وليست مهمومة بالدفاع عن اسرائيل ، مثل ايلانا في **الينبوع** . وزميلاتها في الوحدة العسكرية اقل حماسا للجيش منها ويتمنين لو لم تكن ثمة خدمة الزامية . طبعا هي تحب اسرائيل ، ولكن بطريقة عادية : « يحب الانسان بلاده سواء اكانت رديئة أم طيبة » (٢٣) . ان نفسها الحقيقية ، وهي التي تتمثل في النصف الثاني من الورقة ، مشغولة بهم شخصي بحت : « عندما آخذ اجازة كل اسبوعين أحاول أن اكون نفسي الاخرى ، نفسي الحقيقية ، شريرة بقدر ما أريد ، اقوم بأسوأ الاعمال ، اؤذي واجرح من أشاء او ارضي واسعد ... ولسوف احصل على كل ما أريد مهما يكن » (٤٤) . وآرييل تحب ان تلعب العابا ، وخاصة الالعاب الخطرة ، لتؤكد ذاتها وتفرض شخصيتها الظاهرية التفوق على الآخرين . وفي الحوار ذاته الذي تجريه مع نفسها تكشف لنا عن تعطشها للقوة وعن الدافع الاثيم للسيطرة على الناس . « ولكن ماذا اردت ؟ وكتبت يدي ( القوة ) على الورقة ... القوة على التأثير في الآخرين ، على اللعب بالخيوط التي تجعلهم يرقصون للنغم الذي أعزفه » (٤٤) . وتشمل مخططاتها للسيطرة على الآخرين جميع من تعرف تقريبا : زميلتها الفقيرة ، اخوين مسيحيين ، أبويها ، وبيتر بنت ( صديق العائلة ) . يقول لها ند ، وهو أحد الاخوين : « فيك شيء غادر ، وخطر » (٨٧) . ويصفها الآخر بانها « قحبة متآمرة حسوب » (٩٢) . ويوبخها ابوها بمرارة : « في الحقيقة انت ما يصفه الامريكيون بقولهم : مزدوج الخداع » (١١١) .

في هذا كله تنطلق آرييل من غرور صلف يجعلها تعتقد ان الآخرين دمى يمكن العبث بها . وهي لا تخفي اعجابها بنفسها : « نظرت الى نفسي في المرآة باستحسان : ملامح مستقيمة ، انف صغير ، الفم ساخر قليلا ، الشفة العليا تتقوس قوسين صغيرين ، وليس ثمة ابتسامة كاملة ، فقط ابتسامة متشككة » (٣١) . ولكن هناك ما هو أهم من القسوة والمكر والخلو من الحنان في شخصية آرييل : انها عاجزة عن الشعور بقيمة العلاقات الانسانية . تقول لها مدربتها : « ( انت جندية كاملة ، لكنك بطريقة ما ميتة ) » ( ٢٦ ) ، وهي تلاحظ افتقارها الى المشاعر الجميلة ، لكنها تتظاهر بالترفع وتحاول الا تبالي : « بدأت اصفر ، ثم اغني » . وفيما بعد تدرك آرييل انها في الحقيقة خائنة ، تماما كما قالت لها المدربة . أهم شيء هو « انني خفت من الموت ، وخفت من أبي » (١١٩) . وعندما طلب اليها ، كجزء من تدريبها العسكري ، أن تكتب رسالة الى أبوين متخيلين تنبئهما فيها بفقد ابنتهما في المعركة ، تصيبها نوبة هستيريا ، فتضحك وتبكي وتفر من القاعة هاربة الى البرية . هذا كله بالطبع نتاج لنمط معين من الحياة وغسيل الدماغ . لكن المؤلفة

لا تتطرق الى ذلك ، وبالتالي لا يمكن الوصول الى نتائج دون مقدمات مباشرة، خاصة وان القصة مفصلة على حجم فتاة مراهقة .

لكن آرييل قادرة على النقد الذاتي . واذ تديم النظر في المرآة تبدأ بتفهم المزيد من سلوكها ونفسيتها . يعلمها فشل تجربة « بجماليون » ان « ما كنت افعله مع رينا كان رخيصا ، سخيفا ووضيعا » ( ٤٩ ) . لكن تظل على ثقتها بانها ستنجح في المستقبل ، وتمضي في تجاربها على الآخرين ، غير واعية بالمرة للنوازع الشريرة المضطرمة فيها . عندما تفشل في الحياة العادية تلتزم بوحدتها العسكرية ليل نهار فتزداد ظهورا كضابطة متفوقة . ولا يخلو هذا من دلالة بالنسبة للحياة الاسرائيلية . انها ما تزال غارقة في أحلام العظمة والتفوق . ورغم فشلها على صعيد العلاقات الانسانية فهي تمضي في العابها المدمرة ، حتى يتمكن بيتر بنت ، صديق العائلة المتوحد من أن يجعلها ترى وجها جديدا في المرآة وهكذا « يخرجها بنت من قوقعتها المعجبة » (٣) ويجبرها على عقد سلام مع نفسها ومع العالم المحيط بها . عندئذ تكتشف آرييل الحب والاتضاع والدموع .

ان متابعة يائيل دايان لبطلتها لصيقة وبادرة في وقت واحد . لكن سياق التغير في شخصيتها ليس مرصودا بعناية . فالمؤلفة تقود قارئها الى الاعتقاد بان تجربة الفتاة مع بنت ستحل مشاكلها مع نفسها ، لكن والقاريء لا يعرف كيف حدث ذلك . ورغم الحرارة التي تبديها المؤلفة تجاهها في النهاية ، فان قصة آرييل تأتي الى نهاية مفاجئة فتبدو رسالة التوبة التي تكتبها لابويها من فرنسا ، أقل من مقنعة .

ان الشبه الوحيد بين آرييل وبقية شخصيات دايان هو ان الجيش بالنسبة لها ملجأ . فكما رأينا من قبل ، يكون فشلها في الحياة حافزا لمزيد من الانغماس في الحياة العسكرية . وسوف نرى فيما يلي ان نمرود ودانييل وشخصيات أخرى يلجأون الى الجيش بالطريقة نفسها ولكن على نحو أكثر تعقيدا . وفيما عدا ذلك ، تبقى الرواية تجربة هلامية ، وخاصة فيما يتعلق بفهمنا للشخصية الصهيونية ، خلفيتها وتربيتها . وهي في أحسن الحالات تمثل فترة استيقاظ المؤلفة نفسها على حقائق مجتمعها الاسرائيلي الذي وصفته بالتفصيل في رواياتها الثلاث التالية .

## ٢

بين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٧ كتبت يائيل دايان ثلاث روايات تتضمن دراسة متكاملة للشخصية الاسرائيلية . وتبدأ هذه الدراسة بالاسرائيلي الحديث ثم ترجع الى الصهيوني فاليهودي العتيق . وهذا طبيعي بالنسبة لانسان يتلمس طريق معرفته بالواقع عبر أقرب الحقائق أولا ثم أقصاها واعمقها . ويبدو ان السيدة دايان ، مثل آرييل ، قد سلكت هذا الطريق عبر تجربتها المباشرة. فروايتها الثانية **اغبط الخائفين** ترصد شخصية الصابرا . ومن المفيد ان نسجل هنا بعض التشابهات الاساسية بين نمرود ، بطل الرواية ، وآري بن كنعان في **الخروج** وايلانا في **الينبوع** . ان طابع

---

٣ – John Coleman, «Wolfe's Clothing».

العدوانية المميز واحد لدى الثلاثة ، وكذلك تلك الحاجة المحمومة الى القوة والنصر العسكري . ان للشخصيات الثلاث مظهرا صلبا وتعبيرا عن الذات متصفا بالقسوة ، وهي ثملة بخمرة الانبعاث القومي التي شربوها في مزارعهم التعاونية .

لكن التشابه في الشخصيات لا يرادفه تشابه في الحكم الاخلاقي . ان رؤية السيدة دايان لهذا النمط من البشر تختلف بزاوية قائمة عن رؤية يوريس وميتشنر . ان ( العلة ) التي لاحظها السيد كوستلر من الخارج في **لصوص في الليل** ، تستكشف هنا من الداخل ، ومن البداية الى النهاية المحتومة .

الموضوعة الرئيسية للرواية مثبتة في الصفحة الاولى : « من هو الاقوى ؟ » هي لعبة اطفال بيت ـ اون ، قرية صهيونية في الجليل ، اية قرية . ونهاية اللعبة المحتمة هي الموت الروحي او الجسدي او الاثنان معا . المقصود باللعبة تدريب الاطفال على تحمل ومواجهة الظروف الاستثنائية التي سيتعين على جيل الصابرا ان يواجهها في المستقبل ، وهي ترقى بجديتها واهميتها الى مستوى جدية واهمية اقامة دولة صهيونية . في **الخروج** يتحسر والد آري باستمرار من غياب الشروط السوية عن حياة ولديه ، ويأمل انهما ذات يوم سيعيشان كمزارعين عاديين . واثناء ذلك لا ينسى تدريب ابنه الصغير على استعمال السوط مع الاطفال العرب . غير ان تركيز **اغبط الخائفين** ليس موجها الى الظروف ، مع ان اهميتها واضحة ، ولكن الى التربية : الى ذلك السياق المحجر العمدي في تربية جيل قوي . ان المبدأ الذي تقوم عليه تربية الصابرا هو ما رايناه في **لصوص في الليل** : التغير ، او التغير من يهودي الى صهيوني فاسرائيلي في اطار رسالة اسرائيل التاريخية والاسطورة التي تبنى حولها . فبعد ان ( يغزو ) نمرود جبل الشيخ يكتب في يومياته : « افري جفف المستنقعات ، جدعون حارب الحروب ، وهو [ يعني نفسه ] تسلق جبل حرمون » . (٤) اذن ، على كل جيل أن ينجز المهام التي هيأها له الجيل السابق ، والوصول الى هذا الهدف تكون مسؤولية تعليم الصغار بالغة الخطورة .

تناقش الرواية فكرة التغير باستقطاب حاد التباين . فمن ناحية ، هناك لامخ العجوز ، وهو حاخام سابق هاجر من روسيا يحاول أخذ نمرود الى الكنيس ويهديه لعبة على شكل أرنب في عيد ميلاده التاسع . ومن ناحية أخرى ، هناك افري والد نمرود ، وهو نفسه ابن لحاخام روسي وقد غير اسمه الاصلي موتل ، ويريد من ابنه ان يكون النمط الجديد القوي لليهودي . لا يستطيع افري أن يفهم لامخ ، ويظن انه ناشز في المجتمع الصهيوني : « أتعجب لماذا لم يبق هناك [ روسيا ] اذ انه لم يتغير ! » (١٣) . وهو يريد ابقاء نمرود بعيدا عنه « لاني لا اريد ان ينشأ على ما كنته في قريتي » (١٥) . فلامخ يمثل كل ما يكرهه الصهيوني ويود ان ينساه : « أنت لم تتغير ، لامخ ، الهجرة الى هنا لم تغيرك في الحقيقة ولم تعن الكثير بالنسبة لك .

---

٤ – Yaël Dayan, **Envy the Frightened** (London : Weidenfeld and Nicolson, 1961), p. 114.

انت لا تبالي بالارض ، جلدك غير ملوح ، انت جد ، جد يهودي ! » (٣٥) . لكن للامخ وجهات نظره بشأن الهجرة الى فلسطين ومبدأ التغير ، وهو يرد على افري : « كيف تجرؤ ، يا افري ! يا موتل ، ابن الحاخام بمخاس ، كيف تجرؤ ! لماذا انت هنا، في ظنك ؟ظنانني احب الارض والشمس والحرية اقل منك ؟ احبها بقلبي وليس بعقلي . تغيير الانسان لاسمه لا يعني تغييره لشخصيته ، وانت ما زلت خائفا كما كان ابن بمخاس » (٣٥) . وليس للامخ ايمان كبير باليهودي الجديد . وهو اذ يعي الصعوبات التي يواجهها شعبه ، يتخوف في الوقت نفسه من الاعداد لمواجهتها سوف يجفف الصفة الانسانية من نمرود . « التغير الى ماذا ؟ » يبدو سؤالا طالما يوجهه الى نفسه ولا يستطيع الاجابة عليه .

غير ان لامخ يموت باكرا ، وتتوارى معه الصفة اليهودية البحتة التي يكرهها الصهيونيون . ويستمر أطفال بيت ــ أون في ممارسة العاب « من هو الاقوى ؟ » ، التي تتحول بالتدريج الى العاب حربية . ويسخر جدعون الملقب بالصخرة من خصلات نمرود ويدعوه « ابن امه » ، ثم يسأله عما اذا كان سيغمى عليه اثناء تسلق الجبل . اما افري المبتهج بموت لامخ فيهدي ابنه شبرية ويكلفه بتنظيف البندقية يوم السبت . وتنبغي الاشارة هنا الى أن نمرود يمتلك أساسا رقة الطفل السوي وبراءته ، وان لامخ كان يستهويه بقصصه عن الله وموسى وروسيا . وفي حوالي الخامسة عشرة نراه يتأرجح بين تأثير لامخ وتأثير افري وجدعون . لكن شدة تربية الصابرا تزداد وتفعل فعلها فيه ، فيغدو وهو في الخامسة عشرة النمط الجديد لليهودي . وافري يسأله باستمرار : « هل انت خائف ؟ » ويؤنب ميريام الام لانها تناديه « نيمي » . « انت اسرائيلي . أما انا فكنت يهوديا فقط » ، (٣١) يقول لابنه . ويدرك الطفل ان الخوف أمر معيب ، ويشعر بالضعة عندما يتفوق عليه طفل آخر في استعراض الشجاعة . وفي مقطع طويل وكاشف ، مشابه في معناه لآراء والد آري ، يشرح افري له ما يجب على الاسرائيلي ان يكونه :

( يجب الا تثق بأحد ، فليس ثمة اصدقاء حقيقيون ، ويجب الا تتوقع شيئا من اي انسان ...) ( هذه هي صديقك الوحيد ، القوة . انت رجل . انت لا تحتاج الى اصدقاء . حذار من الشفقة والرقة والحرارة . في معظم الحالات تقودك الى كارثة . ان يخف منك الناس يحترموك، وان لا ، يتغلبوا عليك ، وتترك لرحمتهم ... انظر يا بني ، نحن لا نستطيع التساهل مع الضعفاء والجبناء ، اذا كانوا عجزا ، مثل لامخ العجوز الابله ، فدعهم يموتون بسلام . لكن من بين الشباب نريد صخورا فقط ) ( ٥٤ ) .

ان لهذه الفلسفة ألقاسية الصارمة جذورا عميقة في الاستعمار الصهيوني لفلسطين . فجيل افري ، كما رأينا ، وهو جيل الرواد ، غزا الارض ، وجيل جدعون شارك في الحرب العالمية الثانية ، وكلا الجيلين الآن يصب عصارة تجربته في جيل نمرود :

كلاهما حقن جيل نمرود بروحه وقوته على مستوى قومي . لم يكن ضروريا ان يصير الانسان افضل ، ان يعلم نفسه ويجد السعادة ــ لقد احتجنا الى ابناء ارض افضل ، جاهزين لان يرفضوا الحاجات الانسانية بالمعنى اليومي ، وانما الحاجات القومية في معركة كبيرة . ( ٥٥ )

وهكذا يكتسب نمرود لقب ( الصخرة ) بعد ان مزقت الحرب جسد جدعون

واستمرت العاب « من هو الاقوى ؟ » اما نمرود الآخر ، نمرود الرقيق والبريء ، فيختفي كما اختفى تأثير لامخ . لقد قمعت المخاوف والانفعالات ، وغدت الحياة حيوانية . انه يحاول باستمرار اثبات قوته ويبدو مسحورا بجسده . وعندما تجرحه طلقة اثناء اغارة اسرائيلية على قرية عربية في سورية ، يراقب دمه النازف بابتهاج . « غريب ، فكر ، للدم احساس لطيف على ذراعي» ( ١٢٨ ) . انه يتعود على نوع جديد من الابتسام ، شرير وحزين ومتظاهر بفوقية ساخرة . ويخيبه ان صغر سنه يمنعه من الاشتراك في حرب ١٩٤٨ . ذلك لان ميدان المعركة اختبار حقيقي لانعدام خوفه . لهذا ينتظر بشوق ممض معركة مقبلة ليشترك فيها . ويغدو العدو موضوعا، دريئة تمكنه من توكيد ذاته أفضل بكثير مما يمارسه في لعبة « من هو الاقوى ؟ » وفي الوقت نفسه يؤمن بان هدفه الاساسي هو السلام ؛ وان سبب الرحلة التي يقوم بها الى جبل الشيخ هو « ان العدو يمتلك شيئا جميلا أود ان ألمسه وأداعبه » (١١٠) . لذلك يحنقه حديث مثقفي تل أبيب عن السلام مع العرب ويعلق ساخرا : « كأننا نريد الحرب » . وهنا تقول المؤلفة لنا مباشرة ، معلقة على تعليق نمرود :

كانت هذه كذبة . لقد اراد الفعل ، وفي تلك اللحظة بالذات . لقد تمدد نمرود المزدوج هذا الى الحد الاقصى . لقد اراد ان يثب داخل النار ويؤكد ذاته ويفعل ، او ان يلف نفسه ويولج جسده في رحم ميريام [ امه ] او ذراعي ايلي [ زوجه ] . ( ١٠٢ )

وفي الحقيقة ، فان نمرود يرى نفسه وكيلا للتاريخ ، وتعداده للشعوب التي قطنت جبل الشيخ منذ الكنعانيين ينتهي به ، « نمرود من بيت ـ اون ، ابن افري وميريام » ( ١١٠ ) ، ويشعر « بالسلام ازاء الجبل والطبيعة ونفسي لاني غزوتها كلها » ( ١٢٦ ) .

ان الدافع الى الغزو في الاساس حاجة لتوكيد الذات . لقد ادمن فكرة غزو الخوف ، وهي حافز بثه فيه أبوه ، وكلما عمل لتلبيته كلما ازداد الحافز الحاحا . يسأل لامخ افري : « أتدري مما يخاف [ نمرود ] ؟ » ثم يجيب : « من الخوف ـ هذا هو الخوف الذي يمتلكه » (٣٦) . وهناك مجال آخر يدعو نمرود الى توكيد ذاته هو علاقته بالارض . فكما رأينا سابقا ، صارت الارض هوسا في عقول الصهيونيين الاشكنازيين . وبغدادي ، الصهيوني السفاردي ، يختلف عنهم . فهو أساسا موجود على الارض او قربها ، وليست لديه مفاهيم غيبية بشأنها . الوضع نفسه موجود في اغبط الخائفين ، حيث يكون زكي ، اليهودي اليمني ، موضوع المقارنة . ان زكي لا يفكر بغزو جبل الشيخ ويعتقد ان ذلك جنون فيسأل نمرود مستنكرا : « لماذا ؟ » و « لم يكن بوسع نمرود أن يجيب على هذا [ السؤال ] . كان الذهاب الى الجبل الابيض ماضيه ومستقبله في وقت واحد ، كان ذلك بسيطا وواضحا ومع ذلك عجز عن شرحه لنفسه » (١٠٦) .

والى هاتين المسألتين نضيف ثالثة : ان حساسية نمرود الطفل لم تمت تماما مع انها عاجزة وبكماء ، فاحيانا يشعر على نحو غامض ان الحياة تتجه في طريق خاطيء ، فيعود الى اللعب بأرنبته مستسلما لشعور مخنوق بالسلام خلال دقائق

قليلة . لكن شدة هذا الشعور قوية ، وقادرة على خلخلة يقيناته المتفوقة وزجه في حمأة خوف أعمى مما يضطره الى الهرب الى العدوان كيما يؤكد ذاته من جديد .

ان تأثير تربية الصابرا على نمرود واضح وحاسم ، والمؤلفة تشرحه على النحو التالي :

الصبار [ وتعني الصابرا ] ثمرة دافئة كبيرة ريانة ، لكنها تتقلص بمرور الزمن . وتفقد الرواء والحلاوة والقشرة الواخزة ، وبالنسبة لنمرود ، ولجت القشرة الحادة الى الداخل لتقتل وتخنق وتعطل الحلاوة . ( ١٠٣ )

وتوضح هذا علاقات نمرود باسرته والناس الذين حوله . ففي العاشرة من عمره يعلم لفيفا من أطفال تل أبيب لعبة « من هو الاقوى ؟ » ويدفع باحدهم الى عبور الشارع أمام سيارة مسرعة . وتسحق السيارة ساق الصبي ، فلا يبالي نمرود : تلك هي اللعبة وقد فشل الصبي في توكيد ذاته . ثم يبدأ بمناداة أبويه باسميهما متقصدا ان يتحدى السلطة الابوية . ان افري مبتهج ، فهذا هو الابن الذي أراد . أما ميريام فمذعورة ومكذبة ، لكنهما ينسحبان أمامه في المآل تاركين له مهمة اتخاذ القرارات والتصرف بحياتهما كما يشاء . وعندما يحين أجل ميريام ، تتحرك في داخله تلك الحساسية القديمة المخنوقة وترجه بعنف . ويتخذ صراعه لتفادي المشاعر الانسانية المصاحبة لحادث الموت مسارا عقليا باردا يحاول به أن يكبت ردود فعله ويظهر بمظهر اللامبالي . لكنه يفشل ويدرك بيأس تام أنه غير قادر على قهر الموت . وتخفق لامبالاته المدعاة في محاولتها تسوية الصراع الحاد الناشب في لا وعيه فتنتهي ارادته الذاتية الى هروب : يفر الى جبل آخر ويحاول تسلقه . وتعود اليه حساسية طفولته متقاطعة مع أمواج من الغضب ومن الاسئلة المضنية المستعصية .

ويعيش افري ، ولكن جسديا فقط . انه مصاب باحساس بالذنب ناجم عن وعيه لتربية ابنه الخاطئة . لكن الذنب احساس بعيد عن فهم نمرود . انه آخر من يمكن أن يعي التغير الناخر في ضمير أبيه ، مع أنه يشعر بالقلق لاجله . وعندما يعترف افري بعد فوات الآوان ان مبادئه التربوية كانت خطأ في خطأ وانه لن يكررها مع حفيده ، يثور نمرود عليه بمرارة قاتلة .

مع ان علاقة نمرود بايلي ، زوجته ، مختلفة فهي ذات دلالة مماثلة . فهو مثل صابرا الفصل السابق طفل وحيوان لدى ممارسته للحب معها . انها موضوع ، مثل الجبل والبحيرة والعدو . وفي ممارسته للحب معها يمارس حبه لجسده « وقد حدث ان كانت ايلي موضوع هذا الحب » (٨٥) . فبعد أن يؤثر في تفكيرها بآرائه عن القوة وانعدام الخوف تفدو هي عاجزة عن فهم محنته في ساعات ضعفه .

ويبلى نمرود بفعل التناقضات الذاتية في وقت مبكر بالنسبة لوقت أبيه وجدعون ، ابوه يذبل ، جدعون ينتحر ، وينهار هو . لقد اختار مراجع **ملحق التايمز الادبي** أن يقرأ في انهيار نمرود خلاصا : « ان [ فتانا ] الاسبارطي ينال خلاصا ويبدأ في تعلم ( البكاء والحب والفناء ) . » (٥) وهذا رأي يكشف عن قراءة خاطئة للفصل

٥ – «Calculated Lunacy,» **The Times Literary Supplement**, Feb. 3, 1961, p. 69.

الاخير من الرواية . فعندما يلمح نمرود ابنه في مياه الاردن الصاخبة ، تنبثق في داخله المخاوف جميعها التي كبتها ويغدو محكوما بها فيثب الى الماء ويرفع ابنه منه . جدعون الصغير ـ الابن ـ يلعب بالطبع لعبة « من هو الاقوى ؟ » لكن نمرود لا يبالي بذلك . وفقط في هذه اللحظة اللاارادية « عرف [ نمرود ] البكاء والحب والغناء » (١٥٨) . وبعد صفحتين من هذا الكشف العابر تكتب المؤلفة :

هناك كان هو وحيدا . لم تكن وحدة القوي والمتفوق ، كانت وحدة الضعيف والعاجز ... واذا كان هو الحي بين الاموات [ كان في المقبرة ] ، فقد مات اليوم موتا مفاجئا وحكم عليه بالموت بين الاحياء .

ان حكم المؤلفة الاخلاقي على تربية الصابرا واضح الآن ، فيما نرجو . وقد عبرت عنه في الاقتباس المأخوذ من التوراة والذي أثبتته في مقدمة الرواية : « سعيد هو الانسان الذي يخاف دائما » . انها ترى في الصابرا نقصا في ابعاده الانسانية يصل به الى درجة الموت الروحي والاخلاقي ، ويصل في حالة جدعون الى مرتبة الموت الجسدي . وهذا الحكم يتعزز بالمباينة التي تعقدها بين نمرود وايلي من جانب ويورام ورينا من جانب آخر . فالزوج الثاني يعيشان في مدينة تل ابيب حياة سلمية وسعيدة ، وليس ليورام توهمات القوة والمراة التي لنمرود . ورينا ، فتاة الكيبوتز ، تهرب من مجتمعها الى العيش الهادىء مع يورام وتجد هذا العيش أكثر انسانية بما لا يقاس من الخط الحياتي الذي نظم معيشة افري وجدعون ونمرود . وترى المؤلفة في العقيدة التي تنظم حياة هؤلاء دمارا محققا ، رغم اية انجازات يمكن ان تحصلها . وهكذا يبدو الانتصار العسكري للجيش أجوف ولا انسانيا : « لقد انساح الجنود عبر برية سيناء حيث تناثرت آلاف الاحذية وحومت الغربان فوق الجثث » (١٥٤) . وتلك هي عاقبة البيئة العدوانية التي يعيش فيها الصابرا ، وليست محصلة صراع بين أعداء : « لو لم تكن الحرب في الهواء لكان من الضروري اختراعها » (٥٥) . وتجدر الاشارة هنا الى مصير كل من الرجال « الاقوياء » افري وجدعون ونمرود الذين يغدون شهودا على هذه البيئة وضحايا لها . ان أفصحهم حديثا هو بالطبع جدعون . فبعد أن بترت ذراعه في الحرب وشوه نصفه الاسفل يدرك كم كان مدمرا التوكيد في مجتمعه على مبدأ القوة وانعدام الخوف ، ويبدأ مجادلاته المريرة العقيمة مع نمرود :

( ليس سهلا ان تترك كل شيء وراءك ، وتسمي نفسك جديدا . الامر يحتاج الى بطء وتدرج ، ونحن جميعنا موتى لاننا نسرع في الابتلاع قبل الهضم ، فنخنق انفسنا .
لقد غذيناك رمدا ، والآن وبعد ان اتحدت الذرات نتساءل لماذا تقذفنا بالحجارة بدلا من الكمك . ) ( ١٤٢ )

وتبدو رسالته التي كتبها لنمرود قبيل انتحاره هجوما حادا على مبدأ اللاخوف :

اعرف اني قتلت الخير فيك ـ الخوف . قدمت لك مثالا خاطئا . لقد قتلتك لاني قتلت من قبل بالطريقة نفسها ...
يتطلب الخوف شجاعة ، ونحن نفتقر الى هذا النوع من الشجاعة . وهكذا انتهي هنا ويحكم

عليك بان تخب على هذه الارض رازحا تحت حمل اللاخوف البشع اللاانساني حتى تموت . واثناء ذلك سوف تجفف وتقتل وتفني كل الذين حولك . ( ١٤٩ )

وترى المؤلفة في الروح الاسبارطية هذه ليس فقط تدميرا ذاتيا وانما مصدرا مفزعا لسفك الدماء . ان النتيجة المنطقية لحافز الغزو الذي لا يقاوم لدى نمرود هي انه قد يجد نهر النيل مثلا ، أو الفرات « غرضا جميلا أريد ان المسه واداعبه » . وبما ان نمرود والصابرا سوف يخترعون الحرب اذا لم تكن ثمة حرب فالدمار واقع لا محالة . ومن الواضح ان المؤلفة تفضل اللعبة الارنب على الشبارية ، اذ بينما يستلقي نمرود على العشب وقد أدرك موته الروحي ، تستلقي الارنب في غرفة ابنه « محدقة نحو السقف بعين واحدة ، مهملة غير مرغوبة ولكن أسمى » (١٦٠) .

وتتابع السيدة دايان تفحصها للشخصية الاسرائيلية في روايتها الثالثة **غبار** (١٩٦٣) التي تقدم علاقة موت بين فتاة صابرا ومهاجر شاب . ان الرواية ارتياد مروع لنفسية الاثنين ضاعف تأثيره أسلوب المباينة التي تعقدها بينهما وبين شخصية ليني الغامضة والرمزية ــ وهو أممي جاء الى اسرائيل بحثا عن الانسان الجديد . ظاهريا، تمثل الفتاة ، واسمها ياردينا ، ما يريدنا باراتز وغيره من الروائيين الصهيونيين أن نعرفه عن الشخصية الصهيونية . انها تعيش في الجزء الخصيب من الارض المحتلة، لكنها الآن تتجه جنوبا لتتابع رسالتها الريادية في تحويل الصحراء الى جنائن وبساتين ببناء مدينة جديدة في الصحراء . ونحن لا نعرف سوى القليل عن خلفيتها الاجتماعية. انها اسرائيلية عادية مستوطنة في قريتها كمخلوقة « نشيطة متكيفة » (٦) لكنها تشعر على نحو ما بـ « اني كنت اهرب الى عالمي الوهمي لأكمل الصورة واتجنب الخيبات » (٣٦) . انها تفهم ان رسالة شعبها تفترض قهر الطبيعة وغزو الواقع ، تحويل الاحلام الى حقائق وليس الانفمار فيها . ومع ذلك ، تفضي لنا في بداية الرواية بالسبب الذي حدا بها الى المساهمة في بناء المدنية الجديدة :

سيكون خداعا الادعاء بأني ذهبت لاني اردت تحويل الصحراء الى جنة او تحقيق احلام عمرها آلاف السنين . لقد ذهبت لان الامر كان مختلفا ، لانه لم يكن ثمة شيء آخر افعله ، ولانه كان طريقا يمكن ان يفضي الى نهاية ... كنت اعرف اني سآخذ طريق العودة يوما ، ولكن قد اكون حاملة معي ذرة من صمت الليل او امانة النهار . ( ١٥ )

ياردينا اذن تبحث عن حقيقة تتجاوز الادعاءات غير المقنعة وتمنحها راحة العقل ورضى اخلاقيا . وبحثها « اختبار لنفسي » ، وهي مستعدة بسببه لان تعطي بلا حدود ، ليس من قبيل الاحسان وانما لتؤكد ذاتها وتتحرك أقرب « الى المركز » (٣٦) . ومنذ البداية تواجه واحدا من تحديين يدمرانها في المآل . ليني ، الشخصية الغامضة العجيبة ، موجود هناك في الصحراء قبلها ، « ليس بسبب حق موروث او واجب ديني ، » كما تدعي الصهيونية ، وانما لانه « انتمى الى حيث اختار ان ينتمي » (١٠٩) . هذا الشعور الطبيعي بالانتماء غائب عن ياردينا التي ترى نفسها « منفركة بيأس على

---

٦ – Yaël Dayan, **Dust** (London : Weidenfeld and Nicolson, 1963), p. 36.
راجع ترجمة الرواية في مجلة **الموقف الادبي** ، دمشق ، ايار ١٩٧٤ .

سطح [ الارض ] الاعمى ومثبتة به الى الابد » (١٣) وان محاولتها لاثبات انتمائها نفي له . ويعذبها وعيها الذي انفجر كالوحي يوم أعلنت اسرائيل دولة مستقلة :

( لم اكن ادري حتى ذلك الحين ان هذه المدن ، هذه التلال والبحيرات والشواطىء لم تكن لنا في الحقيقة ، انها قد وعدت لنا ولم تعط قط ، حلمنا بها ولم نحصل عليها ، وعندما اعلنت الدولة قيل لي انه ذلك يعني الحرب ، لكني تلك الليلة كنت ارقص الحورا . ) ( ٥٦ )

وهي لا تستطيع اجتياز شعور باراتز الصوفي بالتواشج مع الارض مع انها لقنت منذ طفولتها ما اتخذه آري بن كنعان شعارا : « الارض لي » . (٧) لذلك تريد اثبات حقها بالوجود على الارض عبر بناء مدينة في الصحراء . لكن ليني لا يتركها في سلام . انه لا يحاربها ، بل ، ببساطة ، يوجد هناك . وهو لا يمانع في وجودها معه ، بل انه يتحدث اليها ويحبها لانها ، بالنسبة له ، تمثل اسرائيل المثال . انه حيوان متوحد يمضي ايامه في جمع الحجارة الجميلة واعطائها أسماء . ويعيش قرب خيام البدو كـ « جزء من المشهد » (١٣) . وتحير أجوبته عن أسئلة البنائين عقول هؤلاء فلا يفهمونها لان حياتهم خالية من الاحساس اللطيف بعبث الحياة الدنيا . ان تاريخه الشخصي بسيط : لقد خذل ، لكن هذا التاريخ بالغ الدلالة بالنسبة ليارديناً . فمثل جوزف في **لصوص في الليل** ، تظن هي انها تنتمي الى شعب مخذول . لكن ما يغيظها فيه هو انه قد صالح الحياة وسيطر عليها بينما هي لم تستطع ذلك . انها تحسد ملكيته للحجارة الجميلة وتقمصه للصحراء . ويؤكد هو لها ان البنائين سوف يقهرون الطبيعة .

« ليس فقط انهم سيتقبلون الطبيعة ، سوف يدعونها » (٢٤) ، وسيتعين عليه الذهاب . لكنه توكيد مريب : « نحن نضبط الطبيعة في الخارج فنفش انفسنا باننا نضبط الطبيعة البشرية ... ولكن ، يمشي الحال ، وهم يحتاجون الى ذلك » (٢٤).

تتحرك القصة منذ البداية وحتى النهاية على صعيدين متداخلين . فعلى الصعيد الواقعي هناك المدينة ، البناؤون ، المهندس المعماري ، ويارديناً معلمة المدرسة . وعلى الصعيد النفسي هناك انفعالات يارديناً ، توهماتها ، نضالاتها واضطراباتها . وقد لاءم الاسلوب كلا الناحيتين فتراوح بين الوصف الواقعي للحقائق والاوضاع والتحليل الانطباعي لدوافع يارديناً الواعية واللاواعية . ويبدو لي ان تعليق مراجع **ملحق التايمز الادبي** أقل من عادل اذ وصف اسلوب المؤلفة بانه « غالبا ما يبدو ادعائيا » (٨) عندما تكيف باللغة مع ضمير يارديناً المعذب . فيارديناً ، كما تتكشف نهاية الرواية ، مزيج غريب ومفزع من الحياة والموت ، من الحقائق والتوهمات . والرواية ترصد بقدر لا بأس به من النجاح انجرافها نحو الموت . وهي اذ تأتي لتشارك في بناء المدينة الجديدة ، في تحويل ( الغبار ) الى أرض خصبة ، يكون ايمانها الكبير بحاضر ومستقبل شعبها مخدوشا برغبة غامضة في كسب « ذرة من صمت الليل او امانة النهار » . وتبدو هذه الرغبة مشؤومة ، باعتبار يارديناً فتاة من الصابرا وعضوا في مجتمع رائد . ويعزز تحدي ليني ــ هذا كله عبث ومدمر ــ احساسها بالحياة

---

٧ ــ عنوان الكتاب الثاني من **الخروج** ، والمقصود « بالارض » فلسطين .

٨ ــ «Pioneer,» **The Times Literary Supplement**, Feb. 15, 1963, p. 105.

وتصميمها على العطاء . وتتأثر لغتها ـ باعتبارها الراوية ـ بتوترها ، خاصة عندما يتجسد اختبارها لنفسها في حبها لدافيد .

ودافيد المهاجر اليهودي معنى واختبار . ان قصة حياته ابان حكم النازيين قصة معروفة : لقد افنيت أسرته في غرفة غاز وترك وحده ليعيش جسديا . عندما تسأله ياردينا لماذا اختار المجيء الى المدينة الجديدة ، يجيبها ببساطة : « لانه ليست لديكم مقبرة ولا ازهار » (٢٩) . ان عينيه بلا تعبير ، « عميقتان ، داكنتان وميتتان» ، (٢٨) ولا أثر فيهما للفرح ولا للحزن ، وان يديه « معدنيتان » . حديثه مقتضب وقاطع : « لا أحب الاطفال » ، و « نحن لم نلتق بعد » (٣١) . بالنسبة له ، لينى حقيقي ، وهذا امر نادر ، وسرعان ما يستحوذ دافيد على اهتمام ياردينا المطلق . ومنذ البداية ينذرها ان كلمة السر الى عالمه الشخصي هي « الموت » ، وتعتبره هي « ضميري ، ماضي المجهول ، تحدي ، ربي » (٤٣) . وقد لا يكون بوسع يائيل دايان أن تصف ما يعنيه دافيد لياردينا بعبارة أكثر دقة . فكيهودية تشعر تجاهه بمسؤولية يضاعفها كونها صهيونية ، باعتبار ان الصهيونية تستهدف تحرير اليهود من الشقاء . لكنها كصابرا لا تعرف عن تاريخ النازية الا ما قرأته وسمعته ، ترى في دافيد «ماضي المجهول» . وكنمط جديد من اليهود ، راغب في العطاء بلا حدود ، تتقبل موت دافيد الروحي كتحد لها ، كاختبار لصهيونيتها ، فيسيطر على حياتها كرب . وهكذا تقرر ان تعيده « الى أرض الاشياء الحية » (٤٦) .

مع دافيد تتبدى ياردينا أخرى مختلفة . وتبدأ كراوية بشحن الاشياء حولها بخصائص استثنائية مسقطة عليها مشاعرها المتوترة الى أن تغدو الشجرة مخلوقا « عجوزا ، حكيما اسمى من الارض السوداء ومن الروائح » (٤٨) . ويمكن ارجاع مشاعرها المتوهجة نحو الطبيعة والارض الى موقف الصهيونيين الاشكنازيين من الارض ، على **مواءمة** السيدة دايان بين هذه المشاعر . وموضوعة الرواية الاساسية تضيف بعدا رمزيا هو التوكيد على الحياة . ففي محاولة ياردينا اعادة دافيد « الى أرض الاشياء الحية » يطفر شعورها نحو الاشجار والارض السوداء آملة ان جليد مشاعره هو سيذوب بتأثير الطبيعة والحب .

غير ان ياردينا ، في محاولتها لاعطاء دافيد الحياة ، تأخذ منه الموت . ويتضح هذا بعد ممارستها الحب مباشرة ، في بستان بيتها . ان اشباح أسرته المتوفاة تزحف تحت يدها اذ تلمس جسده :

عرفنا اننا لم نكن وحدنا ، وعندما لمست شعره كان شعر رفقا [ اخته ] لثانية ، وعندما استراحت يدي على كتفه النحيل كان كتف افرام [ اخوه ] ...
ها هنا كان جسدانا ، ينفعلان ، يستجيبان ، يحيان ، وهناك كانت جوقة الموت ، حاسدين ، موبخين ، لا يتدخلون ولكن لا يستطيعون مفارقتنا . ( ٥٤ )

ويستجيب دافيد فيداعب شعرها ، وثمة دموع في عينيه . لكنه اذ ينام تغدو هي في أحلامه فردا من افراد الاسرة . وتكمن المفارقة المأساوية في أنها اذ تسعد لوجودها في أحلامه ، يصاب هو بالذعر ويحاول ان ينتزعها من بين أسرته . وعندما

يعودان الى الصحراء يكون فعل الموت الاول قد ترك أثره فتود هي « ان أعامل بالسوء لكي أرد » (٦٥) ، وتبدأ بالتشكك في قيمة ومعنى المدينة الجديدة : « أسيكون الناس فيها أفضل ؟ » (٦٦) وهكذا يتخلخل التوازن بين الحقيقة والوهم في نفسيتها ، وتبدأ الكوابيس بارهاق عقلها في صور متلاحقة للاسرة المتوفاة . ان هؤلاء رمز للموت ، وهم يقتربون منها اكثر فاكثر . وينصحها ليني بترك دافيد : « لحظة تبدأين بمعرفته ـ وقد أتيحت لك لمحة حتى الآن ـ فذلك يعني الدمار » (٧٤) . وترفض . انها لن تعترف بانها « محصلة سوء فهم مروع » (٧٥) وتصر على كونها سعيدة وعاشقة . ويقول ليني ان حبها لدافيد مزيج من المازوشية والاغتياد . على الصعيد الواعي يبدو محسوبا وباردا ، وعلى الصعيد اللاواعي هو طريق الى الموت . ويتأكد ذلك في عجزها عن اية استجابة لمحاولة ليني اغتصابها ، وفي معاملتها لدافيد كما تعامل الصحراء : غرض تتوقع منه تغيير طبيعته . انها تريد سقيه كما تسقي الصحراء ، وزرعه بالعشب والاغراس . واذ تجردها محاولة ليني اغتصابها من ادعاءاتها ، تلجأ الى السخرية منه والانتقاص من مقدار تأثيره عليها : « ومن هو ليني على اية حال ؟ » (٧٨) كما ترفض الاعتراف باضطراباتها الداخلية التي يوقظها فيها ليني والإشباح ، وتقول لنفسها انها ستستعيد حالتها السوية اذ ليس ثمة علاقة بينها وبين الاشباح والتاريخ اليهودي :

لم اكن اخترع الاشباح ، ولم يكونوا نتاجا لخيالي المضطرب ، كنت في كامل عقلي عندما ظهروا، واعية بنفسي وبما يحيط بي ، كذلك لم يكونوا رموزا لوعيي اليهودي . ( ٧٩ )

لكن الاشباح في الحقيقة رموز لوعيها اليهودي ، لماضيها المجهول الذي ردت عليه الصهيونية بتكوين باردينا ذات الارض السوداء والمدينة الجديدة . غير ان دافيد والاشباح يمتصان قدرتها المحدودة على الحب والعطاء وينثران فيها الغبار الذي تحارب . انه تبادل مأساوي للمصائر ، لان دافيد يربح ما تخسره هي ، وهو يغدو اكثر مأساوية عندما تنجلي نتيجة النضال عن غبار . ويؤكد دافيد لها تحليل ليني لشخصيتها ، ويطلب اليها الذهاب اليه في خيمته ، والا فستتناثر مزقا . ويبدو ان دافيد قد جنى شيئا من السواء ، وهو ممتن لها . ان انسانيته المخنوقة تتحرك داخله ، ولكن بطريقة عنيفة شبيهة باندفاع الماء الذي ينجح البناؤون اخيرا في استخراجه من الصحراء . لكن محاولته ممارسة الحب معها تغدو في نظرها اغتصابا، ومن الآن فصاعدا تستجيب لحبه فقط عندما « لذعري اغمضت عيني وتصورت ليني يمارس الحب معي » (٨٢) . ويكون وصفها لليني فوق جسدها مفزعا بحسيته . وهكذا يغدو دافيد غرضا محبوبا ، مثلما غدت ايلي بالنسبة لنمرود .

ليس ليني تحديا مدمرا لباردينا . على العكس انه يدعم جانبها الافضل ، قدرتها على العيش والعطاء . وهو اذ ينصحها بالابتعاد عن دافيد ويحل محله في خيالها الجنسي يقوي فيها نازع الحياة . لكن هذه التقوية توقظ وتنشط نازع الموت فيها . ان ليني نقيض دافيد ، وكلاهما باردينا باعتبارها مزيجا غريبا من الحياة والموت . انها تحب دافيد لكونه يهوديا ولانه الموت . وهي تريده في أرض الاشياء الحية ، لكنها تعجز عن الاستجابة لحاجاته التي تخشى من أنها تقودها الى الموت .

وتطلب اليه مرة ان ينجبا طفلا فيرفض : « سيرى اطفالنا كوابيس » (١٣٩) ، وعندما يطلب منها الطلب نفسه فيما بعد ترفض هي : « سيرى اطفالي كوابيس » (١٤٨) . وهي تكره ليني لانه تحد ، ومع ذلك تحتاج الى حضوره . انه يستطيع تحمل ما لا تستطيعه هي : حس بعبث الحياة ، وهو حي . انها تبحث عن معنى ووظيفة على نحو يذكر بدانييل ديروندا ، بينما يدعو هو الى العاطفة وتقبل الحياة كما هي والى العلاقات الانسانية الدافئة غير المقيدة بمثل مدعاة . كلاهما يرقص لاكتشاف الماء في الصحراء ، لكن دافيد لا يفعل . ليني يستمتع بالاكتشاف بطريقة عادية ثم يعود الى خيمته ليخاطب الشيطان . اما ياردينا فثملة ، ترقص وتريد من الجميع أن يرقصوا ، واخيرا يفضح تعبيرها المبالغ فيه عن السعادة حاجتها اليائسة لان تؤمن بحقيقية مشاعرها . بينما يكون دافيد سعيدا سعادة سلبية .

كما هو الحال في **اضبط الخائفين** ، تبرز المؤلفة حالة شخصيتها الرئيسية عبر المباينات ، ليني وريتا ــ وهي عاهرة نبيلة تتبعه الى اسرائيل ــ يقارنان بدافيد وياردينا . الاثنان الاولان يمارسان الحب في الجرف حيث يكون ليني فاوست ومفيستو معا ويساوم نفسه على روحه ، بينما يمارس الاثنان الآخران الحب فوق الارض السوداء وفي المدينة الجديدة وكلاهما « أرض الاشياء الحية » . ريتا تحبل ، بعكس ياردينا . ريتا تمنح جسدها بحرية فتسمى عاهرة ، ياردينا تعشق عدة رجال وتعتبر فتاة شريفة . هناك أيضا رامي ، القائد العسكري المقدام وعشيق ياردينا السابق ، الذي تأتي به المؤلفة لتلقي مزيدا من الضوء على شخصيتي دافيد وياردينا. مع دافيد يصل حديثه الى طريق مسدود . عندما يقول ان واجبه يقتضي قتل العرب يستأذن دافيد ويغادر المنزل . وتشرح ياردينا لرامي حبها لدافيد . انها تعرف كل شيء عن الاغاني والدبابات والطريق الى غزة ، لكنها تريد ان ترى الوجه الآخر . ويأسف رامي لذلك فيذكرها بحياة الهروب التي كانا يحيانها :

( عندما كنا معا فتحنا ابوابا وازحنا حواجز ودخلنا الى غرف على رؤوس اصابعنا ، واذ احببنا ما وجدنا هناك شربناه . لكننا وثبنا عبر ابواب اخرى عندما كان ما وجدناه منفرا . لقد دخلت الى غرفة مختلفة ليس لها باب مكتوب عليه « مخرج » . ) ( ١١٧ )

وهناك أيضا مهندس المدينة الجديدة الذي هو رامي آخر والذي ينذر ياردينا بان « لا تلعبي في انقاذ الارواح . انها لعبة مميتة جوفاء » . (١٤٠)

يتبدى تحرك ياردينا نحو الموت في علاقتها باسرة دافيد ، فكلما سببت كتامة دافيد اضطرابا عقليا لها ظهرت العائلة في احلامها النوميه واليقظوية . انهم يجلسون في زوايا غرفتها أو على سريرها . وحتى أنهم يلمسونها . ويحدث تغير خطير ، اذ تبدأ أسرتها بالحلول محل أسرة دافيد في مشاهد موت متلاحقة ، مما يعطي صورة حقيقة مفزعة هي أن نازع الموت في أسرة صهيونية يماثل في قوته نازع الموت في أسرة يهودية . وهكذا تتبادل أشباح الاسرتين الظهور فتقذف بها في خضم من الموت حتى إنها لتعجز عن ادراك الخطر الكامن في تناولها لعدد كبير من أقراص التنويم . وفي حالات التوازن تسأل نفسها : « أكان ذلك ضميري ؟ » وتتذكر ان « هذا ما يعتقده ليني » (١٠٧) . وتعطي الاسرتان الجواب : انه ضميرها اليهودي ــ الصهيوني.

وعندما يغادر ليني المدينة لانها لم تعد تتسع له ، تبقى ياردينا بمفردها مع حقيقة الموت . ويبدو الآخرون اقزاما لعينيها ، حتى دافيد « قديسي ، شهيدي ، صار رجلا ، الرجل الذي اردت ان يكونه ... شعرت بالقرف . لقد خدعت » (١٥١) . ويأتي موتها الانتحاري كنتيجة محتومة :

كان ضميري ينتظر التقاطه ، والى جانبه جلست جوقة الموتى الاحياء ، كنت اعرف الطريق ، وبوسعي ان اقودهم الى استراحة ، ربما الى جبل الزيتون، او القدس ، او قريتي. ( ١٥٢ )

والمفارقة هي ان الطريق الى الموت تمضي باتجاه جبل الزيتون او القدس او قريتها : وفي المشروع الصهيوني تمثل هذه الامكنة فكرة الانبعاث القومي . ويجلس دافيد ـ الذي يجد ياردينا ميتة ـ الى جانب جسدها طيلة الليل عاجزا عن البكاء او الشجار مع الرب :

( لقد قتلتها ) ، قال ماركو ، لم يكن يتهم وانما يدلي بحقيقة .
( ليس انا [ دافيد ] ، هم فعلوا ذلك ، لم يكتفوا بما لديهم ... لعل واحدا كان ناقصا من كتبهم فأخذوها معهم ، لقد اختارت ان تمضي وتملأ الفراغ ) .
( اجل ، قتلتها . كان بوسعك انقاذها ، أليس كذلك ؟ لقد بدأ هذا منذ عهد طويل ) .
( عهد طويل ... نعم . اجيال ، كان موتا صافيا . ) ( ١٥٣ )

تموت ياردينا لان دافيد أيقظ فيها نازع موت غافيا قهر نازع الحياة خلال أجيال . ولكن هل كسب دافيد خلاصه ؟ عبر الرواية ، توجد اشارات الى تحسنه ، وحتى الى شفائه . فهو يبدأ بالاحتياج ليارديا ، حتى انه يفار عندما يقبلها رامي . وهو يكيف نفسه مع شوشنا ، الطفلة المهاجرة ، ويؤدي معها شعائر عيد الفصح . كما يخاطب المهاجرين الجدد بحمية وأمل . وهو واع بتحسنه التدريجي ، ويجهد للتغلب على محنته . حتى ياردينا تدرك انه قد صار الرجل الذي أرادته . لكن خلاصه هو أساسا هروب : لقد تعلم كيف يتجاهل ماضيه وان يثب ، مثل رامي ونمرود ، « عبر أبواب أخرى عندما كان ما وجدناه منفرا » . يقول ليارديا ذات مرة : « الصليب ثقيل وكبير ، لكن الانسانية قد طورت طريقة سحرية لتجاهل الصلبان » ( ٥٩ ) . انه يهودي تائه بمعنى انه محكوم بالحياة : لقد ماتت أسرته بدلا عنه و « هم يعتقدون ان واحدا يجب ان يستمر في التنفس والتحديق والحس لاجلهم جميعا ، وقد انتقيت لكي لا أموت » (٣٧) . لكن حالة دافيد أكثر تعقيدا من حالة اليهودي التائه . ليس فقط انه محكوم بالحياة ، بل انه يستمد حياته من موت الآخرين . ففي أحد معسكرات الاعتقال ، ينجو من الموت بدفع شاب بولوني اليه ، وفي اسرائيل يكسب خلاصه ـ اذا سميناه خلاصا ـ بتدمير ياردينا . « لم يشعر باي ذنب » ، تكتب المؤلفة :

حمل حقيبته . ترك شعر ياردينا وصور العائلة في الغرفة ، ومشى مبتعدا على الطريق الاسفلتي نحو الافق ... وغطى الغبار القبر ، الرخام ، الحجرة السوداء وعلامات قومية . ( ١٥٥ )

ويمكننا ان نسأل : ما القيمة الاخلاقية والنفسية لخلاص كهذا ، وكم هو مختلف ـ اذا كان مختلفا ـ عن خلاص باومان وسمعان في **لصوص في الليل** ؟ الاقتباس السابق يظهر ان هذا الخلاص غبار . وتجيب عن السؤالين السابقين أسئلته التي يوجهها ليارديا بعد رواية قصة البولوني ، وهي أسئلة تشمل الانسانية كلها :

( ياردينا ، متى يكف الانسان عن كونه حيوانا ؟... هل الرغبه في الحياة تبرير للقتل ؟... الى اين امضي بذنبي ؟ من هو الرب الذي يمكنه الحكم علينا كلنا ؟ ... من هو الرب الذي يريد انسانا ان يعيش وآخر ان يموت ؟ ) ( ١١٤ )

ربما كانت هذه المفارقة المأساوية للوضع كله ، ان **غبار** رواية مفارقات ، وافدحها مصير ياردينا نفسها . فالصمت والامانة اللذين تبحث عنهما يتكشفان عن صمت القبر وامانة الاعتراف بالفشل الكلي . و « أرض الاشياء الحية تتكشف عن ارض للاشياء الميتة . الارض السوداء تتقبل أجساد الموتى ، والرمل يرفضها . المدينة الجديدة تبنى قرب جرف ، وسكانها يأملون بمشاهدة الولادة الاولى قبل الموت الاول : امل مخفق . ولعله من المفيد ان نقارن بداية الفصل الاول ــ وعنوانه ( غبار ) ــ مع بداية الفصل الاخير ــ وعنوانه ( غبار ) أيضا :

كانت المدينة صفراء ومادتها غبارا ، كان نبضها لا نهاية ولم يكن لها اسم بعد . لقد دعوها ( المدينة الجديدة ) ولكن كان ثمة شيء عتيق وجسيم في لا وجودها ، في صغرها .
لقد استلقت هناك ، في خيالنا ، بين الخطة والحقيقة ، اللفظة والانجاز ، المرغوب والممكن ، كهلوسة من لون وتركيب وابراج وجداول ، وكل منا قد حظي بأن يضيف لها شوارع واتجاهات، اجواء وشخصيات ، منحنيات وزوايا ، في الوقت الحاضر ثمة اكواخ قليلة ، مولد كهربائي ضخم ، مضخة ماء ومقهى صغير .
كانت المدينة صفراء ومادتها غبارا . كان نبضها لا نهاية وكان عمرها عاما . ان لها اسما وهوية، معنى وشكلا ، وانتشرت بمربعات بيضاء وزرقاء على مدى النظر .
كان لها اصوات وروائح ، واختبأ الغبار في الساحات، بين حجارة الارصفة، في شعور النساء ، على اوراق الشجر المزروعة منذ عام مضى .

واذا ما تصفحنا عناوين الفصول الباقية تنجلي المفارقة المأساوية بصورة اوضح. فبعد (غبار) و (رماد) يأتي (عشب) و (بذور) و (ماء) ، مما يجعلنا نعتقد ان الآمال التي ترمز لها المدينة الجديدة ــ بما فيها آمال ياردينا ــ تقترب من التحقق . ( عرق ) عنوان للفصل السادس يعطي انطباعات متضاربة ، لكننا اذ ننتقل الى ( حجارة ) و ( رماد ) و ( غبار ) تكتمل دائرة المفارقة . فهذه الحركة الدائرية من غبار الى غبار تعني ان ياردينا كانت طيلة الوقت ميتة روحيا وان بناء المدينة الجديدة ــ الذي يرمز للصهيونية واسرائيل ــ كان « باطل الاباطيل » .

ان الرمز في هذا كله واضح ومباشر . واحيانا متمحل وغير ناجح فنيا الا مع ليني . ومع ان مجال هذه الدراسة لا يتسع لتفحص شخصيات أممية ، فان حضور ليني في الرواية جدير بمزيد من الاشارة . ان عودته الى المدينة يوم وفاة ياردينا ذات معنى مأساوي . فهو يعود ، على ما يبدو ، ليشهد الموت الاول ، موت ياردينا ، وليضع حجرة حمراء على ضريحها ، قبل ان يشهد الولادة الاولى ، ولادة طفله . ان تقبله لعبث الحياة يفرخ خصوبة ، بينما تنتهي محاولة ياردينا المتعمدة لغزو الطبيعة، ومنح الحياة للآخرين ، بمأساة . انه يمثل معاني معينة ( العبث ، الخصوبة ، حق الوجود في فلسطين ) لكنه يفتقر الى مزيد من الكثافة ويبدو اقرب الى التجريد بالقياس لياردينا ودافيد . ويمكن اعتباره رمزا للحياة ( ياردينا ودافيد رمزان للموت ) ، أو للاممييين المعذبين اذ انه يشبه البولوني الذي دفعه دافيد للموت شبها عجيبا . احيانا يبدو انه فاوست ، واحيانا فاوست والشيطان معا ، وقد يعني تحدثه

للشيطان اختيارا بان يعيش بدون قيم ، لكن الشيطان لن يقبل روحه ، على ان تردد المؤلفة بشأن جلاء شخصيته – فهو يمكن أن يعتبر عربيا أيضا الى حد ما ، لولا التصريح بأصله الهنغاري – لا يقلل من تأثيره على جو الرواية الموتي .

ويمضي تقصي السيدة دايان للشخصية الاسرائيلية الى درجة الكمال في روايتها **كان للموت ابنان** ، ١٩٦٧ التي تدور حول شخصية دانيال ، وهو دافيد آخر، في ارتباط نازع الموت فيها بالاصول الاولى له في الشخصية العبرية . ومرة اخرى تمضي القصة على صعيدين ، واقعي ورمزي . فعلى الصعيد الواقعي ثمة القصة المألوفة ليهودي نجا من معسكرات الاعتقال النازية وصار اسرائيليا ، ولكن في مرحلة ابكر من دافيد بحيث بدت عليه تأثيرات الحياة الاسرائيلية التي جعلته اقرب الى نمرود . وهكذا ينضم دانيال الى مجموعة ( الاطفال المتبنين ) و « دخل في اسلوب حياة جلعاد وبدا انه يتقبلها بلا سعادة ولا حزن » (٩) . ان انعدام الاستجابة لديه ازاء الحوادث الاستثنائية شبيه بما لدافيد . فهو مثلا يتلقى نبأ نجاة ابيه من الموت بلا مبالاة نموذجية . أما اخته لابيه فهي « مجرد امرأة اخرى في مقهى تكفا ... تتساءل عما اذا كان أبوها سيسلم [ من الموت ] » (٥١) . غير انه اكثر كلبية من دافيد واقل رجولة .

وثمة ايضا ياردينا في حياته الاسرائيلية ، مع انها ياردينا مختلفة . فقد « خدشت » رينا « السطح ووصلت الى اللحم الغض الذي حرص على اخفائه ولم يعترف بانه هناك » (٣٧) . لكنها لا تمضي الى ابعد من ذلك ، ويعجز هو من اعطائها الفرصة . وبعكس دافيد ، يجيب عن اعترافها بحبه : « بودي لو اعطيك شيئا بالمقابل ... لا أستطيع أن أقول ما تودين سماعه » (٧٤) . ويبدو انها « تعتزم اعادته الى ارض الاشياء الحية » ، وتدرك انه « لا يمكن الاقتراب منه » (٨٦) . وهكذا تتحول الى يورام ويغدو الاثنان حبيبين .

يتشابه دانيال ونمرود في أن الاثنين يجدان في الجيش مهربا . فمثل نمرود ، « اكتشف السهولة التي يقتل بها ... الطاعة الآلية الصماء التي تفضي الى كتلة لحمية بلا حياة » (٨٨) . وبعد موت اثنين من رفاقه في الجيش « انبعث [ فيه ] حقد غير لدى مشاهدة الموتى وبصورة آلية فك قنابله اليدوية ورماها في الكهوف ثم تبعها باصلاء نار الرشاش الحامية » (١٠١) . ويريحه النصر العسكري في سيناء ، عام ١٩٥٦ ، من توتره الدائم ، ولكن عندما يقتل يورام بمجانية اثر انفجار لغم يدرك ، بعكس نمرود ، خواء وتفاهة ذلك النصر . انه اكثر مرونة من نمرود واقل عدوانية بكثير ، وذلك بسبب امضائه عهد طفولته الاول خارج اسرائيل . وهو قادر على الانسحاب حيث يعجز نمرود ، من ان كلا منهما هروبي بطريقته الخاصة .

بالنسبة لرسم الشخصية ، ليس ثمة تشابهات هامة بين دانيال وشخصيات بائيل دايان الاخرى . فعلاقة دانيال بأبيه تضعه في موضع مختلف : لقد اختاره ابوه

---

٩ – Yaël Dayan, **Death Had Two Sons** (London : Weidenfeld and Nicolson, 1967), p. 25.

للموت وهذا ما يعذبه في الحياة ويعطله . ومنذ لحظة الاختيار تلك غدا ميتا روحيا وموجودا بطريق الخطأ بين الاحياء . تقول له رينا : « انت لست هنـاك [ بولونيا ] حقا ... وكذلك لست هنا [ اسرائيل ] ايضا » (٣٤) . أما افتتاحية الرواية فهي حادث موت وشيك : الاب يستلقي على سرير مستشفى وكل من حوله يتوقعون موته خلال ايام . لكن دانيال يعتبر ان اباه قد مات منذ عهـد طويل ، وانـه يموت الآن جسديا فقط :

لقد مت في ذلك اليوم الشتائي ، كالنسكي [ ابوه ] . اخذت شموويل [ الاخ الاكبر ] معك ومت بالنسبة لي وانت الآن تموت ثانية وربما كان كل ما حدث بين [ الموتين ] تافه الاهمية. ( ٢٩ )

ان المشاعر الوحيدة التي تراوده مرتبطة بالموت . انه لا يكره والده ولا يضغن عليه ، لانه يعرف براءة اختياره القاتلة ، لكنه يرى فيه رمزا للموت وقدرا بلا معنى . وهو غير قادر على مناداته ( أبي ) ، وانما ( كالنسكي ) ، لكأنه يكره التفكير فـي أن اداة الموت هذه تمت له بصلة القربى . وهكذا يتوالد فيه شعور مستمر بالمرارة لكونه قد فقد أبا ، ويحفل ذهنه باسئلة مروعة :

ماذا يفعلون [ الاطباء ] بالنسيج الـذي يقتطعونـه [ بسبب السرطان ] : كالنسكي ؟ بعـد الاستئصال هل يحتفظون به في المخبر ليستمر في الحياة بعدك ؟ هل يحرقونه كما حرقت الغولات والانبياء ؟ هل ستكون الصور الشعاعية في مصنفك بعد ذهابك ، بحيث نتمكن من اضافتها الى مصوار (١٠) العائلة باعتبارها ( آخر الصور المأخوذة لوالدنا قبل موته ) ؟ ( ٥٦ ) .

وليس صعبا العثور في هذه الاسئلة على محنة تبلغ حد التعذيب الذاتي ، فحالة دانيال العقلية الرهيبة تشير الى انتقامية موجهة ليس فقط الى أبيه وانما الى نفسه أيضا . ان محاولته التصرف كابن مطيع تغدو عديمة المعنى بسبب عجزه عن تنفيذها. والنتيجة هي أنه يبقى في شقة رينا عاجزا عن الذهاب الى المستشفى حيث يرقـد أبوه ، وعن مغادرة المكان الى جلعاد . ان عقـله مزحوم باستمرار بذكريات الموت ، باللحظة التي تعين فيها على كالنسكي ان يختار احد ابنيه ويعطيه للنازيين ، بموت يورام ، بموت طفله و بـ ( نحاما ) .

ولو ان اباه بقي في بولونيا لكان الامر أروح بالنسبة له ، فالمسافة ستساعده على النسيان وعلى متابعة حياته الاسرائيلية . ان لديـه واجبات يوميـة قليلة ، لا يصحبها طموح ولا انفعال ولا شكاوى . وفي اسرائيل يوائمه فقدان اي موقف محـدد من الناس والاشياء . لكن كالنسكي يجيء الى اسرائيل ، وعلى دانيال ان يواجه حقيقة حضوره . ولكيلا يقع في تعبير مباشر عن كراهيته ، يوجه مصدر مرارته الى متابعة دقيقة لصفات ابيه وتصرفاته . ان كالنسكي رجل عادي في طولـه ونظراته وصفاتـه ومزاجه . ليس استثنائيا ولا بليدا ، شارك اباه في مهنته ، تزوج وجـاءه ولدان ، ازدادت ثروته قليلا . ولكن كانت في حياته لحظة واحدة استثنائية : لحظـة تعين عليه اختيار واحد من ابنيه ليسلمه الى الموت . وهذا ما يجعله في نظر دانيال متميزا وخاصا ، ليس فقط كأب وانما كيهودي . وفي اسرائيل يكون الاب ناشزا . فهو ما يزال يتصرف بالخوف وانعدام الثقة اللذين يميزان يهودي الشتات . وحللته ليست

---

١٠ ـ الالبوم ، حافظة الصور .

استثناء بين المهاجرين اليهود الى فلسطين ، لكن دانيال يجد مأوى مخرجا لمشاعره الداخلية ، ويرصد باشمئزاز كبير كل حركة ولفظ يصدر عن ابيه وهكذا يتعرف من جديد على رجل كريه مشغول بصداعه وآلامه ، باللغة والاسعار والضرائب والديون والفروض . لقد تطور موقف دانيال خلال عشر سنوات المراسلة مع ابيه في وارسو ، وتعزز هذا الموقف بعد وصول الاب الى فلسطين . ان اكثر ما يثير اشمئزازه كون ابيه ما يزال يهوديا :

مثل تلك الاغراس التي نمت في الشمال ثم اعيد غرسها في الجنوب : انها لا تموت لكن الرمل يمتص منها الماء والملح يأكل الجذور فتنحط حتى لتكاد ان لا تشبه شقيقاتها في الشمال الخصيب . انها توجد ، وهذا هو كل شيء ، وانت [ كالنسكي ] تدبرت وجودا ما في بئر السبع . ( ١٥٢ )

نحن هنا مرة اخرى أمام رمز الرمل والغبار الذي كان رئيسيا في الرواية السابقة . ان حكم دانيال على ابيه ليس أجوف . فهذا الاب لم يغير شخصيته اليهودية كما تريد الصهيونية له ان يفعل . انه شبيه بلامخ في رواية **اغبط الخائفين**. لكن كالنسكي يشعر بانه اسرائيلي . وعندما يقدم له دانيال بطاقتي طائرة العودة الى بولونيا ، يصفعه . ويشير الحادث الى مدى الغربة التي يشعر بها دانيال تجاه أبيه . فبالنسبة له ، كالنسكي « رجل فقد كرامته عدة مرات على درب الخلاص وتخلى عن ابنه » (١٣١) . انه تجسيد لذاكرة تبهظ ضمير دانيال ، ومن الافضل التخلص منها والاستغراق في حياته الاسرائيلية :

حياتي بدأت في باري [ بايطاليا ] ، لقد ولدت في باري على قارب وكبرت في جلعاد ، وكل ما حدث قبل باري يجب ان يمحى من عقلي وضميري ، لقد جئتني بالسنوات التي اسعدني ضياعها . ( ١٣١ – ٣٢ )

هذا النوع من الضياع ليس خلاصا لدانيال ، بالطبع ، والمفارقة الجارحة هي ان تشبيه كالنسكي بالشجيرات نصف الميتة التي تنحط في الصحراء يمكن استخدامه مع دانيال ايضا . ان حكم كالنسكي عليه ( « لا يستطيع عقلك ان يوجد حتى في الدائرة الصغيرة التي توجد فيها » ١٨٦ ) ، يؤكد ملاحظة رينا المماثلة التي ابدتها قبل عشر سنوات (١١) . والحقيقة ان اختيار أبيه قد شق ضميره الى الابد ، والمؤلفة تتابع رصد هذا الشق في حياته الاسرائيلية . وفي هذا الصدد ، يعبر احد مراجعي الرواية عن الاسف عن تقصي « الاضطهاد النازي » قد « تشتت في احداث هامشية غير ضرورية » (١٢) . كذلك يعتقد السيد سول مالوف ان المؤلفة « أوشكت ان تنسى هذا [اضطهاد النازية] ، فزودت تصلب الابن بارضية مختلفة تماما » (١٣) . ويبدو ان المراجعين قد افترضا ، لسبب غير معلوم ، ان السيدة دايان تكتب عن المجازر التي حلت باليهود على أيدي النازيين . وليس في رواية **كان للموت ابنان** اي شيء يدعم هذا الرأي ، لا من قريب ولا من بعيد . ان اهتمام المؤلفة الرئيسي منصب

---

١١ – « انت لست هناك حقا . . . وكذلك لست هنا ايضا » .

١٢ – «Two by two» **The Times Literary Supplement,** May 25, 1967, p. 433.

١٣ – Saul Maloff, «Daniel Was a Lout,» **The New York Times Book Review,** Dec. 17, 1967, Section 7, p. 23.

على الاسرائيليين ، يهودا كانوا أم صهيونيين . وان حياة دانيال الاسرائيلية ليست سلسلة من « احداث هامشية غير ضرورية » أو ارضية لتبرير تصلب الابن ، وانما هي حياة ذات دلالة بليغة . فالحقيقة هي انه ، حتى في اسرائيل ، يعيش في جو من الموت لا مهرب منه . وانه بسبب ذلك يعجز عن اقامة علاقات سوية مع الآخرين . وهذا ما تظهره الرواية في اربع تجارب رئيسية اثناء اقامته في فلسطين . فتجربته في الجيش تنتهي الى طريق مسدود . في البداية يكون سعيدا بلجوئه الى الجيش الذي يمكنه من نسيان الاشياء الاخرى . وفيما بعد يروعه حس بمجاورة الموت ، ويدرك ان حياته ليست مضمونة ، فيقتل لمجرد القتل ـ باصرار وحقد . وفي النهاية يغدو كل شيء عذابا وفراغا :

تذكر اثارة الحرب ، خيبة الامل القاحلة بسبب الحرب ، الثمن المدفوع ، المرات العقيمة ، اكواخ الاسرى ، جبل سيناء الجميل والخالي من المعنى بالنسبة له ... والذي زاده تعبا ليس الطريق التي قطعت وانما انعدام طريق جديد . ( ١٢٢ )

هناك ايضا تجربته مع نحاما ، وهي امراة ضائعة فقدت حبيبها في الحرب فراحت تمنح جسدها لكل جندي يشتهيه . وغالبا ما كانت ممارسة الحب معها قبلة الموت الاخيرة ، لان عشاقها جنود يعبرون اما الى الحرب واما الى المناوشات والاعتداءات . انها لعبة حرب وجنس وموت . ومنذ بداية علاقتهما يكتشف دانيال انها « ترقبت الموت وتغذت به » ( ١٠٧ ـ ١٠٨ ) ؛ وهكذا « دفعها بعيدا او ركض مثقل الانفاس » (١٠٨) . الا انه لم يستطع مقاومة سحر الحقيقة التي اكتشفها ، فيعود اليها ذات يوم .

تجربة دانيال الثالثة تنتهي بموت طفله . عندما تحبل عشيقته نيلي ـ وهي نقيضه التام ـ تجري عملية اجهاض وتخبره بذلك بفرح ، كأن قتل بذرة الحياة امر يبعث على السعادة . لكن دانيال يثور ويمتلىء مرارة ، ويعجز عن الغفران . ان موقفه شبيه بموقف أبيه بمعنى انه مدمر اخلاقيا . فليس ضروريا للقتل ان يوجد باستمرار احد النازيين ، اذ ان الموت ممكن الحدوث في داشاو وفي دير ياسين . وفي النهاية يعترف دانيال بانه « اذا كان له الحق بنبذ والده ، فنيلي لها الحق في نبذ طفله » ( ١٨٦ ) .

التجربة الرابعة هي الاهم : علاقة دانيال بيورام . يورام هو معلم المدرسة في الكيبوتز ، وبالنسبة لدانيال هو الاب الجديد الذي حل محل أبيه القديم . انه والد دانيال الصهيوني . عندما يسافر الى اوروبا لاحضار مزيد من الاطفال اليهود ، يشعر دانيال بالضياع وينتظره على مفرق الطرق . وعندما يشب دانيال يغدو يورام صديقه الحميم وصلته الحية الوحيدة بالبلاد . بعد غزو سيناء يلتقيان ، واذ يسمح دانيال له بتفقد جسر بدلا عنه يرسله الى الموت المجاني بفعل لغم مطمور . يتشوه جسم يورام مثلما تشوه جسم جدعون في **اغبط الخائفين** . وتعود موضوعة ( الغبار ) التي عالجتها الرواية السابقة الى الظهور على شكل صلاة موتى فتضيف عمقا جديدا الى مناقشة السيدة دايان للشخصية الصهيونية :

( غبار في غبار ، الرب أعطى والرب يأخذ ، ليتبارك الرب ) (١٢٣) . وتكون

للحادث نتيجة ممزقة لتوازن دانيال الهش فيعود الى تعذيب نفسه بالاسئلة كما فعل مع ابيه :

ماذا يفعلون [ الاطباء ] بالاعضاء التي يقتطعونها ؟ هل يحرقونها ، يدفنونها ، يحتفظون بها في جرار ، يستعملونها للتجارب ، يسألون المرضى عما اذا كانوا يريدونها كتذكارات ؟ ( ٥٦-٥٧ )

ويشعر بالمرارة والضياع التام ، بانه « ذرة أخرى في الصحراء غير المألوفة » (١٧٠) . وتعادل المؤلفة ، بواسطة لحظات الاسترجاع ، تأثير موت يورام ، الاب الصهيوني ، بتأثير موت كالنسكي ، الاب اليهودي ، على دانيال ، ليس فقط بوضعهما معا في الصفحة نفسها وانما بايضاح ان الموتين يعنيان نهاية أية صلة لدانيال بالعالم . واذ يموت فالنسكي جسديا ، توجز المؤلفة محنة دانيال ايجازا مؤثرا :

عندما مات يورام كان هناك غضب مريد ، ثورة ، كان [ الموت ] عالما تخلع واعمدة تهاوت . عندما خسر نيلي ، عندما تخلت نيلي عن طفله ، كان هناك اشفاق ذاتي وغرور جريح . والآن تغلغل الحزن في اوردة كينونته متجاهلا الابواب المفتوحة الى غرف مركومة بالذكريات ومستقرا فيها . ( ١٨٣ )

هذه الصورة الواقعية تتفتق عن رموز بليغة الدلالة . ان بداية مطاف نازع الموت في الشخصية اليهودية تأتي مع ابراهيم نفسه ، باعتباره اليهودي الاول . ان عنوان الكتاب يفترض ان كلا الابنين قد اخذه الموت ، وكذلك الكتاب نفسه . ان لكالنسكي ابنين ، والرواية تبدأ به على فراش الموت ، وكان لابراهيم ابنان ، وقد طلب اليه أن يضحي باحدهما ، وهذا يعني ان كالنسكي ــ ابراهيم يجسد نازع موت لا يبقي أيا من الابنين . انه يعطي اولاده ليس حياة وانما موتا حيا . والسخرية القدرية هي أن يورام ، الاب الصهيوني المضاد للموت ( كما يؤمن الصهيونيون ) يلاقي مصيرا فاجعا . ولكن بداية السخرية تكمن في ان شموويل ( صموئيل ، وربما اسماعيل ) الذي اختير للحياة يقتل ، وان دانيال الذي اختير للموت ينضم الى الموتى الاحياء . وفي التضحية بالابن يخضع حاييم كالنسكي ( الذي يعني اسمه ( حياة ) ) الى سلطة لا قبل له بها . كذلك أمر ابراهيم بالتضحية باحد ابنيه من سلطة لا قبل له بها . كلاهما يعيش سنواته الاخيرة في بئر السبع وهي مدينة ابراهيم الخليل . والموضوع ليس بالطبع اجراء مقارنة بين الارادة الالهية والطاغوت الصهيوني ، فليس فيه أية مضامين لاهوتية بالنسبة للمؤلفة . ان الغاية الرئيسية للكتاب ليست عرض الخير مقابل الشر ، وانما عرض اثر التجربة على النفس اليهودية ، سواء أكانت هذه التجربة خيرة أم شريرة . فسواء أكانت خيرة أم شريرة ، يعتبر دانيال انها قد استولدت الموت في نفسية اليهود . وفي نجوى صامتة ، يخاطب دانيال اباه البعيد قائلا : « كنت ابراهيم ، وكنت الرب » (٢٣) لحظة ان قرر كالنسكي اختياره . انه ابراهيم لانه عانى محنة ابراهيم ، وهو الرب لانه أورث عاقبة تجربته الى ذريته وكأنها قدرهم الشخصي . واذا كان هذا قدرهم ، واذا كان اسحاق ــ بحسب الرواية اليهودية ــ ودانيال لم يموتا ، فـ « من انقذ ؟ » (١٣١) ان السؤال من نوع سخرية القدر ، فدانيال ، الذي يفكر في مصير اخيه وأمه ، يعرف الجواب المفزع . ويخاطب اباه في خياله ثانية :

لقد فقدتني مرة ، قلت ، ولا تستطيع تحمل فقداني ثانية ، جاهلا انك يوم فقدتني في الباحة

الخلقية ، وكنت في السادسة ، كان ذلك الى الابد حتى بعد ان قابلك شبحي في ميناء حيفا بعد سنوات طوال . ( ٨٤ )

ان دائرة تسليم الموت من جيل الى جيل تكتمل عندما يصفي دانيال بعجز مطلق الى نيلي وهي تعلن موت طفلهما . ولكن « لنفترض انه كان على اسحاق ان يضحي بابيه ، أفكان ثمة معنى لكل ذلك ، تساءل [ دانيال ] وسحب كرسيا الى جوار النافذة » (١٠٩ ) . ان هذا ما يفعله دانيال بالضبط مع يورام ، ابيه الصهيونيوالرامز الى الرد الصهيوني على ارث الموت اليهودي . انه فعل تسليم الموت نفسه ، معكوسا ومتضمنا هذه المرة اليهودية والصهيونية . ويبقى دانيال حيا جسديا ، لكنهلا يكتسب خلاصا . فمثل دافيد في **غبار** ، ينقذ دانيال حياته على حساب الآخرين . ان حقيقة كونه « مواطنا في دولة اسرائيل المستقلة » (٣٣) لم تكسبه خلاصا . وتنتهي الرواية الى يأس مطلق .

يندب السيد سول مالوف ، الذي ذكرناه من قبل وهو صهيوني اميركي ، الموضوعة التي اختارتها المؤلفة لروايتها على النحو التالي :

وحتى هذه [ رداءة لغة المؤلفة في رأيه ] حماقة ثانوية ، او غرور ، الى جانب الاهانة الضخمة الاخلاقية والجمالية لانعدام الذوق والعقل في استقصاء المذابح [ النازية ] لاغراض ميلودرامية هامشية مثل ملء الفراغ بتارخلبية . فالنكبة التاريخية والاسطورة التوراتية تغدوان بسوء الاستعمال صيغا للابتزاز العاطفي والكسب غير الشريف . (١٤)

ان هذا هجوم فظ لا مبرر له . فالسيد مالوف قد اخطأ فهم غرض المؤلفة وظنه استقصاء للمذابح النازية ، بينما هو استخدم هذه التجربة المريرة كمثال للتجارب التي يؤمن دانيال انها قد غرست فعل الموت في الشخصية اليهودية . ان الرواية خالية تماما من اي « ابتزاز عاطفي » ناجم عن الاستخدام السيء « للمأساة التاريخية والاسطورة التوراتية » ، ومن الغريب ان يعمد ناقد الى تشويه غرض مؤلف على هذا النحو . ان ملاحظة المؤلفة لبطلها محايدة ، ويبدو ان السيد مالوف قد فسر الاخلاص بالعاطفية . اما ملاحظته الاخيرة ــ ان دانيال يندم فيتلو صلاة قصيرة على قبر والده ــ دليل آخر على قصر نظره . ان كلمات القداس ( يتغدل فيتقدش اسمي رابا ) (١٥) التي يظن الناقد ان دانيال يتلوها هي

كلمات غريبة عنه ، ترجعت وهوت عن التل نحو قبر يورام ، وتدفقت جنوبا مع الاردن فملأت الوادي . ( ١٩١ )

فدانيال لا يؤمن بالرب ، ولم يتعمد وليس آسفا لذلك ، ولم يذهب الى اي كنيس ، ولم يتعلم اية صلاة . وهو لا يندم ، ليس فقط لانه لا يشعر بالذنب ، وانما لانه ايضا قد تجاوز مرحلة الندامة . ان كلمات الصلاة تمثل قمة السخرية المريرة التي تسجلها الرواية . فكل ما يستطيع دانيال فعله ــ وهو يتذكر يورام وقبره وذكريات موت اخرى على طول الاردن ــ هو ان يتلفظ بهذه الكلمات التي لا تحمل اي معنى بالنسبة له لان الموت يحوم على القبور والوديان وكل مكان .

---

١٤ ــ Ibid., p. 23.

١٥ ــ ليتمجد ويتقدس اسم الرب .

# ٣

اليهودية كدين موضوعة جانبية يتكرر ظهورها في روايات يائيل دايان الاربع . جميع شخصيات المؤلفة الرئيسية ، ومعظم الثانوية ، لا يؤمنون بالله . وبدقة أكثر ، ليس لله والكتاب المقدس اي تأثير على حياتهم وتفكيرهم باي معنى ديني . فمع ان هناك كنائس ، الا انهم لا يقصدونها ـ باستثناء لامخ . انهم يعتبرون الدين بقية من ماض كريه ، حشوا يعطل انجاز المثل الصهيونية . حتى حاييم كالنسكي لا يؤمن بالله ، ويذهب الى الكنيس ليقوم بواجب اجتماعي فقط . ان موقف بقيةالشخصيات الذي يبلغ مبلغ النبذ المتعمد للدين هو أساسا رد فعل على النمط اليهودي التقليدي. انهم يبحثون عن اله آخر يعترف تارة بالارض وتارة يكون حاجة روحية غامضة . ففي لحظات الوحدة تفكر آربيل ، في **وجه جديد في المرآة** ، على النحو التالي :

لقد كانت اشق لحظة عرفتها ، لم يبق غير الرب ، ووقعت في ذعر لانه ليس ربي .
لقد زحف ربي وراء الابواب ، ذاب في الاروقة والمعابر المظلمة ، ولم يعد هناك . ( ١١٤ )

انها لا تجد ملاذا في الله ، وهي تتطلع الى رب آخر يكون لها . وفي **أغبط الخائفين** ، تصطرع اليهودية مع عبادة الارض في ذات نمرود ، افري وجدعون يريدانه أن يفعل « شيئا مثمرا صباح السبت مثل اطعام القطيع » (٢٩) ، وليس الذهاب الى الكنيس . فاذا ما اراد ان يصلي فعليه ، كما يقول افري ، « ان يصلي للسماء لتنزل المطر على ارضنا وليس الفضيلة على ارواحنا » (٣١) . وتبدو المؤلفة في هذه الرواية الى جانب الكنيس ، فقط لانه يعلم الخوف . انها تحتج على استهداف القوةالشرس في المجتمع الاسرائيلي ، دون أن تبشر بقيم دينية جديدة . ويتمثل ذلك في المباينة بين اللعبة الارنب والخنجر ، الاولى تختفي والثانية تزداد أهمية . اما في **غبار** فليس للمؤلفة صوت واضح بالنسبة لليقينات الدينية . على ان ياردينا تتأمل بعد سماعها قصة أسرة دافيد كما يلي :

لن يجيبك الرب [ لدافيد ] ، لان الرب خجل منك ولا يستطيع ان يواجه تحديقتك الميتة... سوف يهوي ويختفي كما فعل امام ايوب . ( ٣٤ ) .

ودافيد يناضل الرب اربع مرات في العام ، في ذكريات موت كل فرد من أفراد عائلته . انه يسأل الرب اسئلة مريرة ولا يتلقى اجوبة لها . وبينما تشير مناضلته الى ايمان مبهم بوجود قوة كلية ، فانها لا تعني الايمان الديني ولا القبول بالارادة الالهية. هو وياردينا لم يذهبا قط الى كنيس . وفي لحظة نادرة فقط ، تقدر ياردينا مزية الاحتفال بشرب نبيذ السبت ، ولكن كتقليد فقط ، وتأسف لان « التقاليد في عائلتي دفنت في الارض السوداء واختنقت برائحة الياسمين » (١٤٣) . وفي **كان للموت ابنان** ، يدير دانيال ظهره لليهودية مذ يجيء الى فلسطين .

ويبدو ان مركز المؤمنين في اسرائيل ، كما تظهره روايات يائيل دايان ، ليس مغبوطا . فلامخ ، الحاخام السابق العجوز ، محتقر في أعين القرويين . وفي **كان للموت ابنان** ، « كان متسولان يجلسان امام الجدار العالي المحيط بالمستشفى ويعرضان صلواتهما لاجل المرضى مقابل قروش قليلة فقط » (١١) . على أن ما هو اهم من ذلك ، هو قصة حاخام وارسو التي يريد كالنسكي ان يخبر ابنه بها كانذار .

فالحاخام شبيه بقديس . وقد كان الهاما وقوة روحية واخلاقية لليهود البولونيين الذين اعتادوا زيارته . وفي القديس ، « كان شيء ما يخبو [ منه ] ، السر ولى ، والرحلة انتهت » (١١٦) . وعندما يلتقي الرجلان ، يقول الحاخام :

( مدينة بلا رب [ القدس ] . المماحكات السياسية ، حاخام ضد آخر ، وكلمة الرب ضاعت في الصراع الانتخابي ومكافحة اللاارثوذكس، لكنها ارادة الرب التي جاءت بي الى هنا ، وسأتدبر امري . قد لا نكون مستحقين العودة الى صهيون الآن . ) ( ١٥٦ – ١٥٧ )

وبأسى هاديء يقول : « اينبغي ان يكون اما الكتاب واما الارض ؟ الا يمكن ان نملكهما معا ؟ » (١٥٧) .

ان مسألة الايمان الديني امر منته من حياة الشخصيات الرئيسية في الروايات الاربع ، على ان تكرار ذكرها بطريقة او باخرى يشير الى الضمير المضطرب لاسرائيليي السيدة دايان . انهم مثقلون بذكريات الموت ، وخاصة في الروايات الثلاث الاخيرات. وهم يحملون في اعماقهم نازع الموت ويعجزون عن التكيف مع الحياة ، وهم واعون لمحنتهم . وبسبب من ذلك يشعرون بحاجة مستديمة لاله ، وهي حاجة لا تلبى ابدا. حتى الارثوذكسية اليهودية صارت لعبة السياسة. ومن الواضح، على هذا الاساس، ان الصهيونية قد فشلت كبديل لليهودية ، مع انها نجحت في تنشئة أجيال متتالية من الملحدين . غير ان هؤلاء لا يجدون في الحادهم دينا جديدا ، وليست لديهم قيم روحية من ذلك النوع الذي يرقى بالانسان . ان سبب هذا الفشل ، كما تعرضه الروايات الثلاث الاخيرات . يعود الى نازع الموت الموروث في الشخصية اليهودية والذي تبلور في الاختيار الصهيوني . فحاييم كالنسكي لم ينجه اختياره الابراهيمي ، ويموت في فلسطين غريبا . يهوديا تائها . ودانيال يرسل ابنه وأباه الصهيوني الى موت مجاني ، ويرفض أباه اليهودي ، ويكون هو نفسه واحدا من الموتى الاحياء . واذا كان دافيد قد تدبر أمر بقائه حيا على حساب حياة الآخرين فان خاصية الموت فيه قاتلة على المستويات جميعها . وهؤلاء الثلاثة موتى روحيا وحياتهم بلا معنى . أما الصابرا ، وهم الاسرائيليون الانقياء ، فتمثلهم شخصيتان رئيسيتان . فالموت كنازع موروث فيهم مبحوث في شخصية ياردينا التي تسلم نفسها عمليا للموت . والموت كمحصلة للصهيونية مبحوث في شخصية نمرود الذي يموت « موتا [ روحيا ] فجائيا » عندما يدرك استحالة خلاصه .

والسؤال الآن : هل تمثل شخصيات السيدة دايان الاسرائيليين ؟ وليس الجواب سهلا . ان نقد المؤلفة لمجتمعها شديد ، وخاصة لروحه العسكرية وتتبعه القاتل لمبدأ القوة . ويبدو في المآل ان الصهيونية قد فتحت لليهود قناة جديدة يعبرون بها الى الموت . وفي الروايتين الاخيرتين تحل تشاؤمية مطلقة محل النقد ، حيث لا باب مكتوبا عليه « مخرج » ، كما يقول رامي لياردينا . ومن ناحية أخرى ، يتعين علينا الانتباه الى ثلاث نقط قبل الاجابة على السؤال . فالشخصيات الثانوية لا تتوافق دائما مع الرئيسية . في **اغبط الخائفين** ينقسم القرويون الى مجموعتين غير متعادلتي العدد : الاقوياء والودعاء . ان سكان الكيبوتزات الذين خلقوا اسرائيل كواقع استعماري . هم الاقوياء وهم الذين تهوي عليهم مطرقة المؤلفة بادانتها الاخلاقية . اما

سكان المدن ، مثل يورام ولامخ ( في **اغبط الخائفين** ) فهم الودعاء . ولكن يبـــدو ان لامخ ويورام استثناءان وليسا قاعدة . ففي مشهد في تل ابيب ، تشن المؤلفة هجوما لاذعا وشخصيا على مثقفي المقاهي الذين ينتمي اليهم يورام ، والذين يتحدثون عـن السلام والجمال والفن :

فنانون نادرا ما رسموا ، كتاب ظهرت روايتهم الاخيرة قبل عشر سنوات ، وصحفيون يكتبون لكل من يدفع اكثر، القوا بالانسانية على الطاولات و ...مزقوها اربا اربا ، ورقعوها والصقوها واعادوا بناءها ليدمروها ثانية . ( ٩٧ )

وفي **غبار** يكشف رامي والمهندس المعماري ، وهما عمودان من أعمـدة المجتمع الاسرائيلي ، عن خصائص لو انها استقصيت بالطريقة التي استقصيت فيها خصائص ياردينا لتجلت عن الواقع الموتي نفسه الذي ( تعيش ) فيه تلك الفتاة الشقية . أمـا رينا ، في **كان للموت ابنان** ، فتذكر القاريء بياردينا ، كما رأينا من قبل ، لكنها تنهـي مغازلتها لدانيال بسرعة وتنقلب الى يورام (١٦) ، قبل ان نطلع على ما في ضميرها .

والنقطة الثانية هي ان **مذكرات جندي** الذي طبع في وقت واحد مع **كان للموت ابنان** ، يظهر يائيل دايان مختلفة قليلا . والكتاب بصورة عامة وصف لحرب حزيران عام ١٩٦٧ . انه يخلو من الدعاية الطنانة التي اتسخت بهـا جمهرة الكتب الاوروبية والاميركية المكتوبة عن هذه الحرب . لكن ثقة المؤلفة وفخرها واضحان . انها جندية اسرائيلية ، برتبة نقيب ، على جبهة سيناء ، تسجل اعمـال رفاقها فـــي السلاح وحماسهم واستعدادهم للموت ، قوتهم وانتصارهم . ثمة تعاطف خفيف مـع الجنود المصريين ، وفرح غامر بالنصر . غير ان الكتاب ليس عملا قصصيا باية حال ، وربما كان مفيدا للمؤرخين او العسكريين المحترفين . وكما يقول السيد بروغان ، فالسيدة دايان « لا تستبصر ماذا يعني أن تكون جنديا » (١٧) . ان نصر حزيران نصر ضخـم بالطبع ، ولكن مثل ذلك من ناحية عسكرية كان نصر ١٩٥٦ . لقـد رأينا تأثير تلـك الحرب على رجال روايات السيدة دايان . ويمكننا ان نتذكر هنا ما قالته المؤلفة في **اغبط الخائفين** : « او لم تكن الحرب في الهواء ، لكان من الضروري اختراعها » . لقـد استقبل **مذكرات جندي** باهتمام في بعض انحاء العالم ، ولكن ربما لانه جاء في أعقاب حرب حزيران ، وفي مقابلة مع المؤلفة تقول هي : « لسوف أكره أن يحجب الكتـاب الرواية [ كان للموت ابنان ] » (١٨) . وهو قول له دلالته بالنسبة لسؤالنا عمـا اذا كانت شخصيات دايان تمثل الاسرائيليين .

النقطة الثالثة وهي الاهم ، هي أن الجو التشاؤمي في هذه الروايات يتناقض مع الصورة الظاهرية لاسرائيل ، ولكنه جزء من ظاهرة عامـة فـي الادب الاسرائيلي المعاصر . يخبرنا السيد آموس ايلون ، الذي اقتبسنا مؤلفه في الفصل الاول ، أن

---

١٦ – تستعمل المؤلفة بعض الاسماء في اكثر من رواية واحدة . مثلا : رينا في **وجه جديد في المرآة** ، **اغبط الخائفين وكان للموت ابنان** ، يورام في **اغبط الخائفين وكان للموت ابنان** ، رفقا في **غبار وكان للموت ابنان** ، جدعون في **اغبط الخائفين وغبار** .

١٧ – Patrick Brogan, «Battlefield,» **The Times**, Dec. 2, 1967, p. 20.

١٨ – «Yaël Dayan Here to Launch War Book and Novel», **New York Times**, Nov. 1, 1967, p. 41.

الاسى الاخلاقي والوجودي الذي افرزته التناقضات المتأصلة في المشروع الصهيوني يسيطر باطراد على ايقاع ومحتوى الادب الاسرائيلي الحديث . (١٩)

س. يزهار ، وهو واحد من كبار الكتاب الاسرائيليين وعضو الكنيست ، « قد رسم ابطاله ( وهم غالبا جنود دون العشرين من عمرهم في حرب ١٩٤٨ ) وقد اضنتهم شكوك مذبلة وشجن اخلاقي جهم » (٢٧٥) . أما افراهام ب . يهوشوا فقد كتب **في مواجهة الغابات** وهي رواية « ترمز بوضوح الى المجتمع الاسرائيلي الجديد الذي أقيم على انقاض [ مجتمع ] آخر » (٢٧١) ، وتتحدث عن رغبة عارمة لحارس غابات اسرائيلي في اضرام النار في « غابة جديدة » زرعت فوق بقايا قرية عربية . ويكتب السيد ايلون ايضا عن قصص آموس أوز ما يلي :

يقف المراقب للحياة الاسرائيلية متحيرا امام هذا الانفجار للتشاؤم القاحل الكئيب وسط مجتمع قائم على اساس الانجاز والجدة ومرسوم بحلم وضاء . ( ٢٧٤ )

وتؤكد المراجعات التي تناولت ترجمة **ميشيل الذي لي** ، لآموس أوز ، ما يكتبه آموس ايلون . فـ « التورم هو تورم اسرائيل القلعة » (٢٠) التي تحلم بها حنه ، بطلة الرواية ، بان فدائيين عربيين توامين يفتصبانها . « أنا صهيوني ، ولكن صهيوني حزين » . يقول السيد أوز ، ويضيف : « لن أكون اول من يطلق هذه الامة . . . [ ولكن ] سأكون سعيدا بان أكون الثاني او الثالث » (٢١) . ويعلق السيد سبانير على فضح هذه الرواية للثقة بالنفس في المجتمع الاسرائيلي بما يلي :

في اعماقها [ هذه الثقة ] يثوي شعور عريق بالخوف اليهودي ، وهو يكشف عن نفسه في احساس بالذنب يشعر به كثير من الاسرائيليين تجاه العرب ويؤدي في حالة البطلة الى استيهامات شبقة . (٢٢)

وفي الرواية ما هو اكبر من « احساس بالذنب » ، فحنه تقترب كثيرا من ياردينا في **غبار** ، مع انها لا تنتحر . فكما يقول السيد آلتر ،

ان اهواس البطلة الجنسية هي فقط الاعراض الاولية لحاجتها الى الحصول على شعور بأنها حقيقية ، بأن احدا او شيئا خارج ذاتها يمكن ان يكون حقيقيا ، ان حقيقتها وحقيقة انسان آخر يمكن ان ترتبطا وتعتنقا . (٢٣)

ان قصص السيدة دايان يضيف اضافة هامة الى هذه الظاهرة في الادب الاسرائيلي المعاصر . غير أن كون ثيماتها اسرائيلية ويهودية بحتة ، وكون رواياتها خالية تقريبا من الشخصيات العربية ، يضعانها في موضع خاص منفرد بين الكتاب الاسرائيليين . ومع ذلك ، فهي وهؤلاء الكتاب يمثلون مجموعة ما بعد صهيونية بدأت تعيد النظر في انجازات الحركة الصهيونية . ان يظهرون اتجاها قويا الى النقد الذاتي والتقييم الصارم للمحنة التي وضعت فيها الصهيونية جميع معتنقيها .

---

١٩ – Amos Elon, **The Israelis**, p. 268.

٢٠ – Eric Silver, «Sad Son of Zion,» **The Guardian**, April 24, 1972, p. 8.

٢١ – «Sad Son of Zion,» **The Guardian**, p. 8.

٢٢ – David Spanier, «Amos Oz: exposer of Israel's secret fears,» **The Times**, April 29, 1972, p. 14.

٢٣ – Robert Alter, «An apolitical Israeli,» **The New York Times Book Review**, May 21, 1972, section 7, p. 5.

# الفصل الثامن

## خاتمة

ربما أظهرت مراجعة سريعة للمواد (١) التي نوقشت في هذا الكتاب مجموعة متنافرة من الشخصيات الصهيونية . لكن هذا التنافر الظاهري نتيجة للاختلاف العميق في أغراض الكتاب ومنظوراتهم ، والى طول الفترة التي ظهرت فيها هذه الآثار الادبية . وغرض هذه الدراسة ، كما بينا سابقا ، لم يكن اجراء مقارنات وانما التحليل والتثبيت . ومع ان المقارنات امر لا مناص منه ، فالصفحات التالية تحاول عرض الخصائص العامة للشخصيات الصهيونية المدروسة .

بالنسبة لرسم الشخصية يبدو ان اهم صفة للصهيوني هي كونه مثالا لا واقعا. وباستثناء-صهيوني دايان ، يجسد الآخرون اما رؤية او فكرة او مفهوما مسبقا . فآلروي دزرائيلي تعبير عن حلم مرحلي ، وسيدونيا يجسد تمجيد المؤلف لذاته ولليهود على نحو لا يقاربه الا آري بن كنعان في **الخروج** . ديروندا وموردخاي مصبوبان في قالب أخلاقي صوفي . اما باراتز وليون وجوزف فيحاولان تحقيق مثال عن الحياة يتجاوز الواقع او يرفضه ، وتنبع أحكامهم واختياراتهم وتصرفاتهم من مفهوم مجرد عما ينبغي ان تكون عليه الحياة اليهودية . وفي ذلك كله نسمع بوضوح نبرة التعظيم الذاتي التي نسمعها لدى دزرائيلي .

وفي مجال البيئة التي توضع فيها هذه الشخصيات بقصد اعطائها صبغة واقعية ، يمكن القول ان النتيجة كانت معاكسة لما اراده الكتاب . فسيدونيا يبدو ناشزا للغاية في **كونتغزبي** و **تانكريد** ، حيث لا يوجد مبرر مقبول لعزلته عن المجتمع الذي يعيش فيه والذي يحيطه بالتكريم والتقدير . وفي هاتين الروايتين بالذات يتشدق سيدونيا وايفا بيسو بموضوعات لا علاقة لها بالقصة ، التي تخلو من الاسباب الكامنة وراء اختيار دزرائيلي الصهيوني . الانفصال نفسه ملحوظ في **دانييل ديروندا**

---

١ ــ تعذرت مناقشة كتابين في هذه الدراسة ، هما الجزء الاول من **الرباعية الاسكندرانية** للورانس دريل ، و**تذمر بورتنوي** للاميركي فيليب روث ، ولم تكن مناقشتهما ممكنة بدون الحاق حيف كبير بموضوعتيهما الرئيستين . ويشفع لنا في ذلك ان صهيونية جوستين عابرة وموقتة ( وهي المثال الوحيد الذي اعرفه عن الصهيوني المرتد ) ، وان ظهور الصابرا في **تذمر بورتنوي** اقصر من ان يكون موضوعا لدراسة من هذا الصنف .

بين الشخصيات الصهيونية والخلفية التي ترسمها المؤلفة بقصد تعزيز واقعية هذه الشخصيات . وقد نجم عن محاولة جورج اليوت المضنية لالحاق موردیخاي وديروندا بحركة تاريخية حية ، ابتعاد غير معقول عن حدود الواقعية وانجراف في خضم الغيبية والصوفية . فبدلا من تقديم العوامل الموجودة بالفعل والتي سببت ظهور الصهيونية لجأت الى تصور يرفضه الواقع قدمت فيه الشخصية اليهودية في اطار استمرارية غير متغيرة لقوة ميتافيزيقية ، هي قوة العرق والوراثة ، جعلت من اليهود شعبا غير قابل للاندماج مع الشعوب الاخرى . وتلك بيانات ينفيها الواقع بسهولة .

ان واقعية ليون وباراتز تأتي من انتمائهما الى بيئتين واضحتين . ولكن الاول مشحون بمشاعر وافكار منبتة عن واقع اليهود الانكليز ، والثاني يحاول ان يخلق أسطورة من تجربة استعمارية مألوفة . وتبدو افكار ليون ازاء واقع الهجرة اليهودية الى اميركا نكتة غير مضحكة . أما باراتز فيرفض بيئته الروسية ، ويحاول خلق بيئة جديدة ، لكن وصفه لوضعه الجديد جزئي ومتحيز وغالبا غير صادق . وبهذا المعنى يكون جوزف السيد كوستلر فضيحة صهيونية . ان أشواقه الطوباوية ، الشبيهة باشواق باراتز ، تصطدم باضطراد مع المؤسسات الصهيونية في فلسطين ، وتعجز عن تبرير السرقة والقتل الا بالاغراق فيهما . وعلى اية حال ، فان اسطورة باراتز متواضعة قياسا على أسطورة الكتاب الاميركيين الاربعة . ويبدو انه كلما ازداد ضغط الواقع والخناق الروحي على الصهيوني كلما ازداد حجم هذه الاسطورة .

ان هؤلاء الصهيونيين الذين رسموا على صور مثالية يتشابهون في معظم النواحي الرئيسية . فقد انبثقت صهيونية هؤلاء كرد فعل على ظروف صعبة وليس كولادة طبيعية . ونجم عن ذلك تمجيد هائل لليهود ما يزال حتى الآن ملموسا في الادب الغربي ؛ ورغبة لا واعية بقهر العالم الاممي . وفيما يحاول دزرائيلي تضميد جراح كبريائه عن طريق المنفخة ، يحاول الكتاب الاميركيون الاربعة توكيد تفوق اليهودي على نفسه أولا ثم على الاممين ثانيا بحيث يظهر وكأنه بطل معصوم . ان هذه عرقية عنيفة ومدمرة ومفتقرة الى الوعي والصفة الانسانية . وهكذا يشترك سيدونيا وآلروي والصابرا في كونهم شخصيات اسطورية . وتتخذ هذه الاسطورة قالب تبرير عقلي بادعائها اعادة خلق اليهود على أحسن تقويم . ويفضي هذا التبرير الى ضرورة اعادة خلق العبرانيين القدماء ايضا . ففجأة يغدو هؤلاء مثالا ونموذجا تضمحل امامه حضارات ما بين النهرين ومصر وسورية ، ثم اليونان والرومان واخيرا الاتحاد السوفييتي .

ويفسر عامل الزمن الاختلاف الظاهري بين أوائل الصهيونيين وأواخرهم . فعندما يثور دزرائيلي على العالم الاوروبي الاممي عام ١٨٣٣ ، تكون صورة فلسطين في ذهنه باهتة ودعائية . انه ما يزال يشعر ان اوروبا هي وطنه الحقيقي . وعندما يكتشف ديروندا وموردیخاي نفسيهما وامتهما وتاريخهما تغدو صورة فلسطين أقل بهوتا ، وتجعل فكرة الاشتراكية صهيونية ليون أكثر ملموسية من تصورات زميليه السابقين . وهؤلاء الاربعة ليسوا صهيونيين باي معنى واقعي . انهم تجسيدات لافكار وتصورات لا تستطيع رؤية المأساة الكامنة في انانيتهم وغرورهم . أما صهيونيو

القرن العشرين فيعرفون انفسهم بانجازاتهم : غزو الارض ، الكيبوتزات والموشافات، اتحادات العمال ، جيل الصابرا ، ثم تأسيس اسرائيل . وتغدو المثالية عملية اكثر منها تخيلية .

ثمة صفة اخرى غير هؤلاء الصهيونيين ، هي نفورهم من اليهود والحياة اليهودية . فكره دزرائيلي الذاتي لكونه يهوديا قد اشير اليه اثناء مناقشة امراضه ومواقفه البرلمانية . لقد ادرك طيلة حياته ان يهوديته كانت العائق الاكبر والدائم امام نجاحه . في **آلروي** ، يتذمر البطل من قبول اليهود بذلهم ، وعندما يغدو ملكا على بغداد يعلن احتقاره لليهود بلغة جارحة . وقد اطلعنا باراتز كيف شعرت المراتان في دغانيا بالذل لانهما كانتا تمارسان حياة اميهما في روسيا . ويزداد النفور من اليهود شدة لدى الصهيونيين المتأخرين فيمسي عداء ، وايلانا في **الينبوع** مثال بارز لذلك . ان نوبتها العصابية ، اذ تلطم الحاخام اتزيك ، تشير ليس فقط الى نبذ الحياة اليهودية وانما الى الخوف منها ايضا . ويشاركها هذا الشعور افري وجدعون ودانيال في روايات يائيل دايان . فالفرق كبير بين افري اليهودي ــ الاسرائيلي وبين ابنه الاسرائيلي فقط . وعندما يعبر للامخ عن قرفه منه يصفه بانه « جد يهودي » . وقد راينا كيف يحتقر دانيال يهودية ابيه كالنسكي . اما جوزف **لصوص في الليل** فيتأمل في العلاقة بين الصهيوني واليهودي بمنظور تاريخي . ان شعوره تجاه اليهود متضارب ، تمتزج فيه الرقة والاشمئزاز ، التبرير المتعاطف والنقد الشرس . فعندما تسيطر العقلنة على تفكيره يرى في اليهود شعبا ضحية : في شرق ووسط اوروبا اجبروا على حياة الاقاصي ، اقصى الخوف والكبرياء والتزلف والجهد ، وفي اوروبا الغربية تمدد قوام شخصيتهم بفعل التسامح فهم ليسوا اوروبيين كاملين ولا يهودا كاملين ( وهذا مثال على عمى الصهيوني عن رؤية ظاهرة اندماج اليهود في المجتمعات الاوروبية ) . وفي كلتا الحالتين يستعصي تعريف اليهودي الا بعبارات النفي . ومن ثم يعاني جوزف من فقدان الهوية في انكلترا وفلسطين . وعندما تندفع حوافزه الداخلية خارجة من عقالها ، يظهر منه حقد كثيف لليهود والصهيونيين معا . ويقول لماثيوز انه لا يلوم الاممين لكونهم لاساميين . ان اليهود ينقلون غيتواتهم معهم انى تحركوا . فسبب تحوله الى صهيوني هو انه يكره الـ « يد » . وفيما بعد يكره الصهيونيين ايضا ، ويقول لرفاقه في برج عزرا ان فلسطين قد صارت غيتو جديدا .

وبشكل خاص يكره هؤلاء الصهيونيون الدين اليهودي . في القرن التاسع عشر يظهرون تعلقا واضحا باليهودية ، يختلف باختلاف الكتاب . فدزرائيلي يعتبر المسيحية كمال اليهودية ، ويعتبر شريعة موسى الاصل والنبع للفكر الاوروبي الاخلاقي والديني . اما نفور ديروندا من اليهود فيذوب باضطراد معرفته باليهودية . واذ يتسلم صندوق جده المغلق على التوراة والتلمود يشعر انه قد اتحد بثقافته . ويزوده موردخاي ، بالطبع ، بالمعلومات المطلوبة ، فيؤول الى الاعتقاد بتفوق الدين اليهودي وخلوده . لكن الشعور هذا ينقلب الى عكسه في صهيوني القرن العشرين ، كما ورد في الفصول السابقة .

لكننا ينبغي الا نخلط بين كراهية الصهيونيين للحياة والدين اليهوديين وبين شعورهم تجاه العبرانيين . فهم يلتمسون في التاريخ العبري المكتوب في التوراة مصدرا للفخر والهوية . انهم ينبذون الدين ولكنهم يؤمنون بالميثولوجيا . وتفسر فكرة العرق المختار تعلق الصهيونيين بالارض على النحو الصوفي الذي بحثناه من قبل ، كما تفسر اعتبارهم التاريخ العبري فريدا في تفوقه . لذلك يتقمص الصهيونيون الشخصيات المحاربة في التاريخ العبري ( جدعون ، شاوول ، دافيد ، الخ .. ) وليس الشخصيات النبوية ( اشعيا ، ارميا ، حزقيال ، الخ ... ) ، ليس بمعنى الاستمرارية الثقافية ـ فهذه خرافة ـ وانما بمعنى الاستمرارية العرقية . ان السر العرقي الذي تقوم عليه رواية **دانييل ديروندا** ما يزال الفرضية الاساسية لادعاءات الصهيونيين القومية والجغرافية . وتختلف في هذا الصدد رؤية جورج اليوت الانسانية عن رؤية باراتز وآري وافري ونمرود التي هي شوفينية ومغلقة .

كذلك يتصف الصهيونيون باحساس نفاذ بالعزلة عن بقية البشر ، وهو وضع انزلوا انفسهم فيه مختارين . فبعد ان يئسوا من اوروبا ادانوا الانسانية كلها . واذ اغلقوا امام اذهانهم رؤية الفرص التي اغتنمها غيرهم من اليهود للاندماج ، قرروا ان العالم معاد لهم بلا استثناء ، وظلوا يعززون هذا القرار حتى صار بالنسبة لهم حقيقة نفسية ووضعية . ولعل تجربة دزرائيلي الصهيونية مثال يوضح تجارب الآخرين ، باستثناء الصابرا . والاحساس بالعزلة في هذه التجربة ذو شقين : عزلة عن الاميين الاوروبيين واغتراب عن الذات . فالصهيوني الاوروبي انسان ينتمي اساسا الى اوروبا وليس فيه سوى أثر سامي ضئيل . وقد الح الصهيونيون على هذا الاثر وأغفلوا المكونات الاخرى ـ وهي أوروبية ـ فوقعوا في غربة عن ذواتهم . فديروندا وليون وجوزف انكليز بالدرجة الاولى . ولعلنا لم ننس شكوى سترلتسكي من انكليزية ليون . وبعد سنوات سبع من حياة الريادة في فلسطين يشير جوزف الى انكلترا بكلمة « وطن » . ويبدو باراتز مختلفا عن السابقين في كونه مضمما على خلق هوية جديدة له . ان قراره بهجر شخصيته الروسية يضعه في فراغ قاس لا تستطيع يهوديته ان تملأه . واذ يحاول ان يملأه بوقائع الحياة الجديدة ويغفل عما يحدث ، يكتشف ابناؤه واحفاده الصابرا ان هذه الوقائع مجموعة من الادعاءات والجرائم . ان سبب العمى هو حاجة هؤلاء لان يبرهنوا على انفسهم ويؤكدوا ذواتهم . العالم يشير اليهم باعتبارهم يهودا دون ان يعرف اجد ماذا تعني كلمة « يهودي » بالضبط . ولانهم واعون بهذا الشرط الشاذ ، يشعرون بحاجة يائسة لتأسيس هوية لهم . وبهذا المعنى تكون الصهيونية محاولة للتغلب على احساس عميق باللاانتماء للانسانية افرخه الاختيار الصهيوني نفسه .

يمثل الصابرا والاسرائيلي ، نظريا على الاقل ، الهوية الجديدة لليهودي العصامي الذي يمتلك وطنا وينتمي الى أمة يعرف بها نفسه . والاستنتاج المنطقي الممكن الوصول اليه عن هذا الوضع الجديد هو ان الصهيوني ، وخاصة الصابرا ، لم يعد يشعر بالاغتراب عن ذاته ، مع ان علاقته بالعالم اللاصهيوني ما تزال اساسا كما هي . ان آري وايلانا وآرييه يعرفون تماما ما هم ، ويتحدثون بلا انقطاع عن انفسهم وأمتهم

وتاريخهم . وبدلا من شعور معتكر بالاقصاء عن العالم الاممي ، يهدهدون في اعماقهم ارتيابا حادا به وعداء سافرا لهم . لقد تطور الشعور بالغربة لدى الصهيونيين الاوائل الى موقف عدواني لدى الصابرا يستهدف اقصاء العالم الاممي عن عالمهم . لقد رفضوا هذا العالم لانهم عجزوا عن التكيف معه .

هذا الاحساس بالغربة يرافقه احساس بفقدان الوطن . ويميل المنطق الصهيوني الى اعتبار الاول نتيجة للثاني ، وليس العكس . ويفسر موردخاي وليون وباراتز وجوزف امراض الحياة اليهودية بانه ليس لليهود وطن . وهذا التفسير قائم على أساس وجود قومية يهودية . فعندما يؤمن اليهود الروس والكنديون واليمنيون ، بطريقة ما ، بانهم أمة ، يؤمنون بالتالي بضرورة ايجاد وطن مشترك ويشعرون بعدم الانتماء للانسانية . وهكذا تغدو الارض المقدسة مهمة سياسيا كلما ازداد سخط الصهيوني على الانسانية . وقد تدرج هذا الشعور من نقطة الصفر الى المغالاة . في البداية لم يكن ثمة تفكير في وطن قومي ، وكانت فلسطين حلما دينيا مرتبطا بظهور المسيح اليهودي ونهاية العالم . ثم لمعت الفكرة في ذهن دزرائيلي ، الذي وصف « طموحه المثالي » بانه حلم . لكن فكرة هيرتزل لم توصف كذلك . وفي القرن العشرين صارت الفكرة ايمانا حاول الرواد تلقينه لابنائهم كحقيقة تاريخية .

في الادب ، يظهر منطق صهيوني القرن العشرين تناقضا واضحا . فباراتز والصابرا يتحدثون عن رابطة غيبية بين فلسطين واليهود أدى فصمها الى انحطاط اليهود . ان فلسطين جسد حي وليست رقعة جغرافية . انها تزدهر عندما يعيش اليهود عليها ومعها ، وتتدهور عندما يحتلها غير اليهود . وبالتالي يكون غزو الارض وتحريرها من كنعانيي القرن العشرين ضرورة وواجبا اخلاقيا وفعل عدالة . لكن جوزف وياردينا يدركان ان كنعان لم تكن أبدا لهم ، وانه كلما اراد اليهود امتلاكها تعين عليهم ان يحاربوا . ويقرن جوزف محاولة الصهيونيين الحالية لاغتنام الارض بما فعله يعقوب للطش الوعد الالهي من عيسو . أما الصدمة التي تصيب ياردينا اذ تدرك ان الارض ليست لها تنجرف بحتمية الحرب الشرسة . ولا يشعر جوزف وياردينا ابدا بانهما في وطن حقيقي . فرغم مشاركة ياردينا في بناء المدينة الجديدة الرامزة الى اسرائيل ، ورغم عقلنة جوزف المستمرة ، ينجلي جهدهما الجهيد لكسب راحة العقل وحس الامانة عن فشل محقق .

ان التناقض بين خطي المنطق هذين بيّن . ولكن ثمة ما هو اكثر من ذلك في شخصية باراتز واضرابه . هذه المطالبة الملحاحة بالارض ، وخلق الاساطير عن علاقتهم بها ، يوحيان بعكس ما يراد الحديث عنه : هل يؤمن هؤلاء فعلا بحقهم التاريخي في فلسطين ؟ واذا كان الامر كذلك ، فلماذا لا يحذو اليهود العرب حذوهم وهم اكثر التصاقا بالبلاد من الاوروبيين ؟ ان صهيوني أوروبا الاوائل يتخيلون فلسطين في صور مجردة . انهم لم يواجهوا بعد بحقائق الوضع في فلسطين . أما بالنسبة للصهيونيين المتأخرين ، فحقيقة وجود العرب في البلاد محورية . باراتز يقدم تقريرا مقتضبا عنهم . لقد عوض للعرب وصرفوا بعيدا . ولكن عندما يرفض العرب ان

يصرفوا بعيدا يعمد آري بن كنعان وايلانا والصابرا الى قتلهم او تهجيرهم بحرق قراهم . ويوضح هذا الموقف حقيقة مفادها ان المنطق الصهيوني اقوى بكثير من اي وازع أخلاقي . ان « المخرج » الوحيد ، على لغة رامي ، هو أن يقبل الصهيونيون ببناء منطقهم على نظرية « عصر الجليد » التي يتبناها باومان ، وان يعموا عن حقوق غيرهم . وبهذا يغدو الصهيونيون كلهم ارهابيين ، وليس مناحم بيغن فقط ، كما يحاول كتاب التاريخ الصهيونيون ان يبينوا . ويكاد أن يكون مستحيلا التسليم بجهل زمرة باراتز والصابرا للمشاكل الانسانية المتأصلة في ادعائهم فلسطين وطنا لهم . كذلك لا يمكن التسليم بان الجانب الاخلاقي للمأساة غير مهم ، لان مآل نظرية عصر الجليد هو القتل والقتل والقتل . واذا كان الصهيونيون غير مكترثين بانسانية الآخرين ، لدى فتكهم بهم ، فماذا عن انسانيتهم هم ؟ ان ملاحظات جوزف فكتور ، التي سرعان ما أخفاها المؤلف ( في الفصل السادس ) واسطورة الاستعمارالصهيوني، وفرضية النقاء العرقي ، ونوبة الهستريا التي تصيب غولدا مائير عندما يتوسل للعرب المهجرين بالقوة من صفد أن يعودوا ــ هذا كله وامثلة اخرى كثيرة تشير الى حاجة الصهيونيين الملحة لبرهان شرعية مطالبتهم بفلسطين . ومن الواضح انهم يحاربون ادراكا عميقا بلا عدالة هذه المطالبة ، بتأسيس انفسهم على الارض أولا وبخلق اسطورة عن العلاقة بينهم وبينها . ولا تخطر لهم ابدا فكرة حقوق العرب في فلسطين ، مع انهم واعون بـ « التناقضات المتأصلة في المشروع الصهيوني » كما يقول آموس ايلون. لقد فسر السبب آرون دافيد غوردون الذي يصفه باراتز بانه منظر حياة الكيبوتز . انها نفسية اليأس ، والحقد على أوروبا ممتزجا بمثل عنيفة .

ستتوضح هذه الصفات الصهيونية اذا ما فحصناها في شطري الصهيونيين ، الاشكنازي والسفاردي . ان صهيوني القرن التاسع عشر سفارديون. لكن الاستنتاج ان الصهيونية سفاردية المنشأ خاطيء ، فلم يكن لهذا الانقسام اثر يذكر على نشوء الصهيونية ، كما تخبرنا بذلك الاعمال الادبية . غير ان الاشكينازيين يسيطرون على المسرح الصهيوني في القرن العشرين . وبين عشرات من هؤلاء ، ثمة ست شخصيات سفاردية ثانوية ، يظهر اثنان منهم ، يمني وسوري ، في **لصوص في الليل** ، مرة واحدة فقط ، ويقومان بتنفيذ حكم الموت على المختار . وليس ثمة ما نعرفه عنهما سوى معرفتهما التامة باللغة العربية . ويوصف واحد من سفارديين في روايات يائيل دايان بانه « أسود » ، وهو يلاقي حتفه على الجبهة المصرية . أما مواقف وصفات زكي ( في **اغبط الخائفين** ) وبغدادي ( في **الينبوع** ) فقد نوقشت في الفصلين السادس والسابع . ويعطي السيد ميتشنر الشطر السفاردي بطريقة تلقي ضوءا كافيا على الفروق الجوهرية بينه وبين الشطر الآخر ، الاشكينازي. فالمحتفلون بـ «كهف ايليا» يؤكدون على حقيقة مظلمة هي وضعهم المتردي في اسرائيل بسبب اختلافهم الكبير عن الاشكنازيين . ان حيويتهم وسهولة عيشهم تتناقضان تناقضا صارخا مع جدية الاشكنازيين . ففيهم عفوية وطبيعية يفتقر لها باراتز وأمثاله . وشخصيتهم مزيج شرقي من الشهوانية والروحانية الشفافة ، وهذه صفة غريبة عن جوزف وآري وياردينا . انهم عاطفيون ولكن غير حازمين ، محبون ومتقلبون ، معبأون بحس

بالاستمرار التاريخي وعاجزون عن صنع التاريخ ، متحررون من عقدة الغيتو وغير متأثرين بالثقافة الغربية . وفوق هذا كله فهم يندبون ويحتجون ويأسفون لوضعهم المزري في جو التفرقة المرير الذي يسود المجتمع الاسرائيلي اقتصاديا وتعليميا واجتماعيا والذي جعل منهم ضحايا . فصلاتهم الاجتماعية مع الاشكنازيين قليلة ، واقل منها الزواجات . والاشكنازيون يعتبرونهم عنصرا متخلفا في اسرائيل ينبغي شحنه بقيم الصهيونيين الغربيين لئلا يظلوا أقرب الى العرب منهم الى الاشكنازيين . والسفارديون بعيدون عن الاحساس بالاغتراب الذي رأيناه لدى الاشكنازيين ، وانما هو إحساس بالاغتراب عن المجتمع الذي اختاروا ان يعيشوا فيه . ان صلتهم بالارض سوية وعادية ، خالية من المفهوم الغيبي الذي أفرخه الاشكنازيون في ذواتهم . شولاميت ، السفاردية ، وطبري ، العربي ، صديقان حميمان اكثر بكثير مما هما مع الاشكنازيين . كذلك فان احتفالات السفارديين بكهف ايليا شرقية تماما ، كما تقول شولاميت للارلندي كلينين .

هذه الشروخ العميقة بين السفاردي والاشكنازي مذكورة فقط في **الينبوع** . ان السفارديين في الرواية الصهيونية العشرينية ثانويون ، وهم دائما في المحل الادنى . وظهورهم في هذا النوع من الادب يوحي بانه لا « فضل » لهم في قيام اسرائيل . ان اعادة خلق الذات ، التي هي هدف الصهيونية المعلن ، أمر آشكنازي بحت ، ولا يمت الى السفارديين باية صلة . وهو في القرن التاسع عشر هلامي وغير متحقق . بالنسبة لجورج اليوت ، التي أعطت هذا الهدف صيغته الافضل ، تعني اعادة خلق الذات العودة الى السواء ، اعادة تأسيس استمرارية تاريخية بين الاسرائيليين القدماء والحاليين . والارتفاع بالحياة اليهودية المنحطة الى مستوى انساني جميل وعادل . وفي القرن العشرين تتشكل الرؤية وتتبلور ، وتغدو وظيفة الادب الصهيوني وصفها بدلا من التنبؤ بها . وعلى هذا ، يمكننا ان ننظر في شخصية اليهودي الذي ولد من جديد صهيونيا . المستعمرون هم ، بالطبع ، جيل انتقالي يعيش بين الحلم والحقيقة . وهم واعون بوضعهم ومدركون لضرورة البقاء في هذه الاحلام وتحويلها الى حقائق . ان حياتهم مكرسة بكليتها الى تحقيق هذه الاحلام في ممارساتهم وعلاقاتهم اليومية . هذا لا يعني بالطبع انهم يفتقرون الى حس بالواقع او انهم عاجزون عن تمييز الحقائق التي يواجهونها والتي تتناقض مع مجرى حياتهم الحالم وتحيله الى كابوس . انهم ببساطة يرفضون الاعتراف بهذه الحقائق ويحاولون خلق نقائض لها بغية الغائها او تدميرها . واذ لا يتم لهم ذلك ، يستمر نضوب المشاعر الانسانية منهم وتصبح شخصياتهم مركبا غريبا من التناقضات . ولعل هذا هو المفتاح الاهم لدينامية الشخصية الصهيونية التي تسفر عن نفسها في محاولات عنيفة لتغيير نظام العالم كله كيما يلائم حاجاتهم ومزاجهم . ان شدة هذه الرؤية ماثلة في رغبة الصهيوني بالتضحية والتحمل خلال تجربته الاستعمارية المؤسة . وهي ماثلة بدأبه الشديد على العمل في الارض وتصميمه على خلق الحياة الجديدة واستغراقه في مصالحه الخاصة فقط . لقد نجحوا في تأسيس وجودهم على الارض ، واقامة تعاونيات تظهر نمط حياتهم الجديد ، ونظموا انفسهم في اتحادات عمالية ، ثم أعلنوا

دولة اسرائيل . وبصورة عامة ينهض وجودهم الجديد على أساس مزيج غريب من القومية والعرقية والاشتراكية .

ان درجة التغير من يهودي الى صهيوني هي بالطبع المحك الذي يحكم به المستعمرون على انفسهم وانجازاتهم . بالتحديد ، هو التغير من يهودي الغيتو الى الصهيوني المعصوم . وان الصابرا هم ظاهرة هذه التغير الاكثر اهمية وبروزا . انهم يقدمون مثالا فريدا عن كيف يمكن للايديولوجيا التي توجه كل شيء في حياة الانسان أن تتدخل في عمل الطبيعة وخصائصها وفي نمو الكائن البشري . ويخبرنا كوستار في **لصوص في الليل** ان الصابرا هم ما راهن المستعمرون عليه . وبالنسبة للكتاب الاميركيين الاربعة فان هؤلاء هم البرهان الحي لمزايا اليهود المتفوقة . وهذا ما يؤكده باراتز وافري . واذا كان الهدف هو التغير ، فلا شك ان الصهيونيين قد حققوا هدفهم . فالصابرا مختلفون الاختلاف كله عن نظرائهم اليهود في أوروبا ( قارن دافيد ورامي في **غبار** ) . الا ان اعادة خلق الذات ، وخاصة كما صورتها جورج اليوت ، أمر آخر . وفي الحقيقة يصعب جدا اعتبار هذا التغير واعادة خلق الذات شيئا واحدا لدى الصهيونيين . على السطح ، يبدو ان صابرا الكتاب الاميركيين يتباينون بشدة مع صابرا كوستلر ودايان . فالاميركيون الاربعة يعتبرون الصابرا نسيجا لا مثيل له من الصفات المتفوقة ، بينما تصورهم **لصوص في الليل** كأناس تحت ـ أسوياء وتقدمهم يائيل دايان في رؤية موتية .

لكن الصابرا كلهم متشابهون نفسيا واخلاقيا . وسواء أكانوا طرزانات عبرية او صخورا او ابناء بندقية فهم ابعد ما يكونون عن السواء . وهذا الشذوذ هو نتيجة المحاولة التي لا تلين في قولبة الجيل الجديد بقوالب المثل الصهيونية . كل مجتمع يمارس ، بالطبع ، تأثيرا على افراده . لكن هذا التأثير تجاوز في حالة الصابرا كل حد طبيعي وصار عملية قاسرة أدرك مأساتها جوزف وجدعون وافري وبرق بن كنعان ( والد آري ) . ليس هناك أسهل من وصف الصابرا بعبارات البطولة وغض النظر عن النفسية الشائهة التي ترغمهم على القيام باعمال خارقة . لقد اعتمد الكتاب الاميركيون على استعداد القارىء للقبول بانطباعاتهم دون فحصها . ان آري وايلانا وآرييه يلعبون لعبة « من هو الاقوى ؟ » نفسها التي يلعبها نمرود ويصلون الى المآل نفسه الذي وصل اليه نمرود . انهم مثل نمرود منتصرون ، لا يمكن النيل منهم ، باردون عاطفيا وعدوانيون . ومثل نمرود ويارديا ، يحاولون توكيد انفسهم والشعور بحقيقيتهم باظهار صفات فوق بشرية وانجاز مهمات استثنائية . والمأساة هي انهم غير واعين بحقيقة كون شخصيتهم الاسبارطية خالية تماما من الانسانية . فنمرود وآري وايلانا قادرون على غزو جبل الشيخ وعكا والجليل ، لكنهم عاجزون عن ممارسة علاقات انسانية سوية . وهذا واضح في انعدام الانوثة من جوردانا ( اخت آري ) وفي نوبات ايلانا العصبية . السؤال البسيط هو : أين اعادة خلق الذات في شخصية ايلانا ؟ ثمة ما هو أكثر من الوطنية العمياء في هوسها . ان سلوكها يكشف عن خوف مكين من ان الحقائق التي تغافل عنها المستعمرون الرواد قد تنبثق فجأة ، يوما ما ، وتهيل حطام حقائقها هي عليها . ان فلسطين قد تصير مسلخا أو ـ في أحسن الحالات ـ

غيتو ضخما . ان عقدة الغيتو تظهر في حافز التوسع ( آري يطرد سكان الجليل ، ايلانا تطرد سكان عكا ، نمرود يغزو سيناء ، ياردينا تقهر الصحراء ) .

اذا كان التغير يعني القدرة على بناء برج بابل جديد بالمعنى التوراتي ، أو التغير من يهودي راضخ الى صهيوني شرس عدواني ، فالتغير واقع . لقد جابه القصص الصهيوني خيال قرائه ـ المعتادين على قراءة **تاجر البندقية** و **أوليفر تويست** ـ بشخصيات مثلى . ومع ذلك فان الحلم والمثالي لم يتحققا في المستعمرين ولا في الصابرا . ان قصة الصهيوني قصة « خروج » وليست « تكوينا » ، بحث عن«مخرج» أو « ذرة من صمت الليل أو امانة النهار » . وهذه نتيجة للموقف الصهيونيالاساسي من الحياة القائمة على ما تسميه الصحافة « خلق الحقائق » . ومن الضروري الاشارة الى نوعين من الحقائق المدمرة للنفسية الصهيونية . النوع الاول حقائق خارجية ، لعل أهمها وجود شعب غير يهودي على « أرض اسرائيل » . لقد اخفقت الاسطورة القائمة على علاقة اليهود بارض اللبن والعسل في ايجاد حق أخلاقي او ملكية سلمية للبلاد . ورد الفعل الصهيوني على هذا الاخفاق هو . اما الارهاب وسفك الدم واما احلام اليقظة . ان معسكر باومان يضم ، كما أشرنا ، آري ونمرود وايلانا ورامي ويورام ودانيال . فهؤلاء يتبنون موقفا أخلاقيا يبرر الحصول على أهدافهم باية وسيلة ممكنة . أما الآخرون فيتفلفون في أحلام طوباوية بمجتمع عادل وسلمي . انمحاولتهم نصف الصادقة للتسوية بين الحقائق المتضادة تفضي بهم الى مزيد من الاحلام الطوباوية ( موشيه وماكس يفكران بتنظيم اتحادات عمالية عربية ) أو الى نهاية مأساوية ( فاجعة ياردينا ونمرود ) .

أما النوع الثاني من الحقائق فمتعلق بحياة الصهيوني نفسها : عليه أن يقتل ، يحتقر العواطف ، يعتمد على القوة والغزو ليجني الآمان ، يعيش في غيتو كبير ، يعاني انقساما قوميا بين اشكنازي وسفاردي . هذه الحقائق لا تشير الى حياة صحية . ان الوضع الصهيوني ـ الملموس في الشخصيات جميعها بدءا بباراتز ـ وضع تتضارب وتصطرع فيه الحقائق المادية والنفسية والاخلاقية ، وهي حقائق تشبه أثاثا روكم فوق بعضه بعضا في غرفة ضيقة . هذا الوضع هو وضع محنة وليس اعادة لخلق الذات ، والصهيونيون يحاولون الخلاص منه ، ولكن بدون جدوى.

وفي حدود معرفتي ، فان كوستلر ودايان هما الوحيدان اللذان استكشفا هذه المحنة الصهيونية . ان التحجر الذي تنتهي اليه عملية تحويل اليهودي الى صهيوني ظاهر في الطرزانات العبرية وافري وجدعون ونمرود وجدعون الصغير . وموضوعة العنف تتجلى عند باومان وسمعان وجوزف ونمرود ورامي ودانيال . ومعضلة القناعات المتضاربة قائمة في شعور جوزف بالكره والعطف تجاه اليهوديةوالصهيونية، وفي صدق ياردينا الفاجع ، والقدرة على تجاهل الحقائق الكريهة تبدو لدى ماكس وساره وموشيه والمهندس ورامي ودافيد . وبينما يعتقد جوزف ان هذه المحنة موجودة باستمرار في حياة اليهود ترى السيدة دايان فيها نازع موت عريقا ودائما في شخصية اليهودي كانت الصهيونية آخر تعبير عنه .

ثمة نقطة اخيرة تجدر الاشارة اليها في تقديم السيدة دايان للشخصية الصهيونية . ان ليني في رواية **غبار** يسيطر على ضمير يارديا ودافيد . ان كونه اميا ليس بالتأكيد من قبيل المصادفة . ان غرض المؤلفة من تقديمه بين عشرين أو اكثر من الصهيونيين هو على ما يبدو عقد مباينة بين الاميين واليهود الصهيونيين . فمن ناحية يرمز ليني الى الحياة بعبثيتها وخصوبتها . وليس بعيدا عن الصواب القول بان حياة الاميين المعاصرة ـ وخاصة الاوروبيين منهم ـ عبثية ( حجارة ليني الجميلة الملونة ) ، ولكن من المعقول ايضا الافتراض بان هذه الحياة جميلة ومنتجة ويمكن الاستمتاع بها ( يعود ليني الى المدينة ليشهد ولادة طفله ) . ومن ناحية اخرى فان حياة يارديا تتميز بالبناء ( المدينة الجديدة ) وبالتدمير الذاتي ( موتها الانتحاري ) . دافيد يصف ليني بانه حقيقي ، بينما يعرف هو ( دافيد ) انه ظل انسان . ليني يثبت نازع الحياة في يارديا ، دافيد يدمره . احساس ليني بالعبث يبدو اصدق حياتيا واكثر انسانية من العقيدة الصهيونية ، وقدرته على الاستمتاع بالحياة حتى على الرمال تشير الى عجز الصهيوني الفاجع عن معانقتها . ان الخاتمة الوحيدة الممكن استخلاصها من هذا كله هو انه فقط بالاندماج مع الاميين يمكن لليهود ان يعيدوا خلق انفسهم .

# محتويات الكتاب


**الفصل الاول :** مقدمة ٥

**الفصل الثاني :** اليهودي الطيب ١٥

**الفصل الثالث :** ما قبل الصهيوني ٢٩

**الفصل الرابع :** الصهيوني : مكتشفا للذات والامة ٥٣

**الفصل الخامس :** الصهيوني : رائدا ومستعمرا ٨٣

**الفصل السادس :** الصهيوني : صابرا ١١٧

**الفصل السابع :** الصهيوني : اسرائيليا ١٣١

**الفصل الثامن :** خاتمة ١٥٧